قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

مقضيًّا: هناك كلمتان في العربية القضاء والقدر، ويظن الناس على العموم أن معناهما واحد، مع أن الأمر ليس كذلك. فقد قال صاحب المفردات: "القضاء فصلُ الأمر قولاً كان أو فعلاً، وكل واحد منهما على وجهين: إلهي وبشري؛ والقضاء من الله أخصُّ من القدر لأنه الفصلُ بينَ التقديرِ، فالقدرُ هو التقدير، والقضاءُ هو الفصلُ والقطعُ. وهذا كما قال أبو عبيدة لعُمر – رضي الله عنهما – لما أراد الفرار من الطاعون بالشام: أَتَفِرُّ مِن القضاء؟ قال: أفرُّ من قضاء الله إلى قدر الله؛ تنبيهًا أن القدر ما لم يكن قضاءً فمرجوٌّ أن يدفعه الله، فإذا قضى فلا مَدفَعَ لـــه". (المفردات)

وبيان ذلك أنه ورد في التاريخ أن سيدنا عمر ﷺ لما ذهب إلى الشام استقبله جنودُ المسلمين وقائدُهم أبو عبيدة، وكان وباء الطاعون، الذي دُعي باسم عمواس، قد تفشى في بعض مناطق الشام. فجمَع الصحابةَ واستشارهم، وقال لهم: كان الطاعون يتفشى في الشام من قبل أيضًا، فماذا كان يفعل أهلها؟ قالوا: كانوا يبتعدون عن مكان الطاعون، إلى أن تخفّ وطأة هذا الوباء. وأشار الصحابة على عمر ألا يذهب إلى مكان الطاعون، فقرر العمل بذلك. فلما علِم بذلك أبو عبيدة الذي كان شديد التمسك بالظاهر، قال: أتفرّ من القضاء؟ فأجابه عمر رضي الله عنهما مشيرًا إلى عادة أهل الشام هذه وقال: أفرُّ من قضاء الله إلى قدر الله. بمعنى أن الله تعالى قد جعل قانونًا عامًّا وقانونًا خاصًّا، والقانون العام هو أن الذي يفر من مكان الطاعون إلى مكان نقي الهواء ينجو من هذا الوباء. فما دام الفرار من مكان الطاعون أيضًا من قوانين الله تعالى فإني لا أخالف أيًّا من قوانينه ﷻ، وإنما أفرّ من قضائه إلى قدره.. أي من قانونه الخاص إلى قانونه العام. فسيدنا عمر ﷺ قد فرّق هنا بين القضاء والقدر، وقد قال صاحب المفردات إن ما يقصده سيدنا عمر هو

"أن القدر ما لم يكن قضاءً فمرجوٌّ أن يدفعه الله". فكأنه أوضح بأنه لم يدخل بعد في منطقة الطاعون، ومن نواميس الله تعالى أن المرء إذا ابتعد من المنطقة المضروبة بوباء الطاعون نجا منه، وأنا أنتفع من هذا الناموس الإلهي.

التفسير: ليس المراد من قوله تعالى ﴿هو عليَّ هيِّنٌ﴾ أن هذا الأمر صعب على الناس ولكنه سهل لي؛ ذلك لأن الأمر المشار إليه ليس صعبًا على الناس فحسب بل هو مستحيل تمامًا. إذن فليس هنا أي مقارنة بين قدرة الله وقدرة البشر، وإنما هذا إعلام من الله تعالى بأنه إذا أراد شيئًا فكل شيءٍ هيّنٌ وسهلٌ عليه.

أما قوله تعالى ﴿ولِنجعَله آيةً للناس ورحمةً منا﴾ فاعلم أن اللام في ﴿ولِنجعَله﴾ للعاقبة، والمراد أننا فاعلون ذلك حتمًا، فيصبح هذا الولد آية ورحمة للناس من قِبلنا. أي أننا حين نخلقه من دون أب سيكون ذلك علامة على أننا على وشك أن ننقل النور الإبراهيمي من بني إسحاق إلى بني إسماعيل، ويكون هذا ﴿رحمة منا﴾.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: إذا كانت النبوة قد انقطعت عن بني إسرائيل من خلال المسيح، فكيف صار هو رحمة للناس.

وجواب ذلك (أولاً) أن قوله تعالى ﴿ورحمة منا﴾ إشارة إلى تعليم المسيح، حيث أخبر الله تعالى أن الخشونة والقسوة الموجودة في اليهود ستُزال بواسطة المسيح الذي سيدعو الناس إلى المحبة والرفق، ويعمل جاهدًا على نشر الرحمة، وهكذا سيكون ظهوره مدعاة رحمة للدنيا.

وثانيًا، أن نبي آخر الزمان ﷺ ما كان ليولد إلا بانتقال النبوة من بني إسحاق إلى بني إسماعيل. فبما أن المسيح كان سببًا لظهور من هو رحمة للعالمين ﷺ وجاء ليمهّد لنـــزول تعليم الرحمة فقال الله تعالى إننا جعلناه ﴿رحمة منا﴾.. أي جعلناه سببًا لتحقق تلك النبوءة العظيمة المتعلقة بظهور نبي آخر الزمان ﷺ. وكأن المسيح كان مفتاحًا للباب الذي كان من المقدر أن تنـــزل بانفتاحه رحمة عظيمة من الله تعالى.

ما أعظم هذا الكلام دليلاً على كمال القرآن! فبالرغم من أن المسيح عليه السلام سيدٌ للنصارى، إلا أن الإنجيل حين تحدث عن نبوءة ولادته لم يذكر أنه سيعمل على

نشر المحبة بين الناس. ولكن القرآن الكريم حين ذكر نبوءة ولادته ذكر أيضًا أن الله تعالى كان قد أخبر مريم قبل ولادته أنه سينشر تعليم المحبة. إن هذا الأمر إذا كان يشكل برهانًا عظيمًا على صدق القرآن وكماله وعدله، فإنه أيضًا دليل على كون الإنجيل ناقصًا. إن أكبر مزايا المسيح عليه السلام تعليمه الداعي إلى الرحمة، ولكن الإنجيل لم يذكر ذلك، ولو تلميحًا، حين ذكر نبوءة ولادته، أما القرآن الكريم فسجل هذا الأمر.

ولا يعزُبَنّ عن البال أن كل نبي كان في حد ذاته آيةً من آيات الله تعالى، ولكن من دأب المسيحيين استغلال بعض الكلمات بطريق خاطئ. فمثلاً لا شك أن قوله تعالى ﴿ولنجعَله آيةً للناس ورحمةً منّا﴾ دليل على عظمة المسيح عليه السلام، ونحن المسلمين أيضًا نعترف بعظمته، ولكن المسيحيين يستغلّون مثل هذه الكلمات فيُطْرون المسيح إطراء كبيرًا. إننا لا نقلّل من عظمة المسيح، كلا، بل إننا نعتقد أنه نبي عظيم ورسول كريم، ولكنا لا نؤمن بأنه كان يملك من الكمالات ما لا يوجد في غيره من الأنبياء، أو أنه كان أكثر كمالاً من رسولنا الكريم ﷺ. يستنتج المسيحيون من قوله تعالى ﴿ولنجعلَه آيةً للناس﴾ أن هذا اعتراف من القرآن بأهمية خارقة للمسيح. ولكنه استنتاج غير سليم، إذ يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه قد استخدم هذا اللفظ في حق الأنبياء الآخرين أيضًا. فمثلاً قد سرد تعالى في القرآن رؤيا لأحد من الأنبياء ثم قال له ﴿لِنجعلَك آيةً للناس﴾(البقرة: ٢٦٠). وقد قال ذلك للنبي حزقيال الذي كان أدنى درجة من موسى وداود عليهم السلام.

بل قد استخدم الله تعالى هذا اللفظ في حق ناقة، دَعْك من نبي، فقال ﴿هذه ناقةُ الله لكم آيةً﴾(الأعراف: ٧٤). فإذا كانت الناقة يمكن أن تكون آية، فما فضل المسيح عليه السلام في كونه آية؟

ثم قال الله تعالى لفرعون ﴿فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لِمَن خلفَك آيةً﴾(يونس: ٩٣). فالقرآن الكريم قد استخدم لفظ "آية" للأنبياء الآخرين علاوة على المسيح، وللحيوانات أيضًا، بل حتى لفرعون عدو الله عز وجل. فثبت أن لفظ الآية

لا يعني إلا أن المسيح كان سببًا لجلاء حقانية الله تعالى، وليس أنه أفضل من الآخرين.

كما ليس في قوله تعالى ﴿ورحمةً منا﴾ أيضًا ما يدل على فضل خارق للمسيح عليه السلام، إذ سبق أن قيل في حق يحيى عليه السلام أيضًا ﴿وحنانًا من لدنّا﴾، وكلمة الحنان تعني الرحمة في اللغة العربية حيث ورد في القواميس أن الحنان تنطوي على معنى التعبير عن المحبة مع صوت*، كحنين الأم إلى ولدها حيث تداعبه وتلاطفه ببعض الكلمات.

فالحنان تدل على كمال الحب المعبَّر عنه بكلمات. ومِثلُ هذه المحبة لا تتولد بدون رحمة، بل إن منبعها الرحمة دائمًا. فثبت أن الحنان مرادف للرحمة. فالله تعالى يؤكد هنا أنه منح يحيى عليه السلام الرحمة.

بل لقد قال الله تعالى عن يحيى ما لم يقل عن المسيح إذ بيّن أنه قد أعطاه هذا الحنان أو الرحمة من عنده ﷻ، بينما قال عن المسيح إنه جعله للناس رحمة، فالله تعالى قد نسب الرحمة هنا إلى نفسه لا إلى المسيح. فكان يحيى رحمة متجسدة، أما المسيح فبُعث إلى الناس كآية رحمة فقط. والظاهر أن الرحمة المتجسدة شيء عظيم.

ثم إن رسولنا الكريم ﷺ لم يُسمَّ رحمة فحسب، بل قال الله تعالى لـه ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾(الأنبياء: ١٠٨). وهذا يعني أن عيسى عليه السلام لم يُسمَّ رحمةً، بل سمي آية رحمة، وأما يحيى فسُمِّي رحمة من لدن الله تعالى، وأما رسولنا الكريم فلم يُجعَل رحمة مختصة بقوم أو بزمان، بل جُعل رحمة لكل العالم ولكل الأزمان إلى يوم القيامة. وكأن النبي ﷺ (١) جُعل رحمة، وليس أنه بُعث رحمةً بالناس؛ (٢) وأنه لم يُجعل رحمة مختصة بقوم معين أو زمان معين، بل جُعل رحمة للعالمين.

---

* ورد في أقرب الموارد: حنّتِ المرأة: إذا اشتاقت إلى ولدها، وحنَّتِ القوسُ: صوّتتْ. وحنَّ القضيبُ: صوّتَ عند لَيِّه. والحنّانةُ: القوس المصوّتةُ. والحنين: صوت الطرب عن حزن وفرح *(المترجم)*.

قد يقول هنا بعض المسيحيين نحن لا نسلم بأن جملة ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ تعني أنه جُعل رحمة لكل العالم، إذ قد ورد عن مريم أيضًا ﴿إن الله اصطفاكِ وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾(آل عمران: ٤٣)، وعندما تفسرون هذه الآية تقولون إن مريم فُضّلت على نساء قومها فقط؛ فإذا كان لفظ ﴿نساء العالمين﴾ يعني هنا نساء قومها فقط، فلمَ لا يُفهَم هنا أن محمدًا (ﷺ) جُعل رحمة لقومه فحسب، وليس لكل الدنيا.

والجواب أن الكلمة قد يكون لها مدلول محدود أو غير محدود أيضًا، وإن السياق هو الذي يحدد هذا الأمر. وفي سورة الأنبياء حين ذكر الله تعالى أفضلية نبينا ﷺ ذكرها بعد ذكر الأمم غير العربية وخاصة بني إسرائيل، حيث أعلن الله تعالى قبل هذا ﴿أنّ الأرض يرِثها عبادي الصالحون﴾(الأنبياء: ١٠٦). فثبت أن هذه الأفضلية هي على جميع الناس بما فيهم بنو إسرائيل، وأنه وعدٌ واسع النطاق جدًّا. فلو لم يكن هنا ذكرٌ للشعوب غير العربية لجاز لكم القول أن محمدًا كان رحمة للعرب فقط مثلما كانت مريم أفضل من نساء قومها بني إسرائيل فحسب. ولكن القرآن لا يذكر هنا العرب، بل الشعوب الأخرى، ويخبر أن الله تعالى سينـــزع نعمه من بني إسرائيل ويهبها للمسلمين. فثبت من السياق بكل وضوح أن النبي ﷺ كان رحمة للشعوب الأخرى أيضًا. ولكن الوعد الذي قطعه الله تعالى لمريم فجاء في سياق قومها فقط. فلا يمكن أن يقال عن الوعد الذي قُطع للنبي ﷺ أنه مختص بقومه فقط، لأن الله تعالى قد ذكر هناك شعبًا آخر كان يحسب نفسه أنه أفضل شعب في العالم كله، ووعَد بأنه سينـــزع نعمه منهم ويهبها للمسلمين. فثبت أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للقبائل العربية فحسب، بل لشعوب العالم كله.

أما قول الله تعالى ﴿وكان أمرًا مقضيًّا﴾ فاعلم أن الله تعالى قال من قبل ﴿هو عليَّ هيِّنٌ﴾.. أي إذا أراد الله تعالى أن يخلق أحدًا من غير أب فهو أمر سهل بالنسبة لله تعالى، لذا يخبر الآن أن ولادة الابن عند مريم من غير أب كان قضاء الله تعالى لكي تنقطع النبوة عن بني إسرائيل وتنتقل إلى بني إسماعيل. وكان أمرًا مبرمًا لا يمكن إلغاؤه أبدًا، بل أصدر الله ﷻ الأوامر بتنفيذه وإمضائه.

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾

التفسير: كيف حملت مريم، هذا سرٌّ إلهيٌّ أسمى من القانون الطبيعي، أو إذا كان ضمن القوانين الطبيعية فإنه لا يزال حتى الآن سرًّا مكنونًا بالنسبة للإنسان. وهناك الكثير من أسرار القوانين الطبيعية التي لم يتمكن الإنسان بعد من الاطلاع عليها. خذوا القنبلة الذرية مثلاً، فلم يكن للإنسان أي علم بها، ولكن الإنسان اكتشفها الآن؟ وبالمثل هناك أسرار كثيرة في خلق الله تعالى التي لم يكتشفها الإنسان بعد، ومنها الولادة من غير أب. إن الله الذي خلَق كل الكون بقوله ﴿كُنْ﴾ لقادر على أن يحدث في الأنثى تغييرات غير مسبوقة. غير أننا نجد في التاريخ أيضًا شهادات تؤكد ولادة أولاد آخرين من غير أب. ومثاله جدّة أسرة "منجو" التي حكمت الصين ودُمّرتْ في حوالي السنة السادسة أو السابعة الميلادية. يخبرنا التاريخ أن هذه الجدة حملت من دون زواج. فأثار الناس ضجة كبيرة، ولكن هذه السيدة، وكانت بنتًا لراعٍ، أخبرهم أن لا ذنب لها في ذلك، بل إن ملاكًا ظهر لها وهي ترعى الغنم، وقال لها: ها أنا ألقي عليك نور الله تعالى، وستلدين ولدًا سيكون ابنُه ملِكًا على بلاد الصين كلها. فصرتُ حاملاً بعد ذلك، فما ذنبي في ذلك؟ فقال القوم إن هذه تخبرنا بخبر المستقبل. فلننتظر ونرى ماذا يحدث. فولدتْ بعد تسعة أشهر ابنًا. فقالوا: ها قد تحقق الشطر الأول من خبرها، ولننتظر باقي الخبر أيضًا. فشبّ ابنها وتزوج في سن الثامنة عشرة أو العشرين. ثم لم تمض فترة طويلة حتى رُزق هو الآخر ابنًا. ولما بلغ هذا الابن الخامسة أو السادسة عشرة من عمره عمّت الفوضى في البلاد. وكان هذا الشاب فتى شجاعًا، فجمع حوله لفيفًا من الشباب، وشن الهجوم على القرى المجاورة واستولى عليها. فشجعه هذا النصر إلى المزيد من الإقدام، فتقدم وأخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار حتى صار ملكًا على الصين كلها. فأكدت هذه الأحداث صدق قول هذه السيدة بأن الله تعالى هو الذي أخبرها بهذا الخبر.

كما ورد عن جنكيز خان أن الأمر نفسه وقع مع أمه. علمًا أن للأتراك فرعين: أحدهما البرلاس الذي أُسرتُنا منه، والفرع الآخر الذي كان منه جنكيز خان وباتو خان وجتلائي خان وغيرهم من المشاهير. فلما مات أبو جنكيز وصارت أمه أرملة، رضي بها القوم ملِكةً على البلاد بحسب عادتهم. وبعد فترة من الزمن دعت الملكة حاشيتها في البلاط وأخبرتهم أنها قد صارت حاملاً. فثاروا عليها وهددوها بالقتل. فقالت: لا ذنب لي في ذلك. لقد رأيت في المنام أن نورًا من الله تعالى قد أتاني ودخل في كياني، وأُخبرتُ أني سأَلد ابنًا سيكون ملكًا على العالم. فلما استيقظتُ كنت حاملاً. فهدأ القوم بقولها وقرروا الانتظار إلى أن يتحقق هذا الخبر. فولدتْ جنكيز خان الذي صار ملكًا على العالم، ونشر الدمار في كل مكان.

وقد وردت في الموسوعة البريطانية أحداث مماثلة كثيرة. والغريب في الأمر أن أمهات كل هؤلاء المواليد الذين وُلدوا هذه الولادة العجيبة قد رأين الرؤى قبل ولادتهم (موسوعة الأديان مجلد ١٢: Virgin Birth). لذا فلا يمكننا أن نتهمهن بالفاحشة أو الكذب. إذًا فلا غرابة في ولادة المسيح عليه السلام من غير أب، إذ نجد في التاريخ ذكر ولادات عديدة مماثلة لولادته.

أما قوله تعالى ﴿فحملتْه﴾ فالمراد من الحمل هنا الحمل الذي تم نتيجة هذه الرؤيا. وهذا ما قال به سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام. فقد قال في كتابه "مواهب الرحمن" بكل وضوح وجلاء إن من عقائدنا أن المسيح قد وُلد من غير أب (مواهب الرحمن ص ٢٩٥). وكان حضرته عليه السلام يصرّح أنه ليس أمامنا إلا خياران اثنان: فإما أن نسلّم بأن المسيح عليه السلام قد وُلد بأمر الله تعالى، وإما أن نقول أنه وُلد ولادة غير شرعية.

فعيسى عليه السلام قد وُلد من غير أب بحسب عقيدة المسيح الموعود عليه السلام، وهذا ما نعتقد به نحن أيضًا. ولقد ركزتُ هنا على هذا الأمر خاصة لأن المولوي محمد

علي، أمير غير المبايعين*، قد كتب أن المسيح بن مريم عليه السلام قد وُلد من نطفة أبيه يوسف (بيان القرآن مجلد ٢ ص ٨٥٥ تحت قوله تعالى ﴿فحملتْه فانتبذتْ به مكانًا قصيًّا﴾، وحقيقة المسيح ص ٨). مع أنني قد بيّنتُ من قبل أن يوسف لم يمس مريم إلا بعد ولادة المسيح بحسب الإنجيل أيضًا.

أما قوله تعالى ﴿فانتبذتْ به مكانًا قصيًّا﴾ فيدل على أن مريم اضطرت خلال حملها للذهاب إلى مكان بعيد. وحين نفحص الإنجيل بهذا الصدد نجد فيه تفصيل هذا الحادث إلى حد ما، ولا بد لنا من التسليم بهذا التفصيل طالما لا نجد ما يدل على بطلانه. فقد ورد في الإنجيل:

"وفي تلك الأيام صدر أمرٌ من أوغسطسَ قيصرَ بأن يُكتَتب كلُّ المسكونة. وهذا الاكتتابُ الأولُ جرى إذ كان كيرينيوسُ واليَ سوريةَ. فذهب الجميع ليُكتَتبوا.. كلٌّ واحد إلى مدينته. فصعِد يوسفُ أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليُكتتب مع مريمَ امرأته المخطوبة وهي حُبلى" (لوقا ٢: ١-٥).

فثبت من هذه الفقرة الإنجيلية أن مريم أيضًا ذهبت مع يوسف إلى بيت لحم للإحصاء. ولكن يقول الإنجيل بعد ذلك إن الناس جاءوا بكثرة للإحصاء فلم يجدَا مكانًا للمبيت في السراي، فباتا في الخارج، وهنالك بدأت مريم تشعر آلام المخاض، فوضعت الوليد (المرجع السابق: ٧).

واعلم أن بيت لحم تقع جنوبيَّ أورشليم على بُعد خمسة أميال، وأرضها خصبة جدًّا (تاريخ بائبل (بالأردية) ص ٤٨٤). وهي تقع في جنوب الناصرة أيضًا بمسافة سبعين ميلا تقريبًا. فقوله تعالى ﴿فانتبذتْ به مكانًا قصيًّا﴾ إشارة إلى سفر مريم هذا المذكور في الإنجيل، والذي قامت به من الناصرة إلى بيت لحم.

---

* هم الذين لم يبايعوا الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام، رافضين استمرار نظام الخلافة في الجماعة الإسلامية الأحمدية، وانشقّوا عنها وغادروا قاديان، متخذين لاهور مركزًا لهم، واشتهروا فيما بعد بالأحمديين اللاهوريين *(المترجم)*.

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

المخاض: أي الطلق وهو وجع الولادة (التاج). ومخَضت الحامل ومُخضت مخاضًا: دنا ولادُها وضرَبها الطَلْقُ فهي ماخضٌ (الأقرب). وأكبر علامة على اقتراب موعد الولادة هذه الآلام.

جِذْع: الجذع: يُطلق على ساق النخلة، وأيضًا على فرع كبير لها.

التفسير: إن لجوء مريم إلى النخلة دليل على أنها لم تكن في بيتها. وقد سبق أن بيّنتُ أن مريم وزوجها لم يجدا المكان في النـــزل بحسب الإنجيل، فاضطرا للمبيت في العراء، ويبدو أنها وجدت هناك نخلةً فذهبت إليها.

يقول المفسرون عندنا أنها ذهبت إلى النخلة لتستند إليها تخفيفًا لآلامها (مجمع البيان). ولكنهم قد اخترعوا عذر الاستناد خوفًا من الروايات المسيحية كما سأبين لاحقًا. فما دامت كل الأشجار تهيئ الظل والسند أيضًا في وقت واحد، فلماذا، يا ترى، قالوا إنها ذهبت إلى جذع النخلة لتستند إليها؟ إن سببه في الواقع هو أن فكرة الانسجام مع الروايات المسيحية كانت غالبة على أذهانهم. لا شك أن الإنسان يكون بحاجة إلى السند أيضًا وقت الآلام، فالنسوة ذوات الخبرة يضعن أيديهن في يد المرأة عند الولادة وينصحنها أن تضغط على أيديهن بكل قوة، وعندما تفعل ذلك تجد بعض الراحة من آلامها، كما تسهل الولادة أيضًا. فلا غرو أن المرأة تحتاج إلى شيء تستند إليه وقت الآلام، غير أني أرى أن السبب الذي ذكره المفسرون هنا ليس صحيحًا.

أما قوله تعالى ﴿قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا﴾ فقال البعض أنها قالت ذلك خوفًا من طعن الناس لأن الولد كان من غير أب (تفسير ابن كثير). ولكني أرى أن هذا غلط، فإن أهل الخبرة يعرفون أن المرأة عند ولادة مولودها

الأول تعاني على الدوام آلامًا شديدة حتى تقول من تلقائها يا ليتني متُّ قبل هذا. لقد لاحظتُ هذا الأمر في بيتي مع زوجاتي وبناتي أيضًا. مما لا شك فيه أن ولادة مولود عند عذراء أمر غير عادي، ولكن هكذا تقول النساء دائمًا عندما يقاسين آلامًا شديدة عند وضعهن لمولودهن البكر. فلا غرابة في ذلك أبدًا. غير أني أرى أن هذه الآية تنطوي على تفنيد خفيّ للرواية الواردة في كتب الحديث بأن كل مولود يمسه الشيطان عند ولادته فيصرخ، ولكن المسيح لم يمسه الشيطان عند ولادته (البخاري: كتاب التفسير، باب "منه آيات محكمات"). الحق أن المولود يصرخ عند الولادة لكون المخرج ضيقًا جدًّا، فيخرج من رحم أمه وهو يعاني آلامًا شديدة. أما الأم فهي الأخرى تصرخ لأن عظامها تتكسر آنذاك. فالله تعالى قد أشار بذكر آلام مريم إلى أن المسيح أيضًا لا بد أن يكون قد ذاق آلامًا شديدة، ولا بد أن يكون قد أطلق صرخات عالية.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٥﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

تحتَك: كلمة "تحت" هي ضد فوق، كما تعني الناحية السفلى لأنها تكون إلى جهة الأسفل. فمثلا إذا كنت ماشيًا على جبل فإن الناحية التي ينحدر إليها الجبل تكون تحتك، كما أن المكان الذي أنت واقف فيه أيضًا يكون تحتك.

سَرِيًّا: من سرَى يسري، وقوله تعالى ﴿قد جعَل ربُّك تحتكِ سريًّا﴾ أي نهرًا يسري. وقيل: بل ذلك من السَّرْو أي الرفعة. (انظر المفردات)

هُزِّي: الهزّ: تحريك الشيء. ﴿وهُزّي إليك بجذع النخلة﴾ أي حَرِّكي (انظر لسان العرب).

التفسير: لقد انتقلت أذهان المفسرين من قول الله تعالى ﴿قد جعل ربك تحتك سريًّا﴾ إلى التحت الذي يكون تحت قدم المرء. فيقولون لأن عيسى كان تحت مريم

عند ولادته فهو الذي ناداها من تحتها (روح المعاني)، بينما قال البعض إن الملاك ناداها من جهة أرجلها (الدر المنثور).

مما لا شك فيه أن المنادي هو الملاك، ولكن من الغباء القول أن الملاك ناداها من الجهة التحتانية من جسدها. إنما المراد أن الملاك ناداها من جهة منحدر الأرض وأخبرها أن هنا ماء. ذلك أن المكان الذي وُلد فيه عيسى كان في سفح جبل وكانت في الأرض المنخفضة هناك عين ماء، حيث تتضح لنا من الإنجيل أن مريم ولدت ابنها في بيت لحم التي تقع على رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٣٥٠ قدمًا من سطح البحر. وهناك وديان خضراء حولها، وهي أكثرُ الأماكن خضرةً في منطقة يهوذا كلها، وأن بها ثلاثة عيون للماء وتسمى عيون سليمان. وهذه العيون تمد مدينة بيت لحم بالماء. وهذا يعني أن لا ماء في المدينة، وإنما تُجلب المياه من عين سليمان عبر الأنابيب. وهناك عين ماء في الجهة الشرقية الجنوبية من المدينة عند السفح على بعد نصف ميل (قاموس الكتاب المقدس للدكتور جورج).

فالمراد من قوله تعالى ﴿فناداها مِن تحتها﴾ أن مريم سمعت الصوت من الناحية التي فيها عين ماء. ذلك أن المرء يعرف المكان من جهة الصوت أيضًا. فمثلاً لو ناداك أحد من شمالك لعرفت على الفور أن الصوت قادم من جهة الشمال وليس من جهة اليمين. فلكي يدل مريمَ على مكان الماء ناداها الملاك من منحدر الجبل. وليس المراد أنه ناداها من تحت جسدها. والتاريخ الجغرافي لهذه المنطقة أيضًا يدل على وجود عيون ماء فيها.

الواقع أن الإنجيل يخبرنا أن مريم لما ذهبت إلى بيت لحم لم تجد مكانًا للمبيت داخل المدينة، فباتت خارجها. كما يضيف الإنجيل أنها باتت في المكان الذي كان الرعاة يرعون فيه مواشيهم (لوقا ٢: ٨). ومن المعروف أن الرعاة يرعون المواشي على مسافة من المدن. ومن أجل ذلك ورد في الإنجيل أنهما أضجعا الوليد في مذود. فثبت أنهما باتا في مكان بين المدينة والعيون. وربما فكرت مريم أنها لو أقامت في المدينة لقال الناس لمن هذا الوليد، فالأفضل أن يقيما خارج المدينة. فأقامت على

بعد منها حيث العيون التي لم يكن لها علم بوجودها لكونها غريبة في تلك المنطقة، فأخبرها الله تعالى بواسطة الملاك أن هناك عين ماء في الجهة الفلانية.

ولربما أراد الله تعالى بذلك إثبات مماثلة بين المسيح وإسماعيل عليهما السلام، فإن الأخير أيضًا لما تُرك في أرض مكة نادى الملاك أُمَّه أن الله تعالى قد فجّر عينًا تحت رجلي ولدك.

على كل حال، لقد كان هذا آية من الله تعالى، حيث أخبر مريم وقت الشدة والحزن أن هناك عين ماء يمكن أن تسدّ به حاجتها.

إن المفسرين عندنا يفسرون قوله تعالى ﴿قد جعَل ربُّك تحتكِ سَرِيًّا﴾ أن الله تعالى قد خلق تحتك طفلاً رائعًا، أي أن ولدك هذا سيكون لـــه شأن، بينما قال بعضهم أن هذا بيان لعظمة المسيح الخارقة (الرازي). والواقع أن عند المفسرين ولعًا غريبًا لمدح المسيح ونسج القصص لتعظيمه في كل مناسبة وأخرى. فإذا كان الحديث عن ولادته قالوا: إن المسيح هو المولود الوحيد في الدنيا الذي لم يمسه الشيطان عند الولادة، وإذا ذُكر موته قالوا أن الله تعالى رفعه إلى السماء حيًّا. وهذا المعنى الذي يذكرونه لقوله تعالى ﴿قد جعل ربك تحتكِ سريًّا﴾ نتيجة لعقليتهم القديمة هذه. مع أن الأمر واضح تمامًا. كانت مريم وولدها بحاجة إلى الماء من أجل النظافة عند الوضع، ففكّرت من أين تجد الماء لغسل الثياب والمولود، فناداها الملاك أن الماء موجود عند منحدر الجبل، فيمكنها أن تسدّ حاجتها منه. ووجود عيون عند منحدر الجبل ببيت لحم ثابت جغرافيًّا.

ثم في الآية التالية يقول الله تعالى ﴿فكُلي واشربي وقَرِّي عينًا﴾. فبما أن الله تعالى قد ذكر النخلة من قبل، فالمراد كلي الآن من ثمر النخلة، واشربي من عين الماء، ونظفي به الثياب والمولود وافرحي. وهذا يدل بكل وضوح أنه ليس في لفظ ﴿سريًّا﴾ ما يدل على رفعة المسيح، بل يفيد وجود العين. كانت عند منحدر الجبل عين ماء، فقال الله لها كلي من ثمر النخل، واشربي من ماء العين، وقرّي عينًا.

هنا نواجه معضلة كبيرة لا بد لنا من حلها. إن التاريخ المسيحي يقول لنا أن المسيح عليه السلام وُلد في ٢٥ ديسمبر، ويقول لوقا إن أوغسطسَ قيصرَ كان قد أصدر

في تلك الأيام أمرًا بإحصاء سكان مملكته، فذهب يوسف مع مريم من الناصرة إلى بيت لحم من أجل التسجيل، وهنالك وُلد المسيح (لوقا ٢: ١-٥). وهذا يعني أن المسيح وُلد في بيت لحم أيام الإحصاء الأول في ٢٥ ديسمبر. ولكن القرآن الكريم يعلن أن المسيح قد وُلد في الأيام التي تثمر فيها النخل. والنخل لا تثمر في شهر ديسمبر إلا نادرًا، وتثمر في شهرَي يوليو وأغسطس بكثرة. وعندما نجمع بين هذا وبين إخبار الله تعالى لمريم بعين ماء لتنظف به ثيابها وتغسل مولودها، لتبين لنا أن الولادة تمت في الحقيقة في يوليو أو أغسطس، لا في ديسمبر. ذلك أن غسل الوليد الجديد بماء العين في شهر البرد القارس، وخاصة على جبل واقع في شمال الجزيرة العربية لأمرٌ مخالف للعقل تمامًا. ولكن التاريخ المسيحي ينص على أن ولادة المسيح في شهر ديسمبر. فهناك تعارض واضح بما ورد في تاريخهم وما يعلنه القرآن الكريم بأن الملاك قال لمريم ﴿وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلة تساقطْ عليكِ رُطَبًا جنيًّا﴾، مع أن الرطب لا توجد في شهر ديسمبر إلا نادرًا، وتوجد بكثرة في شهري يوليو وأغسطس. فإذا كان صحيحًا أن المسيح قد وُلد في ديسمبر فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا ذكر القرآن الرطب مع أنها لا توجد في ذلك الموسم؟

وخوفًا من هذا الاعتراض نفسه قال المفسرون عندنا أن مريم ذهبت إلى جذع النخلة لتستند إليه أثناء الوضع. لقد فكروا أن المسيحيين يقولون أن المسيح قد وُلد في ديسمبر، والنخل لا تحمل الرطبَ في ذلك الشهر إلا قليلا؛ فلماذا ذهبت إلى النخلة التي لم يكن بها ثمر؟ فأجابوا على ذلك أنها ذهبت إلى جذع النخلة لتستند إليه، غاضّين الطرف عما قال الله تعالى بعد ذلك في القرآن الكريم ﴿وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جنيًّا﴾! فلأن المفسرين سمعوا من المسيحيين أن المسيح وُلد في ديسمبر، ولأن النخل لا تثمر الرطب في ديسمبر إلا قليلا، فقالوا أن مريم ذهبت إلى جذع النخلة التي جف ثمرها لتستند إليه.

بيد أن بعض المفسرين فكروا في قول الله تعالى ﴿وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلة تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جنيًّا * فكلي واشربي﴾، فقالوا أن ذلك معجزة. فكانت مريم تهزّ النخلة التي لا ثمر بها، فكانت تساقط عليها رطبًا جنيًّا! (تفسير الرازي، وأضواء البيان)

والمشكلة الثانية التي نواجهها هي أن هذا الحادث وقع في منطقة يهوذا. والقرآن الكريم يذكر هنا النخل، ولكن تاريخ التوراة يذكر الزيتون واللوز والعنب بين مزروعات منطقة يهوذا، ولا ذكرَ فيها للنخل (قاموس الكتاب: تحت بيت لحم ص ١٦٦). والأغرب من ذلك أن العنب واللوز والزيتون لا تثمر في ديسمبر. وهذا يعني أن القرآن الكريم يذكر الرطب، وهي لا تكون في ديسمبر إلا قليلا؛ أما تاريخ التوراة فيذكر الزيتون واللوز والعنب كمزروعات منطقة يهوذا، ولا تذكر النخل من بينها، ثم إن هذه الثلاثة أيضًا لا توجد في ديسمبر.

لننظر الآن فيما إذا كانت النخل تزرع في المنطقة التي وُلد فيها المسيح بحسب الإنجيل أم لا؟ عندما نتصفح التوراة نجد أنها تشهد على وجود النخل في تلك المنطقة، حيث ورد: "وبنُو القَينِّ حَمِي موسى صعِدوا من مدينة النخل مع بني يهوذا إلى برية يهوذا التي في جنوبي عَرَادَ" (القضاة ١: ١٦).

ومنطقة عراد هذه تقع على بعد مائة ميل تقريبًا من بيت لحم، ولأن "مدينة النخل" كانت تقع في شمال عراد فثبت أن وجود النخل على مقربة من بيت لحم أمر مؤكد.

ثم إن منطقة يهوذا التي فيها بيت لحم قريبة من الجزيرة العربية فوجود النخل فيها أقرب إلى القياس.

لقد ثبت بهذا وجود النخل في تلك المنطقة، بيد أن السؤال الثاني لا يزال بدون جواب حتى الآن هو أن القرآن يعلن أن النخل كانت محملة برطب يانعة صالحة للأكل في الأيام التي وُلد فيها المسيح عليه السلام، وذلك على عكس ما يقول المسيحيون بأن المسيح وُلد في شهر ديسمبر الذي تندر فيه الرطب. وهذا يوصلنا إلى النتيجة الحتمية بأن القرآن الكريم يؤكد أن المسيح عليه السلام قد وُلد في الفصل الذي تحمل فيه النخل رطبًا جنيًّا. أما التواريخ المسيحية فتخبرنا أن المسيح قد وُلد في ٢٥ ديسمبر، أو في إبريل عند البعض (موسوعة الأديان مجلد ٣: CHRISTMAS)، وقلّما تحملُ النخلُ رطبًا جَنِيًّا في ديسمبر أو إبريل. فلا مناص لنا من المزيد من البحث والفحص لحل هذه القضية.

لقد سبق أن قلت إن علينا أن نسلّم بما يقوله لوقا إن لم نجد ما يدل على بطلانه، ولكن هذه الآية القرآنية اضطرتنا الآن لأن نبحث عن السبب الذي صار به هذان البيانان على طرفي نقيض.

حينما نعود وندرس التاريخ ثانية نجد أن لوقا قد أخطأ في تحديد زمن الإحصاء الأول للسكان. إذ يقول إن يوسف ومريم ذهبا من الناصرة إلى بيت لحم بهدف التسجيل. ولكن دراسة تاريخ روما تكشف لنا أن العام الذي وُلد فيه المسيح لم يجر فيه أي إحصاء على الإطلاق. يقول جوزيفوس، وهو أكبر مؤرخ من زمن المسيح، أن الإحصاء الأول قد جرى في العام السابع بعد الميلاد، ولم يقع قبل ذلك أي إحصاء إطلاقًا. ويضيف جوزيفوس أن الإحصاء كان أمرًا غريبًا لليهود حتى قالوا في حيرة ودهشة: ماذا يريدون من ذلك؟ (الموسوعة التوراتية مجلد ١: Chronology) فلو كان الإحصاء قد جرى قبل ذلك بسبع سنوات أيضًا لما استغربوا عند الإحصاء الثاني.

كما يتضح من التاريخ أنه عند وفاة الملك هيرودس (Herod) كان كونستيلس واروس واليًا على تلك المنطقة، وليس كيرينيوس (Quirnius) كما يقول لوقا. بل يتضح من التاريخ الرومي أن الواليين اللذين سبقاه هما تيتنيوس (Titnis) وسينتينيوس (Sentinis)، وقد حكَم الأولُ في العام العاشر قبل الميلاد، بينما حكَم الثاني ما بين التاسع والسادس قبل الميلاد (المرجع السابق). وقد ثبت بذلك أنه لم يكن قبل ولادة المسيح عليه السلام بعشر سنوات وحتى وفاة هيرودس أيُّ والٍ اسمه كيرينيوس (Quirnius). فإذا لم يكن في هذه السنين أي وال بهذا الاسم، وإذا لم يجر في تلك الفترة أي تسجيل بحسب المؤرخ جوزيفوس، فثبت أن الذاكرة قد خانت لوقا، فالتبست الأحداث عليه. فإما أنه سمع عن الإحصاء الأول الذي جرى بعد سنين كثيرة، فظن أنه قد حصل قبل ذلك وأن يوسف ومريم سافرا إلى بيت لحم لذلك الإحصاء، فربط حدث ولادة المسيح بذلك السفر؛ أو أنه قد خلط الأحداث وزيّفها عمدًا؛ وهذه هي الحقيقة.

والآن أخبركم بما يدل على أن بيان القرآن هو الحق.

الأمر الواقع أن السيدة مريم حملت من غير زوج، فأثار خطيبها ضجة أن الحمل ليس منه. فأمره الله تعالى في الرؤيا أن يأخذ مريم إلى بيته، لأن ما تقوله هي صدق وحق. فاطمأن صاحب الرؤيا بأن خطيبته لم ترتكب أي فاحشة، ولكن أهل المدينة لا يمكن أن يطمئنوا، بل كل من يسمع بولادة المولود سيقول إنه ولد الحرام. وليس بوسع أي زوج أن يتحمل اتهام الناس لزوجته بالفاحشة. فلأنه كان يخاف العار، فمكث في بيته مع مريم ثلاثة أو أربعة أشهر أمكن فيها إخفاء الحمل، فلما رأى أن كتمانه مستحيل، ذهب بمريم إلى منطقة بعيدة عن مدينته، حيث وُلد المولود.

أما المشكلة التي واجهت لوقا في بيان هذه الحقيقة فهي كالآتي: لم ير لوقا معجزة كافية في ظهور الملاك لمريم وتبشيره إياها بالحمل، فأراد أن يضيف إلى ذلك بعض معجزات المسيح أيضًا، ليعطي انطباعًا أن مريم ما إن حملتْ بالمسيح حتى أخذت معجزات ربِّهم في الظهور بدون توقف. فيقول مثلاً أن مريم الحامل لما ذهبت لزيارة زوجة زكريا قالت الأخيرة: "فمِن أين لي هذا أنْ تأتي أمُّ ربي إليّ". وأضافت قائلة: "فهوذا حين صار صوتُ سلامِك في أذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني" (لوقا ١: ٤٣-٤٤). فإذا كانت معجزات المسيح أخذت في الظهور من حين الحمل فما الحاجة إلى إخفاء الحمل يا تُرى؟ ولكن الأحداث الحقيقية كانت تؤكد أن يوسف ومريم مكثا خارج مدينتهما لفترة طويلة. لا شك أن رؤيا يوسف برّأت ساحة مريم عنده، ولكن هذه الرؤيا ما كانت لتدفع عنه اللوم الذي كان سيلقاه من قبل القوم. ومن أجل ذلك أقام مع مريم طالما أمكن إخفاء الحمل، ولما رأى أن إخفاء حملها أصبح أمرًا مستحيلاً أخذها إلى مكان بعيد، لكي لا يتعرض للوم القوم ولكي يولد الوليد خارج المدينة. ولكن لوقا كان يهدف التأكيد على ألوهية المسيح، فراح يعزو إليه المعجزات منذ أن حملته مريم، وقال أن زوجة زكريا قالت لمريم الحامل حين جاءت إليها ها قد جاءتني أم ربي، بل قال إن يوحنا نفسه بدأ يركض فرحًا وهو في بطن أمه. فظن لوقا أنه إذا ثبت ذهاب مريم بعيدًا عن أهلها بسبب الحمل لقال الناس أن مريم وزوجها خافا لومة اللائمين رغم مشاهدتهما كل هذه الآيات والمعجزات؛ ولكن ما كان بوسعه، من ناحية أخرى،

أن ينكر ذهابهما بعيدًا عن أهلهما؛ فكان عليه أن يرد على سؤال هام وهو: إذا كان الحمل معجزة من الله تعالى، وإذا كانت معجزات المسيح قد بدأت تظهر منذ لحظة الحمل، فما الداعي لإخفاء ذلك الحمل؟ وإذا لم يكن هناك داع لإخفائه فلماذا ذهبا بعيدًا عن أهلهما؟ فلكي يتفادى لوقا هذا الاعتراضَ أوجد من عنده مبررًا لسفرهما إلى بيت لحم، فربَط سفرهما بحادث الإحصاء الذي تم في الواقع بعد سبع سنوات من ولادة المسيح، فأوهم الناسَ أنهما لم يذهبا إلى بيت لحم إخفاءً للحمل، وإنما من أجل الإحصاء الذي لم يكن لهما بد من السفر من أجله.

فبناءً على التاريخ الرومي، يمكننا القول إن لوقا حاول كتمان الحق، إذ لم يجر ذلك الإحصاء في ذلك العام، ولم يسافر يوسف ومريم عندئذ من أجل التسجيل، وإنما ذهبا إخفاءً للولادة. وهذا هو الأمر الواقع أيضًا. فإن يوسف قد أتى بمريم إلى بيته بناءً على أمر الله تعالى، ولكنه لما رأى أن إخفاء الحمل أصبح مستحيلاً، وأنه سيتعرض الآن للخزي والعار، خرج بها بعيدًا عن المدينة بحجة ما. والظاهر أنه لو رجع إلى مدينته بعد ولادة المولود فورًا للامه القوم قائلين: أنى لك هذا المولود ولم تمض على زواجك خمسة أشهر فقط؟ ولو أنه رجع بمريم ومولودها بعد تسعة أشهر بالضبط من الحمل لعرف القوم أنه ليس بمولود جديد، بل هو ابن خمسة أشهر. ولم يكن ثمة سبيل لإخفاء الأمر إلا أن يظل بعيدًا عن مدينته عدة سنوات لأن الصبي الكبير لا يمكن معرفة عمره بالتحديد. والواقع أن يوسف قد اضطر بالفعل للمكوث بعيدًا عن مدينته سنوات عديدة. وعندي أن فترة مكوثه خارج المدينة تتراوح ما بين ثمانية أو تسعة أعوام.

وباختصار، فإن يوسف لما زفَّ مريم إلى بيته كان قد مضى على حملها بعض الوقت، فلو أنه أخذها بعيدًا عن المدينة ومكث هنالك لبضع سنوات، لأمكن إخفاء الحمل، ولظن الناس أن ولادة عيسى كانت بحمل شرعي؛ أما إذا رجع بمريم بعد ولادة الوليد فورًا لانكشف السر حتمًا. فمثلاً لو كان يوسف زف مريم إلى بيته في شهر إبريل لعد الناس حملها من إبريل، وعليه فينبغي أن تضع المولود في ديسمبر في رأيهم. ولكن المولود لو أتى في أغسطس أو سبتمبر لقال القوم إنه ولد

الحرام، لأن زوجها قد زفها إلى بيته في إبريل. أما إذا أخذها إلى الخارج، لتضع الوليد بعيدًا عن القوم، ثم أتى بها بعد أن مضت على زفافها تسعة أشهر، لقال الرائي إن المولود ليس ابن شهر واحد أبدًا. ولو قال لهم يوسف إنه قد وُلد في ديسمبر لردوا عليه: كلا، إنه ابن ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر. فمن ذا الذي لا يستطيع التمييز بين ابن شهر وابن أربعة أشهر؟ فما كان أمام يوسف أي سبيل لإخفاء الأمر إلا أن يظل بعيدًا عن مدينته سنوات عديدة. فبما أن القرآن الكريم يخبرنا أن المسيح عليه السلام قد وُلد في الأيام التي يصير ثمر النخل فيها رطبًا جنيًّا – وهذا الموسم هو يوليو وأغسطس على العموم – فيمكننا القول إن المسيح قد وُلد في يوليو أو أغسطس، حيث حملت به مريم في أكتوبر أو نوفمبر. فإذا كان قد وُلد في يوليو أو بداية أغسطس فتكون قد حملت به في أكتوبر، أما إذا كان قد وُلد في وسط أغسطس أو أواخره فتكون قد حملت بـــه في شهر نوفمبر. على كل حال، يبدو من التاريخ المذكور في القرآن الكريم أن مريم حملت بالمسيح ما بين منتصف أكتوبر ومنتصف نوفمبر، حيث ولدته في الفصل الذي يجنى فيه ثمر النخل عادةً. فإذا كانت مريم قد حملت به في نوفمبر، فلا بد أن تكون قد أخبرت أمها بذلك، ولا بد أن أمها أيضًا قد أبلغت الأقارب بالحادث، الذين لا بد أن يكونوا قد حزنوا وقلقوا من جرائه، ثم ذهبوا إلى يوسف وتوسلوا إليه أن يأخذ مريم إلى بيته، حتى يظل الأمر سرًّا مكتومًا. فأراد يوسف أن يرفض هذا الالتماس، ولكن الله تعالى نهاه عن ذلك في الرؤيا وأمره أن يأخذها إلى بيته. فيوسف الذي كان يخاف الله تعالى، ويخاف لومة الناس، زفّ مريمَ إلى بيته امتثالاً لأمر الله تعالى. لنفترض أنه أخذها إلى بيته في شهر فبراير أو مارس، ولما رأى في شهر مايو أو يونيو أن إخفاء الحمل مستحيل الآن خرج معها بحجة من الحجج نحو الجنوب، فولدت المولود في بيت لحم. فلو أنهما جاءا بالمولود إلى المدينة عندئذ لعُدَّا من الأغبياء إذ لم يخرجا من مدينتهما إلا ليخفي موعد ولادة الوليد، حتى لا يقول له الناس كيف رُزقتَ المولود ولم تزف زوجتك إلى بيتك إلا في شهر مارس. ولو أنهما أتيا به بعد ستة أشهر أيضًا لعدَّا من الأغبياء، لأنهما سيضطران للقول أننا قد رُزقنا هذا المولود قبل شهر،

في حين كان عمره الحقيقي أربعة أو خمسة شهور؛ إذ إن الفرق بين ابن شهر وابن خمسة أشهر كبير جدًّا. إذًا فلا بد من أنهما قد مكثا بعيدًا عن مدينتهما سنوات عديدة كيلا يعرف القوم سنّ المولود الحقيقي، ولكي يظل أمر الحمل الخارق في طي الكتمان.

ويتضح من إنجيل "متى" أيضًا أنهما مكثا في مصر عدة سنوات (انظر متى ٢: ١٣-١٥).

فالأحداث تؤكد أن يوسف ومريم قد مكثا بعيدًا عن مدينتهما خوفًا من لوم القوم، ولكن لوقا يزعم أن المسيح بدأ يأتي بالمعجزات وهو في بطن أمه، وأن الجميع عرفوا أنها حامل بالروح القدس. فإذا كان الجميع قد عرفوا بالأمر وإذا كانت معجزات المسيح أيضًا قد أخذت في الظهور، فما كانا بحاجة إلى أن يخفيا الحمل، ويفرّا من المدينة. وحيث إن الأحداث تؤكد أنهما خرجا من مدينتهما، وأن المولود قد وُلد في الخارج، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا خرجا من المدينة؟ فاختلق لوقا من عنده الجواب عليه وقال إنهما سافرا من أجل الإحصاء، مع أن الإحصاء المشار إليه قد جرى بعد ولادة المسيح بسبع سنوات. لقد قال لوقا في نفسه لقد انقضت على تلك الأحداث سبعون أو ثمانون سنة – علمًا أن لوقا قد كتب إنجيله بعد حادث الصليب بفترة طويلة – فمن ذا الذي سيحفظ عام الإحصاء، فلا بأس لو قلتُ إن يوسف ومريم لم يذهبا من الناصرة إلى بيت لحم إلا من أجل التسجيل. ولكن القرآن، الذي لا يقول إلا الحق، قد بيّن ما يتفق والفطرة تمامًا، ويتضح منه أن المسيح لم يولد في ديسمبر، كما يزعم النصارى، وإنما وُلد في شهر يوليو أو أغسطس حين يتهيأ ثمر النخل للقطاف بكثرة. إن المسيحيين إنما ذكروا ميلاد المسيح في ديسمبر لكي يظل الأمر الواقع خافيًا على قوم يوسف، فيظنوا أن ولادة المسيح كانت نتيجة حمل شرعي بعد الزواج.

هذا، وقد ذكر الإنجيل موعد ميلاد المسيح كالآتي: " وكان في تلك الكُورة رعاةٌ متبدِّين يحرسون حراساتِ الليلِ على رعيّتهم." (لوقا ٢: ٨). وإن في ذلك لدلالة بينة على أن الفصل كانَ صيفًا، وليس شتاءً قارسًا. فإن ديسمبر شهرُ برد

قارس ومطر غزير وضباب كثيف في فلسطين. فمن ذا يمكن أن يصدّق أن الرعاة كانوا يبيتون في العراء مع قطعانهم في ذلك الطقس القاسي. فثبت جليًّا أن الوقت كان صيفًا. وقد قال مفسر الإنجيل العميد A. j. GRIEVE M. A. D.D معلقًا على ما قاله لوقا هنا ما يلي:

إن هذا الموعد لا يمكن أن يكون في شهر ديسمبر. إن عيد ميلاد المسيح عندنا تقليد قد اختُرع فيما بعد، وقد بدأ أولاً في بلاد الغرب (A Commentary On The Bible p. ٧٢٧)

كما كتب Bishop Georns:

ليس هناك شهادة قطعية على أن ٢٥ ديسمبر هو يوم ميلاد المسيح. ولو أننا سلّمنا بقصة ولادة المسيح كما ذكرها لوقا بأن الرعاة كانوا يحرسون قطعانهم في العراء في منطقة بيت لحم في تلك الأيام، لثبت أن ميلاد المسيح لم يكن في فصل الشتاء، حين تنخفض درجة الحرارة جدًّا حتى يصبح سقوط الثلج على منطقة يهوذا الجبلية أمرًا عاديًا. يبدو أن عيد الميلاد عندنا قد تم تحديده في حوالي عام ٣٠٠ الميلادي وبعد نقاشات طويلة (Rise Of Christianity p. ٧٩).

فثبت من هذه الأقوال أن ولادة المسيح عليه السلام لم تكن في شهر ديسمبر.

وخلاصة القول إن الله تعالى يقول في القرآن الكريم أن مريم لما شعرت بآلام المخاض ذهبت إلى نخلة مليئة بالرطب اليانع. ولكن الوقت الذي يذكره الإنجيل لولادة المسيح عليه السلام لا توجد فيه الرطب. وقد بيّنتُ السبب وراء ورود هذا الخطأ في بيان الإنجيل، وهو أن لوقا يزعم في إنجيله أن هذا الحمل لم تطلع عليه مريم فحسب، بل إنها لما ذهبت لزيارة أختها أليصابات زوجةِ زكريا ارتكض يحيى في بطنها فرحًا، وهكذا عرف الآخرون أيضًا أن مريم حامل. ثم إن القرآن الكريم يكتفي بإفادتنا أن مريم تعجبت من الحمل، ولكن الإنجيل يقول أن الملاك لما بشرها بالحمل فلم تتعجب على حملها من غير زوج فحسب، بل فرحت وقالت له: "هو ذا أنا أَمَةُ الربِّ، ليكُنْ لي كقولك" (لوقا ١: ٣٨).

لقد وجد لوقا هنا تعارضًا صارخًا، وهو أنه إذا كانت مريم قد صارت حاملاً بالمسيح، وإذا كان القوم يعرفون أن هذا الحمل من الروح القدس وليس من أي أب، وإذا كانت مريم مطمئنة بقول الملاك، بل كانت فرحانة بمثل ذلك الحمل، فلماذا غابت إذن؟ إن الأناجيل كلها متفقة على أن المولود قد وُلد في مكان بعيد عن مدينتها. فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا ذهبت إلى مكان آخر، ولماذا لم تتم الولادة في مدينتها الأم؟ فلكي يخفي لوقا السبب الحقيقي لغياب مريم – وهو المحاولة لإخفاء حقيقة حمل ابنها – اختلق من عنده عذرًا آخر وقال كان الوقت وقت الإحصاء، فسافرت إلى بيت لحم من أجل تسجيل اسمها، وكان ذلك في شهر ديسمبر. وكان غرضهما من ذلك أن يقولا للناس أن المسيح قد وُلد في ديسمبر عند اكتمال تسعة أشهر على مجيء مريم إلى بيت يوسف، وهكذا ظل أمر الحمل الخارق مستورًا.

أما القرآن الكريم الذي ما كان لـــه إلا أن يذكر القصة على حقيقتها، فقد ذكر التاريخ بدءًا من اليوم الذي حُملت فيه مريم، بينما حاول الإنجيل أن يختلق التاريخ من اليوم الذي جاءت مريم إلى بيت يوسف. وبتعبير آخر، قد حملت مريم في شهر نوفمبر بحسب القرآن الكريم، واكتملت تسعة شهور لحملها في أواخر يوليو القادم، حيث يولد بعض المواليد بعد ثمانية أشهر ونصف، وبعضهم بعد تسعة أشهر، وبعضهم بعد تسعة أشهر ونصف من الحمل؛ فيمكن أن نقول إن المسيح وُلد ما بين ١٥ يوليو و١٥ أغسطس. وهذا موعد تكثر فيه الرطب. ولكن الإنجيل يقول أن ميلاد المسيح كان في ٢٥ ديسمبر. ولو بدأنا العد التنازلي من ٢٥ ديسمبر كان يوم حمل مريم ٢٥ مارس. ولأن النصارى يذكرون تاريخ ميلاد المسيح بحسب اليوم الذي زفّ فيه يوسفُ مريمَ إلى بيته، فيبدو أنه أخذها إلى بيته في شهر مارس. لنفترض أنها صارت حاملاً في ١٥ نوفمبر، وحيث إن الحمل لا يبقى خافيًا في شهره الرابع، فعندما عرف يوسف بحملها أخذها إلى بيته بأمر الله تعالى؛ فلكي يوهم المسيحيون القومَ أن الحمل لم يكن بطريق الحرام، بدءوا العدّ من شهر مارس الذي أخذ فيه يوسف مريم إلى البيت، وقالوا أنه وُلد بعد تسعة أشهر من ذلك

التاريخ في شهر ديسمبر. فالنصارى كانوا مضطرين لأن يحددوا ميلاد المسيح في ٢٥ ديسمبر، وإلا ماذا كان جوابهم على سؤال الناس أن مريم ما دامت قد زُفت إلى يوسف في مارس فكيف جاء المولود في يوليو أو أغسطس؟ فما كان عندهم إلا خيار واحد وهو أن يخفوا اليوم الحقيقي لولادة المسيح، ويحددوه في يوم آخر.

قصارى القول إن مريم حملت في شهر نوفمبر، وفي مارس التالي كبر الجنين وأصبح كتمان الحمل ضربًا من المحال. فلما سمع يوسف بذلك أراد أن يطلّقها، ولكن الله تعالى أخبره في الرؤيا أنها لم تحمل نتيجة فاحشة، بل معجزةً من عندنا. فأيقن أن الحمل بمحض أمر الله تعالى، فوقف بجنبها، وأخذها إلى بيته في شهر مارس، وربما في شهر فبراير. ثم في شهر مايو أو يونيو أخذها خارج الناصرة بحجة ما، وفي أواخر شهر يوليو أو في أغسطس وُلد المسيح عليه السلام. فظل يوسف خارج الناصرة بضع سنين، ثم عاد إليها وأخبر القوم أن الولد قد وُلد في شهر ديسمبر؛ ومن الممكن أنه أخبرهم باليوم الصحيح لولادته، ولكن كتّاب الإنجيل قالوا من عند أنفسهم أن ميلاد المسيح كان في ديسمبر حيث تكتمل فيه تسعة أشهر على مجيء مريم إلى بيت يوسف في شهر مارس، وذلك لكي يظن الناس أن المسيح كان من أولاد يوسف. وبهذا تنحلّ معضلة النخلة ورُطَبِها التي ذكرها القرآن الكريم لدى ولادة المسيح، لأن الرطب تكثر في شهر يوليو وأغسطس. ومن البديهي أن يوسف كان يخجل من الحمل الخارق وكان يحاول إخفاءه، فما كان أمامه من حيلة إلا أن يتظاهر بأن الحمل حصل بعد زفافها إليه، وكان سبيله أن يذكر تاريخ الحمل مؤخرًا بأربعة أو خمسة أشهر من اليوم الحقيقي، وبالتالي كان لا بد له من أن يذكر تاريخ الولادة أيضًا مؤخرًا بهذا القدر من الشهور. من الممكن أن الإحصاء الذي جرى بعد ولادة المسيح بسبعة أعوام كان في شهر ديسمبر نفسه، فاستغل لوقا هذه المناسبة وقال أن هذا الإحصاء تم في عام ولادة المسيح. ذلك أن لوقا قد ألف إنجيله بعد الميلاد بحوالي سبعين أو ثمانين سنة، ومن ذا الذي يحفظ بعد انقضاء هذه السنين الطويلة عام الإحصاء بالضبط؟

بهذا الشرح، وهو شرح هام جدًّا، ومدعم بالأحداث المذكورة في التاريخ الرومي، ومؤيد بضوء روايات الإنجيل نفسه، تنحل قضية ذكر النخلة وثمرها في القرآن الكريم لدى حادث ولادة المسيح.

فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦

التفسير: يقول المفسرون أن المراد من الصوم هنا صوم الصمت (فتح البيان).. بمعنى أنها مُنعت من الكلام معهم منعًا باتًّا. ولكني أرى أن هذا باطل. الواقع أن مريم قد أُمرت بمثل الصوم الذي صامه زكريا عليه السلام. وقد سبق أن ذكرت أن الله تعالى إنما نهاه عن الخوض في حديث الدنيا، وعن أن يتكلم بصوت عال، و لم يمنعه من الكلام بصوت خافض عند الحاجة. وقد أُمرتْ مريم أيضًا بمثل هذا الصوم، أعني أن الله تعالى أمرها ألا تخوض في الحديث خوضًا، بل تقضي معظم وقتها في ذكر الله تعالى. فليس المراد من الصوم هنا الصوم العادي حيث يترك الإنسان طعامه وشرابه، خاصةً لأن مريم كانت في النفاس آنذاك، والمرأة لا تصوم في حالة النفاس. ثم إن قوله تعالى لمريم ﴿فكلي واشربي﴾ أيضًا يؤكد أنها لم تؤمر بالصوم المعروف. فثبت أن المراد من صومها إنما هو ألا تخوض في الحديث مع الآخرين كثيرًا، لأن الله تعالى يقول لها بعد ذلك ﴿فقولي إني نذرتُ للرحمن صومًا﴾؛ فلو كان الكلام ممنوعًا لها بتاتًا، فكيف يمكنها أن تقول للناس إني صائمة. فثبت أنه لم يحظر عليها الكلام كلية، بل سمح لها بالكلام عند الضرورة. غير أنه تعالى أوصاها بذكر الله في ذلك اليوم ذكرًا كثيرًا. والحكمة في ذلك عندي أن الوليد كان قد وُلد جديدًا، وكان لا بد أن يسألها كل من يلقاها: ابنُ مَن هذا؟ فأمر الله تعالى بقضاء ذلك اليوم في ذكر الله ذكرًا كثيرًا، وإذا سألها أحد شيئًا تقول لـــه: لقد نذرت للرحمن أن أظل منشغلة بذكر الله اليوم كل الوقت. وهكذا ينتهي الحديث، ولن يكون هناك المزيد من الحوار.

فالصوم هنا يعني الكف عن فضول الكلام والإكثار من ذكر الله تعالى.

وقد اتضحت هنا مسألة أخرى أيضًا، وهي أن ذكر الله تعالى ليس محظورًا في حالة النفاس والحيض. يظن البعض خطأً أن ذكر الله في القلب أيضًا محظور على الحائض والنافس. مع أنها لو حظر عليها ذكر الله تعالى لماتت روحانيتها تمامًا. ولكن البعض يرى أنه يجوز للحائض والنافس أن تذكر الله تعالى باللسان. كان حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يرى أن الحائض يمكنها قراءة القرآن ممسكةً المصحف في يدها التي عليها ثوب أو منديل، أو يكون المصحف موضوعًا على ثوب طاهر، ولكن لا يجوز لها أخذ المصحف بيدها العارية لأن هناك احتمالا أن يكون بيدها شيء من نجاسة الحيض. فالنسوة اللواتي قد تعلَّمْن القرآن الكريم من حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه يتلون القرآن في أيام الحيض أو النفاس والمصحف موضوع أمامهن على ثوب طاهر.

أنا لست من أصحاب هذه العقيدة، ولكني لا أمنع من يفعل ذلك، لأن القرآن كلام الله تعالى في كل حال، فإذا كان أحد يرى جواز قراءة الحائض لكلام الله تعالى بهذه الطريقة فما الحرج في ذلك؟

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٨﴾

التفسير: يقول المفسرون أن المعنى هنا أن مريم لما فرغت من الولادة وقويت على المشي جاءت قومَها محتضنة ابنها، فقالوا لها متّهمين إياها: ما هذه الفعلة الشنيعة التي فعلتها؟ فقالت: لا تسألوني، بل اسألوا هذا المولود. فتكلم المسيح وقال: أنا عبد الله ونبيه (ابن كثير).

وهذا يعني أن المسيح قد كذب في أول معجزة تُنسب إليه. ذلك أنه لم يكن نبيًّا آنئذ، ومع ذلك قال إنني نبي الله. قال إن الله تعالى أوصاني بالصلاة، مع أنه كان لا يصلي، وإنما كان عندئذ يبول ويتبرز في أسماله وينجسها. فكأن المسيح، بحسب المفسرين، بدأ يتدرب على قول الكذب وهو في حضن أمه، ففي السن

الذي لم تفرض عليه الصلاة قال إني أصلي، وفي الوقت الذي كان لا يزال ناقص الوعي والإدراك قال إني قد بُعثتُ نبيًّا من الله تعالى. وحجة المفسرين على قولهم هذا هو قول الله تعالى ﴿تحمِلُه﴾ وقوله تعالى ﴿ويكلّم الناسَ في المهد﴾(آل عمران: ٤٧).

تعالوا نر الآن ماذا يقول الإنجيل بهذا الشأن.

يقول "مرقس" في إنجيله إن يسوع كان في مدينة الناصرة عند ظهور يوحنا (مرقس ١: ٩). ويقول "متى" في إنجيله إنه لما أُلقي القبض على يحيى خرج يسوع من الناصرة إلى مدينة كفرناحوم في منطقة الجليل (متى ٤: ١٣). وهذا يعني أن "مرقس" و"متى" لا يذكران إطلاقًا موعد رجوع المسيح إلى الناصرة بعد ولادته، وإنما يخبران أنه كان في الناصرة عند ظهور يوحنا، وأنه هاجر منها إلى كفرناحوم عندما أُلقي القبض على يوحنا. وهذا يعني أن المسيح عليه السلام لما شبّ وترعرع بدأ يتردد إلى الناصرة.

أما لوقا فيتضح من إنجيله أن يوسف ومريم ذهبا إلى الناصرة بعد ولادة المسيح ببضعة أيام، وهناك تربى المسيح (لوقا ٢: ٣٩). وهذا يعني أن يوحنا ومتى ومرقس كلهم صامتون تمامًا بهذا الصدد، وأن لوقا هو الوحيد الذي يقول أن المسيح ذهب بعد الولادة إلى الناصرة.

وورد في إنجيل لوقا أيضًا أن ملاك الله ظهر لمريم في الناصرة، وهناك بشّرها بالحمل. وهذا يؤكد أن مريم كانت تقيم في الناصرة، ثم عند الإحصاء سافرت إلى بيت لحم، وبعد ولادة المسيح هنالك رجعت إلى مدينتها الناصرة ثانية، وأن المسيح مكث في الناصرة نفسها إلى أن أعلن يوحنا نبوته (انظر لوقا ١: ٢٦-٢٧).

إذًا فكانت السيدة مريم، بحسب هذه الرواية، من سكان الناصرة، وأنها رجعت إلى وطنها بالمسيح بعد ولادته مباشرة. فلو كان هذا البيان صحيحًا لكان مفهوم هذه الآية القرآنية أن المسيح بدأ يكلّم الناس بعد ولادته فورًا، إذ يقول الله تعالى ﴿فأتتْ به قومَها تحمِله... إلخ﴾.. أي أن مريم حملت المسيح إلى أقاربها ومعارفها، فكلّمهم بهذا الكلام.

ولكن فحص الأمر أكثر يكشف لنا أن قول لوقا بأن مريم كانت من سكان الناصرة قول باطل. وإليكم بيان ذلك.

يقول متى في إنجيله أن مريم حين ولدت المسيح كانت في بيت لحم، ولكنه لا يذكر شيئًا عن مدينتها الأمّ. بل يذكر في الباب الثاني في إنجيله ما يجعل المرء يظن أن وطنها كان قريبًا من بيت لحم وإن لم يكن بيت لحم نفسها. ثم يقول متى إن الملك هيرودس لما كان يشك أن هذا المولود الجديد سيثير القلاقل ضده حينما يكبر. ذلك لأن كهّانًا من المجوس القادمين من الشرق أخبروه أن مولودًا يحمل هذه الصفات قد وُلد، وأنهم قد جاءوا من الشرق بعد رؤية نجمه في السماء؛ فأمرهم الملك أن يدلّوه على هذا المولود إن وجدوه. وكان بنيته أن يقتله حتى لا يضرّ بملكه. ولكن المجوس، بحسب متى، لما رأوا المسيح أتاهم الملاك في الحُلم وقال لهم: لا ترجعوا إلى هيرودس بخبر الوليد. فانصرفوا إلى بلادهم من طريق آخر. وبعد عودتهم ظهر الملاك ليوسف في المنام وقال: قُمْ وخُذِ الصبيَّ وأُمَّه، واهرُبْ إلى مصر، لأن الملك مزمع على قتل الصبي. فهرَب يوسف مع مريم والصبي إلى مصر. ولما رأى الملك أن المجوس قد رجعوا إلى بلادهم من دون أن يرجعوا إليه بخبر الوليد، غضب غضبًا شديدًا، فأمر بقتل جميع الصبيان الموجودين في بيت لحم وضواحيها ممن أعمارهم سنتان فما دونها – أرى أن هذه القصة قد اختُرعت تقليدًا لما وقع لموسى عليه السلام في صغره – فهرب يوسف بالمسيح إلى مصر بناء على وحي الله تعالى الذي أمره أن يمكث هنالك حتى يأمره بالعودة (انظر متى ٢).

فترون أن هذا البيان يختلف تمامًا مع بيان لوقا. فإن لوقا يقول أن مريم رجعت إلى الناصرة بعد ولادة المسيح مباشرة، بينما يقول متى إنها هربت إلى مصر، وأن هذا ليس أمرًا قياسيًا، بل إن الله تعالى هو الذي أمر يوسف بالوحي بألا يرجع إلى مدينته، بل بالأحرى أن يهرب بمريم وابنها إلى مصر، ويمكث هناك حتى يأمره ثانيةً بالوحي بما يجب. فأقام يوسف في مصر حتى مات الملك هيرودس، فأخبر الله يوسفَ بموته بالوحي، وأمره بالعودة إلى بلاد إسرائيل، فرجع. ولكنه لما علم أن أَرْخِيلاوُس ابن هيرودس صار ملكًا جديدًا على بلاد إسرائيل أي على منطقة يهوذا

خاف أنه إذا عاد إلى وطنه فسيُقتل (وهذا يعني أن يوسف كان بحسب الإنجيل من سكان بلدة من بلدان منطقة يهوذا). فأخبره الله بذلك (وكأن الله تعالى كان لا يعلم من قبل أن أرخيلاؤس قد صار ملكًا) وأمره بالانصراف إلى منطقة الجليل، فأتى وسكن في مدينة تدعى الناصرة، لكي يتم ما قيل على لسان الأنبياء إن المسيح سيُدعى ناصريًّا (متى ٢: ١-٢٣).

هذه العبارة تفيد ما يلي:

الأول: أن المسيح عليه السلام وُلد في بيت لحم.

الثاني: بعد الولادة أخذ يوسف مريمَ وابنها إلى مصر بأمر الله تعالى.

الثالث: أنه مكث هناك حتى وفاة الملك هيرودس.

الرابع: أن الله تعالى أمر يوسف لدى وفاة الملك بالعودة إلى الوطن.

الخامس: أنه لما خاف العودة إلى مدينته ذهب بأمر الله تعالى وسكن بالناصرة في منطقة الجليل.

السادس: وأن الله تعالى أمره بالذهاب إلى الناصرة تحقيقًا لما وعد على لسان أنبيائه أن المسيح سيُدعى ناصريًّا.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان يوسف من سكان الناصرة من قبل فلماذا أمره الله تعالى عندئذ بالذهاب إليها حتى يتحقق قول الأنبياء بأنه سيدعى ناصريًّا؟ هذا يدل صراحة أن يوسف لم يكن من سكان الناصرة، بل كان وطنه قرية أخرى، وأنه أقام بالناصرة بعد العودة من مصر.

لقد ثبت من ذلك أن وطن المسيح لم يكن مدينة الناصرة، وأنه لم يؤت به إليها بعد الولادة فورًا، وإنما بعد العودة من مصر. وحتى لو كان قد أُخذ إلى الناصرة فور الولادة فلا مجال أيضًا لكلامه مع أقاربه، لأنهم لم يكونوا في الناصرة، في حين أن القرآن الكريم يشير إلى كلامه مع أقاربه حيث قال الله تعالى ﴿فأتتْ به قومَها﴾.. أي أهلها وأقاربها.

لقد تبين لنا من هاتين الفقرتين من الإنجيل أن لوقا يقول أن يوسف ومريم ذهبا بعد ولادة المسيح فورًا إلى الناصرة، ولكن متى يخبر أن الناصرة لم تكن وطنهما؟ ثم

حتى لو كانت أمه قد أخذته إلى الناصرة، فلا مجال لكلامه هنالك أيضًا، لأن القرآن يذكر كلامه في مكان فيه قوم مريم وعشيرتها. أما إذا كان المسيح قد ذهب إلى مصر فور ولادته، ثم عاد إلى الناصرة التي لم تكن وطنًا لـــه، فلم يعد هناك أي مجال لكلامه في الصغر أيضًا. ذلك أن المسيح، بحسب الإنجيل، مكث في الناصرة حتى أعلن يوحنا نبوته بل حتى أُلقي القبض على يوحنا. فلا يمكن اعتبار كلامه هذا ما قبل دعوى يوحنا أيضًا، لأنه كان عندئذ في الناصرة التي لم يكن بها أقارب مريم الذين تكلمَ معهم هذا الكلام.

ويتضح من إنجيل متى أن المسيح قد زار أورشليم، التي كانت مدينته الأُمّ في المناطق المجاورة لها، مرتين؛ مرةً وهو في الثانية عشرة من عمره، وثانيةً وهو في الثاني والثلاثين من عمره (متى ٢١). ولا بد أن هذه المكالمة التي تمّتْ بينه وبين أقارب أمه قد حصلت في إحدى هاتين الزيارتين. ولكن لم يُذكَر عن المسيح حدثٌ ذو بال لدى زيارته الأولى حين كان سنّه اثني عشر، سوى أنه كان يصغي إلى حديث الكبار ويعاف اللعب واللهو. لذا يبدو أن هذه المكالمة التي جرت بينه وأهله كانت لدى سفره الثاني لأورشليم – التي كان أقاربه ساكنين في ضواحيها – حين زارها لنشر دعوته فيها، وقد زارها في حوالي السنة الثالثة من بعثته، حيث كان قد أعلن دعواه قبل ذلك بعامين (انظر متى ٢١). وإن هذه الكلمات التي عزاها القرآن إلى المسيح تبدو ملائمة تمامًا بتلك المناسبة، ولكنها لا تنسجم إطلاقًا مع زيارته الأولى حين كان لا يزال صبيًّا.

خلاصة الكلام أن القرآن الكريم يعلن أن المسيح تكلم مع أقاربه، ويقول الإنجيل أنه ذهب بعد الولادة إلى الناصرة، لا إلى مدينته الأم؛ وهذا يؤكد أنه ذهب إلى مدينته في وقت آخر. والمكان الثاني الذي زاره المسيح هو أورشليم وما حولها من القرى، وزيارته لهذا المكان مرتين أمر مؤكد. لقد زار أورشليم المرة الأولى في صغره حين كان أبواه غير مطّلعينِ على كفاءاته وصفاته، وزارها المرة الثانية لتبليغ دعوته، وكان كلامه مع أقاربه في المرة الثانية. فثبت أن قوله تعالى ﴿فأتت به قومَها

تحمِله﴾ إشارة إلى تلك الحقبة من الزمن حين كان المسيح قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره، وكان قد أعلن دعواه.

وهنا يطرح سؤال نفسه: ما هو المراد إذن من لفظ ﴿تحمِله﴾؟ فإن الأم إنما تحمل طفلها حين يكون صغيرًا.

الجواب أنه مما لا شك فيه أن لفظ الحمل يعني احتضان المولود، ولكنه يعني المساندة والتأييد والنصرة أيضًا بدليل قوله تعالى في القرآن الكريم ﴿مثلُ الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمِل أسفارًا﴾(الجمعة: ٦).. فترى أن الله تعالى يقول هنا ﴿حُمّلوا التوراة﴾، ولكن هذا لا يعني أنه تعالى وضع التوراة على رؤوسهم، وإنما المعنى أنه أمرهم بتأييدها وتوقيرها. ثم يقول الله تعالى ﴿ثم لم يحملوها﴾.. وليس معناه أن كل يهودي نبذ التوراة من يده، إنما المراد أنهم تركوا تبليغ رسالة التوراة وتأييدها. فقد قال الإمام الراغب في تفسيره: "كُلِّفوا أن يقوموا بحقِّها فلم يحمِلوها" (المفردات).. أي لقد أُمر اليهود أن يؤدوا حق التوراة، ويؤيدوها ويقوموا بحمايتها ظاهرًا وباطنًا، ويعملوا بأحكامها، ويدعوا الآخرين إليها، ولكنهم لم يعملوا بهذه الوصية. فالله تعالى حين قال ﴿حُمّلوا التوراة﴾ لم يقصد أنه وضعها على رؤوسهم، وحين قال ﴿ثم لم يحملوها﴾ فلم يكن المراد أن كل يهودي رمى بالتوراة على الأرض، بل الواقع أنه تعالى لما قال ﴿ثم لم يحمِلوها﴾ كان اليهود يحملون التوراة في الظاهر، ولما قال ﴿حُمّلوا التوراة﴾ لم يحمِّلْهم على رؤوسهم أي كتاب في الظاهر.

فثبت أن الحمل يعني أحيانًا النصرة والتأييد والتشجيع ورفع المعنويات أيضًا. فالإنجيل يقول أن أم المسيح لم تؤمن به (مرقس ٣: ٣١-٣٥)، فأعلن القرآن الكريم أنها ﴿أَتَتْ به قومَها تحمله﴾.. أي أن أُمَّه صدّقتْه وأيّدتْ دعواه وعملت بتعاليمه لما أعلن النبوة. فالقرآن يفنّد بقوله تعالى ﴿فأتَتْ به قومَها تحمِله﴾ التهمةَ التي قد ألصقها الإنجيل بأُمّ المسيح عليه السلام، وأخبر أنها جاءت مع المسيح تصدقه وتؤيده وتقول للناس: كيف تسمونه ولد الحرام؟ هل أولاد الحرام يكونون كمثل هذا الولد. تَكلّموا معه لتعرفوا أولدُ حرام هو أم ولد حلال؟

ثم يخبر الله تعالى أنهم ﴿قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئًا فَرِيًّا﴾.. أي لقد ارتكبتِ فعلاً نجسًا، ولذلك بدأ ابنُك أيضًا يكذب على الله تعالى. وكأنهم قالوا لها: لأنه ولد الحرام فلذلك يتكلم بمثل هذا الكلام.

يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾

التفسير: أي يا أخت هارون، كيف جئتِ هذه الفعلة الشنيعة مع أن أباك لم يكن شخصًا سيّئًا، و لم تكن أُمُّك امرأة فاحشة؟

يقول المفسرون أنه كان لمريم أخ من أم أخرى اسمه هارون (تفسير مظهري). ولكن لا أثر لهذه القصة في تاريخ اليهود، فلا يمكن الأخذ بمثل هذا القول العاري من الدليل والبرهان.

ويقول بعضهم إن اليهود سموا مريم أخت هارون لكونها من نسل هارون عليه السلام. ودليلهم هو أن أليصابات زوجةَ زكريا كانت من قبيلة هارون عليه السلام بحسب التوراة، وكانت مريم من أقارب أليصابات، فسماها القرآن أخت هارون (ترجمة القرآن لجورج سيل). وهذا المعنى قد ذكره أولئك النصارى الذين كانوا منصفين، غير متعصبين. في حين أن بعض المسيحيين قد طعنوا في القرآن بسبب هذه الآية، وقالوا إن هذا دليل على أن محمدًا (ﷺ) كان يجهل التاريخ جهلاً تامًّا حتى إنه لم يعرف أن هارون قد خلا قبل المسيح بأربعة عشر قرنًا (ينابيع الإسلام ص ١٠٤). وذلك بالرغم أن بعض المسيحيين الآخرين أنفسهم قد ردُّوا على الاعتراض وقالوا: إنه قول باطل. إن محمدًا ﷺ كان على علم تام بتاريخ عصر موسى وهارون، حيث ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة منه بعض الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى وهارون عليهم السلام. فلا قيمة لهذا الطعن. لما كانت أليصابات من أسرة هارون عليه السلام، وكانت مريم من أقاربها، فسماها القرآن أخت هارون (تفسير القرآن لـ"ويري").

ويبدو من الحديث الشريف أن هذا الطعن قد ذُكر أمام النبي ﷺ ذات مرة، فقال ﷺ: ذلك كعادة اليهود حيث كانوا يسمون أولادهم بأسماء أنبيائهم وصلحائهم (فتح البيان، وابن جرير).

بيد أني أرى أن هذه الآية تنطوي على مفهوم آخر أيضًا يدل على أنهم قد سموا مريم أخت هارون تعييرا بها وسخرية. ذلك لأن هارون كانت له شقيقة لم تكن أختًا حقيقية لموسى. ويرى بعض المؤرخين أنها لم تكن أختًا غير شقيقة لموسى، بل كانت أختًا لزوجة موسى، وكانت تُدعى أيضًا مريم. ويتضح من التوراة أنها وأخاه هارون قد اعترضا على موسى لزواجه من امرأة كُوشية (العدد ١٢: ١). ويتضح من القرآن الكريم أن هذا الطعن كان شديدًا وكأنهم اعتبروا علاقة موسى مع المرأة الكوشية علاقة غير شرعية، حيث قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوا موسى فبرّأه الله مما قالوا﴾(الأحزاب: ٧٠). ويبدو أن موسى عليه السلام قد اتُّهم إما بالزواج من امرأة مومسة، أو من امرأة متزوجة سلفًا. وأيًّا كانت نوعية التهمة بالضبط، فإن التوراة تخبرنا أن مريم التي اتهمت موسى أصيبت بمرض الجذام عقابًا على جريمتها. ولكن الغريب أن التوراة تخبر، من ناحية، أن هارون وأخته مريم كلاهما قد اتهما موسى بالفاحشة، ولكنها من جهة أخرى، تذكر أن مريم وحدها نالت العقاب، أما هارون فلم يقع عليه أي عقاب. وهذا يدل على أن هارون لم يتّهم موسى، وإنما أضافت التوراة اسم هارون كعادتها للطعن في أنبياء الله تعالى، وإلا لكان من الواجب عقاب المجرمَين على جناية واحدة. فثبت أن مريم وحدها التي طعنت في موسى.

وتضيف التوراة أن هارون شفَع لمريم هذه، فدعا لها موسى، فعفا الله عنها، فشُفيت من الجذام بعد سبعة أيام. ولكن مريم هذه التي كانت تُذكر في التوراة بكل عظمة وإجلال قبل هذا الحادث، لم تُذكر بعد ذلك بأي إكرام، بل إن البعض قد اتهمها بمساوئ أخرى أيضًا (العدد ١٢: ١٥).

فأرى أن قول اليهود للسيدة مريم ﴿يا أختَ هارونَ﴾ كان على سبيل التعيير والسخرية، فقالوا يا مريم لقد ارتكبتِ جريمة بشعة تستحقين عليها عقابًا كالجذام

مثل أخت هارون. فقد أثرتِ فتنة كالتي أثارتها مريمُ أختُ هارون. إنها اتهمتْ موسى بالفاحشة، وأما أنت فقد ارتكبت الفاحشة، مع أن أباك لم يكن من الأشرار، كما لم تكن أمك من المومسات. فما هذا الشر الذي أثرتِه؟

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾

التفسير: لقد سبق أن بيّنتُ أننا نؤمن بأن المسيح عليه السلام قد وُلد من غير أب وكانت ولادته آية من الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى كان قد قرّر نقل النبوة من نسل موسى إلى بني إسماعيل. كانت النبوة مستمرة في بني إسحاق منذ زمن طويل، فما كانوا ليتخيلوا أن النبوة يمكن أن تُنـــزع من بيت بني إسرائيل وتُنقل إلى أمة أخرى. فكانوا بحاجة إلى هزة عنيفة، وتمثلت هذه الهزة في صورة ولادة المسيح عليه السلام من غير أب. لا شك أن ولادته كانت معجزة، ولكنها انطوت على نوع من الابتلاء والاختبار. ذلك لأن المعجزات أنواع؛ فمنها ما يكون سببًا لهداية الناس وإتمامًا للحجة عليهم، وهي من المعجزات التي يمكن إقناع العدو بها، إذ لو استحال إقناع المعارض بها ما كانت حجة عليه. فالمعجزات التي تقع حجة على المنكرين لا بد لها أن تكون مما يمكن إقناع العدو به. فمثلاً، هناك نبوءة قد أُدليتْ وأُعلنتْ، فاعترض عليها المعارض، وناقشها من شتى النواحي، ثم تحققت النبوءة في آخر المطاف؛ فهذه معجزة لا يسع أحدًا إنكارها إلا المعاندين المتعنتين. فمثلاً، إن إعجاز القرآن لمعجزة يمكننا إقناع المسيحي بها. نقول لـــه: ها هو القرآن أمامك، فَأْتِ بكتاب مثله إن كنت من القادرين. وبالمثل إن الإتيان بالمعارف الإلهية أو الاطلاع على دقائق أسرار الفطرة معجزةٌ يمكن إقناع كل إنسان بها. فالمعجزات التي غايتها هداية القوم لا بد لها أن تكون مما يمكن إقناع العدو به.

ولكن هناك نوع من المعجزات التي تقع لتقوية إيمان المؤمنين فحسب، وليس من الضروري إقناع الناس بها. إنها تظهر لزيادة إيمان المؤمنين فحسب، وتقع بحيث يصدقها المؤمن ولكن الكافر لا يقتنع بها. ومثاله أن الماء انفجر ذات مرة من بين

أصابع رسولنا الكريم ﷺ، وأن قدحًا من الماء سدّ حاجة كثير من الناس، أو أن الطعام كان قليلا، ولكن ببركة دعاء النبي ﷺ أكله عدد لا بأس به من القوم حتى شبعوا (مسلم: كتاب الفضائل، باب معجزات النبي ﷺ، البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وباب غزوة الحديبية).

وكان من قبيل هذه المعجزات أيضًا سقوطُ بقعاتِ حبرٍ أحمر من الغيب على قميص لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام (سرمه جشم آريه ص ١٨٠ الهامش).

ومثاله الآخر ما رأيته في حالة الكشف بأن المِسك قد وُضع في فمي، ولما استيقظت كان فمي يتضوع مسكًا. فأيقظتُ زوجتي وقلت لها: شُمِّي فإني لأجد ريح شيء طيب من فمي. فشمّتْ فمي، وقالت هذه رائحة المسك. فلا شك أن هذه المعجزة قد زادتني أنا وزوجتي إيمانًا، ولكن لا تأثير لها على الآخرين.

وذات يوم كنتُ صائمًا وشعرت بالعطش الشديد، وبينا أنا أقاسي آلام العطش إذ استولت عليّ حالة من الغيبوبة، فرأيت أن ملاكًا قد جاء، ووضع في فمي قطعة من "البان"*. ولما استيقظت لم أجد للعطش أثرًا على الإطلاق.

إن هذه المعجزات تظهر لتقوية الإيمان، وتخص المؤمنين. إن المؤمن يصدّقها، ولكن غير المؤمن سيقول إن الرجل قد اختلق هذا الإفك وأمر أتباعه بنشره.

ولكن هنالك من المعجزات التي تكون آية، أي تقع لإتمام الحجة على المعارضين، ويمكن عرضها على الأعداء علانية بدون تردد.

ثم هناك من المعجزات التي تكون اختبارية تنطوي على عنصر من الألم والحزن، ولكن الله تعالى يظهرها لبعض الحِكم؛ وكانت ولادة المسيح عليه السلام من قبيل هذه المعجزات. فإن الله تعالى أخبر اليهود من خلالها أن النبوة على وشك الانتهاء من بينهم، وعلامة ذلك أنه قد خلق المسيح من دون أب. كان من المحال لأهل الدين اليهودي أن يصدّقوا أن النبوة ستُنـــزع منهم وستُنقل إلى أمة أخرى، وأراد الله

* "البان" في الأصل اسم شجرة في الهند. يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. *(المترجم)*

تعالى أن يلفت أنظار الأمة اليهودية إلى محمد رسول الله ﷺ، فخلق المسيح من بطن عذراء. لا شك أن ولادته كانت معجزة، ولكنها لم تكن بمعجزة لليهود إطلاقًا. فكذبوها بمجرد أن سمعوا عنها، وقالوا إنه – معاذ الله – ولد الحرام. بل لم تكن هذه المعجزة مدعاة لتقوية إيمان المسيح نفسه، فلذلك كان يسمي نفسه ابن الإنسان خجلاً، لأن الناس لا بد أن يكونوا يسألونه عن أبيه، فكان يجيب أنا ابن الإنسان. بينما اتبع القرآن طريقًا سهلاً فنسبه إلى أمه وسماه ابن مريم. فلا شك أن ولادته معجزة، ولكنها صارت حجر عثرة لبني إسرائيل، وتنبيهًا للنصارى بأن النبي الذي تؤمنون به ليس له أب من بني إسرائيل، وهكذا فإن الله تعالى قد غيّر مسرى النبوة بواسطته، وكشف أن النبي القادم لن يُبعث من بينكم بل يكون من أمة أخرى. إذًا فجاءت هذه العثرة لتلفت الأنظار إلى محمد رسول الله ﷺ تجهيزًا للمسيحيين لكي يدخلوا في الإسلام.

ثم يقول الله تعالى ﴿فأشارت إليه﴾.. أي لما جاءت مريم مع المسيح إلى قومها قالوا يا مريم، كيف ارتكبت الفاحشة مع أنك من عائلة شريفة؟ فأومأت إلى المسيح. وهذا يعني أن مريم كانت تعرف أن المسيح سيرد عليهم حتمًا. وهذه الجملة أيضًا تفنّد موقف أولئك الذين يزعمون أن المسيح قد تكلم عندئذ كمعجزة. إذ كيف عرفت مريم أنه سيتكلم عندئذ؟ فقوله تعالى ﴿فأشارت إليه﴾ يدل بكل وضوح أن المسيح كان يتكلم من قبل أيضًا، ولذلك عرفت مريم أنه سيتكلم في تلك المناسبة أيضًا.

ولو قيل هنا أن مريم كانت قد أُخبرتْ سلفًا أنه ﴿يكلّم الناسَ في المهد وكَهْلا﴾(آل عمران: ٤٧).. ولذلك أشارت إليه، فالجواب أن هذا الوحي الذي تلقته مريم عن كلام مولودها لا يحدّد المناسبة التي سيتكلم فيها الوليد، وإنما يخبر إنه سيكلّم الناس فقط. فلو كان هناك وعد إلهي لمريم بأن وليدها سيكلّم الناسَ دائمًا خلال فترة رضاعته لفهمنا أنه كان يكلم من قبل ولذلك أشارت إليه مريم في تلك المناسبة أيضًا. ولكن لا أحد يقول بكلام المسيح في زمن رضاعته قبل ذلك الحادث ولا بعده، فلا يمكن أن يكون الوعد الإلهي المذكور في سورة آل عمران هو الذي

جعل مريم تشير إلى وليدها ليتكلم. بل الواقع أنها أشارت إلى وليدها دحضًا لطعن اليهود الذين اتهموها بارتكاب الفاحشة وجلبِ العار على عائلتها وقومها؛ فردت على طعنهم بأن أشارت إلى ولدها وقالت يمكن أن تكلموه لتعرفوا هل هو حصيلة الفاحشة. لو صح ظنكم فكيف جاء هذا الطفل العظيم نتيجة الفاحشة؟ إن هذا الصبي في حد ذاته يمثل ردًّا مفحمًا على شبهاتكم ووساوسكم، ويبرئ ساحتي من تهمتكم.

أما قوله تعالى ﴿قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيًّا﴾، فيقدَّم كدليل على كلام المسيح عليه السلام في بداية طفولته.

فليكن معلومًا بهذا الصدد أن المهد يُطلَق على زمن التحضير والإعداد أيضًا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ومهّدتُ لـــه تمهيدًا﴾(المدّثّر: ١٥).. أي آتيتُ الكافر مالاً وثراء، وهيأت لرقيه وتقدُّمه أسبابًا كثيرة. فثبت أن كلمة المهد تُستعمل أيضًا لفترة التحضير والإعداد، وهو زمن الشباب، لأن الإنسان يستجمع فيه شتى القوى ليستهلكها في المستقبل. وهنا أيضًا قد استعمل القرآن لفظ ﴿المهد﴾ على سبيل الاستعارة بمعنى زمن الشباب. وإن كبار القوم يذكرون عمومًا شبابهم بمثل هذه الألفاظ، ولا يعنون بذلك أنهم لا يزالون في المهد والأرجوحة، وإنما المراد أنهم لا يزالون صغارًا جدًّا مقارنة بهم. فمثلاً كان عمر النبي ﷺ قرابة ستين سنة وقت صلح الحديبية، وكان قد دخل في الشيخوخة، ومع ذلك لما جاءه أحد رؤساء مكة الكافرين للتفاوض خاطب نبيَّنا ﷺ مرة بعد أخرى: يا ابني أنصحك أن ترضى بقولي. ذلك لأن هذا الرئيس كان يبلغ من العمر حوالي ثمانين سنة. فلا غرابة لو قال كبار القوم عن أحد: كيف نكلّمه وهو وليد الأمس. وكان المولوي سيد محمد أحسن الأمروهي كلما غضب بشدة قال لأعضاء مؤسسة "أنجمن"*: كيف

* كلمة "أنجمن" تعني حرفيًّا مجموعة النجوم، والمراد منها هنا المجلس الإداري المركـــزي الـــذي شكّله سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام لمساعدته في إدارة أعمال الجماعة، وكان حضرة المفسر والمولوي الأمروهي – رضي الله عنهما – من كبار أعضاء هذا المجلس. *(المترجم)*

تتكلمون أمامي أيها الأطفال الرُضّع المولودون أمس؟ أفلا يكون مهزلة لو أخذ أحد قول المولوي الأمروهي هذا، وقال إن اللجنة التي شكلها سيدنا المسيح الموعود عليه السلام كان بين أعضائها البالغ عددهم أربعة عشر شابٌّ واحد، أما الآخرون فكانوا كلهم أطفالاً رُضّعًا؟ فقول اليهود يماثل قول المولوي سيد محمد أحسن المحترم. لقد قالوا كيف نكلّم هذا الصبي الذي كان يلعب أمام أعيننا أمس في أسماله الوسخة. بمعنى أنه لا يزال في سن التعلم، فماذا سيعلِّمنا نحن حتى نكلمه؟ وكأنهم قد تظاهروا بعلمهم وتفاخروا بفضلهم وسنّهم.

فاستنتاج بعض المسلمين من قوله تعالى ﴿ويكلّم الناسَ في المهد وكهلا﴾ بأنه كان بمثابة نبأ من الله تعالى بأن المسيح عليه السلام سيتكلّم في صغره وفي مهده المادي استنتاج خاطئ. ذلك لأن الله تعالى قد أضاف مع المهد ﴿كهلا﴾ أيضًا. فإذا كان كلام المسيح في المهد معجزة فهل كان كلامه في كهولته أيضًا معجزة؟ ألا يتكلم الناس في سنّ الكهولة.. أي ما بين ٣٣ إلى ٥٠ عامًا ؟ هل يُعتبر كلام الكهل أيضًا من كبار المعجزات؟ إذًا فوجود لفظ ﴿كهلاً﴾ مع ﴿المهد﴾ يدل أن هذه الآية لا تشير إلى معجزة كلامه في موعد خاص، وإنما إلى معجزة نوعية كلامه. لو كان المراد هنا كلامه في عمر معين لما أُضيف هنا كلمة ﴿كهلا﴾. إذا كان الكلام في الكهولة يُعَدّ معجزة، فيمكن أن يعد الكلام في المهد أيضًا معجزة؛ أما إذا كان الكلام في الكهولة أمرًا عاديًا، فلا بد أن يراد بالمهد هنا ذلك السن الذي يتكلم فيه عامة الأولاد.

وقد يقال هنا: فلماذا أوحى الله تعالى إذًا لمريم بأنه سيكلّم الناس في المهد؟ والجواب أن السبب وراء إخبار الله لمريم بكلام المسيح في المهد هو نفس السبب الذي كان إخباره لها بكلامه في الكهولة. ألا يتكلم الناس في الكهولة؟ فإذا كانوا يتكلمون فلماذا نبأها الله تعالى بكلامه حين يكون كهلاً؟ فثبت أن هناك سببًا آخر وراء هذه النبوءة، وعلينا أن نبحث عنه. لا بد أن يكون في كلامه عنصر الإعجاز، وإلا لما أنبأ الله تعالى بذلك، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو هل كان كلامه معجزة نظرًا لعمره أم لسبب آخر؟ نحن نسلّم أن الوليد الذي عمره شهرانِ

إذا تكلم لكان معجزة عظيمة، ولكن المشكلة أن القرآن الكريم قد قال هنا إنه سيتكلم في سن الخمسين أيضًا؛ فكيف صار كلامه في سن الخمسين أيضًا معجزة يا ترى؟

والجواب هو نفس ما ذكرته أعلاه بأن الكلام يكون في حد ذاته معجزة أيضًا بغض النظر عن العمر. فمثلا إن القرآن الكريم لمعجزة عظيمة جدًّا، ولكن هل نـــزل القرآن على النبي ﷺ وعمره شهرانِ أم أربعون عامًا؟ لقد بدأ نـــزوله على النبي ﷺ في سن الأربعين، واستمر نـــزوله حتى سن الثالثة والستين، ومع ذلك نعد هذا الكلام معجزة؟ فهل نعتبره معجزة لأنه نـــزل عليه ﷺ وسنُّه شهران وثلاثة أشهر؟ كلا، بل نعدّه معجزة لنوعية هذا الكلام؟ فإننا نؤمن بأن القرآن كلام عظيم منقطع النظير حتى إن العالم كله لعاجز عن أن يأتي بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

فالمراد من قوله تعالى ﴿ويكلّم الناسَ في المهد وكهلا﴾ أن المسيح سيتكلم كلامًا إعجازيًّا في زمن شبابه وإعداده، وكذلك في زمن كهولته. والحق أن الأنبياء كلهم يتكلمون بمثل هذا الكلام، لكونهم من المحبوبين المقربين لدى الله تعالى. فهذا هو رسولنا الكريم ﷺ الذي لم يزل يتكلم بكلام لا يبلغ شأوَه كلامُ المسيح ولا كلام موسى عليهما السلام؛ إذ لا قيمة التوراة والإنجيل إزاء القرآن الكريم؟ مع أنه ﷺ قد تكلم بهذا الكلام منذ سن الأربعين. فالله تعالى وحده الذي كان قادرًا على أن يخبر إذّاك أن المسيح سيتكلم بمثل هذا الكلام العظيم. إذًا فالمعجزة لا تكمن في أن يتكلم ولد سنه شهران، وإنما تكمن في المزايا والمحاسن التي يتسم بها هذا الكلام. فلا داعي لتفسير لفظ ﴿في المهد﴾ بأن المسيح تكلم في صغره، بل إذا كان قد تكلم في شبابه بما ليس في وسع الإنسان العادي أن يتفوه به فكان ذلك أيضًا معجزة. شأنه شأن رسولنا الكريم ﷺ الذي تكلم بالقرآن في سن الأربعين، ومع ذلك كان كلامه معجزة منقطعة النظير. فكما أن كلام النبي ﷺ وموسى وغيرهما من الأنبياء في السن المتقدمة كلامًا إعجازيًّا، وكان الله تعالى وحده القادر على التنبؤ بنوعية كلامهم، كذلك الحال بالنسبة لكلام المسيح. فثبت أن الله تعالى ما أنبأ عن كلام

المسيح لأنه سيتكلم في المهد، وإنما أنبأ بذلك نظرًا إلى نوعية كلامه إذ سيكون متحلّيًا بصفة الإعجاز، ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى مع المهد كلمة الكهل أيضًا؛ ذلك لأن الكلام الخاص كما يكون إعجازيًّا في الشباب يكون إعجازيًّا في الكهولة والشيخوخة أيضًا.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾

التفسير: وجدير بالذكر أيضًا أن قوله تعالى ﴿ويكلّم الناس في المهد﴾ لو فُسّر بأن المسيح عليه السلام قد تكلم بهذا الكلام وهو طفل رضيع، لأصبحت كل الأمور المذكورة في هذه الآيات كذبًا وزورًا. فلو كان قد تكلم بهذا الكلام وهو صبي عمره شهران فتدبروا في ما يقول؟ يقول ﴿إني عبد الله﴾. ولا يراد بقوله عليه السلام ﴿إني عبد الله﴾ أنه مجرد مخلوق من خلق الله تعالى، لأن جميع الخلق متساوون معه في هذه الصفة، في حين أن المسيح يذكر هنا خصوصياته التي يتميز بها على الآخرين. إنما المراد من قوله ﴿إني عبد الله﴾ أنه مطيع لله تعالى طاعة كاملة، وكاشفٌ للصفات الإلهية والأخلاق الربانية للعالم. فلو سلّمنا الآن أن المسيح الطفل الرضيع قد قال هذا الكلام فلا شك أنه قد كذب، ولم يأت بأي معجزة؛ إذ كان عندها لا يزال بحاجة إلى أمه لتطهره من النجاسة، وترضعه من ثديها. فكيف يمكن أن يقول إني عبد الله وهو ممسك بثدي أمه يمتصّه. لقد كان مشهدًا مثيرًا بالفعل! إذ كان يقول للناس إني عبد الله، ثم يدير وجهه إلى أمه ويرضَع ثديها. فهذا يعني أنه كان يتصرف تصرُّفَ المواليد الرُّضَّع، ومع ذلك كان يدعي أنه من المقربين الأطهار الكبار!

ثم إن كل ما قاله يصبح كذبًا وزورًا. يقول إني عبد الله، وأؤدي الصلاة، مع أنه لم يكن يقوم عندئذ بأي عبادة، بل لو أنه بدأ الصلاة وفق ادعائه هذا، لرمَتْه أُمُّه بعيدًا وذهبت، ليظل ملطخًا بنجاساته طوال النهار.

ثم يقول ﴿آتاني الكتابَ﴾. وأي كتاب أعطاه الله في ذلك الوقت، يا ترى؟

ثم يقول ﴿وجعلني نبيًّا﴾، مع أن هذا كذب، لأنه لم يكن قد بُعث نبيًّا في ذلك الوقت.

ثم يقول ﴿وجعلني مباركًا أينما كنتُ﴾. كان لا يستطيع المشي أيضًا، بل كانت أمه تحتضنه هنا وهناك، ومع ذلك يقول إن بركة الله معي أينما ذهبتُ!

ثم يقول ﴿وأوصاني بالصلاة﴾، مع أنه كان لا يقدر على أن يتطهر من نجاسته، بل كان الآخرون يقومون بتنظيفه وتطهيره. ثم إنه كان لا يعرف عندها كيف يصلي؟

ثم قال وأوصاني الله بـــ ﴿الزكاة﴾. كانت أمه هي التي تصنع لـــه الخِرَق والأسمال، ومع ذلك يقول إن الله تعالى أمرني بأداء الزكاة.

وثم قال ﴿وبَرًّا بوالدتي﴾.. أي جعلني الله مطيعًا لأمي. متى كان بوسعه عندها أن يطيع أُمَّه؟ بل بالعكس كانت تسقيه لبنها، وتحمله هنا وهناك؛ وتبيت لياليها ساهرةً على راحته.

ثم قال ﴿ولم يجعَلْني جبّارًا شقيًّا﴾. كان يبكي لو قرصه أحد قرصة بيده، فأنَّى لـــه أن يكون عندئذ جبارًا شقيًّا.

إذًا فلو سلّمنا بأنه قد تكلم بهذا الكلام في صغره لعُدَّ كلامه هذا كله كذبًا وزورًا.

يقول الناس إن هذا الكلام الذي جرى على لسانه في الصغر كان في الواقع أنباء لتتحقق في المستقبل. وأنا أقول: إذا كانوا يعتبرون كل هذه الأمور أخبارًا مستقبلية، فلماذا لا يعتبرون "كلامه في المهد" أيضًا من الأنباء المستقبلية، لتنحل المشكلة كلها؟

ثم علينا أن نفكر: ماذا أراد الله بهذا؟ يقول أصحاب الرأي الأول: كان الهدف من كلامه بهذا الأسلوب أن يري الله تعالى معجزة لليهود.

ولكنا نرى أن اليهود لم ينتفعوا من هذه المعجزة شيئًا، إنما ازدادوا كفرًا وإنكارًا، وقالوا إن كل ما يقول المسيح كذب وافتراء. إنه يقول: لقد آتاني الله الكتاب، مع أنه ليس معه أي كتاب. ويقول: لقد جعلني الله نبيًّا، مع أنه لا يستطيع بنفسه أن يطهر نفسه من النجاسة، بل إن أمه هي التي تقوم بتنظيفه وتطهيره. ويقول: إن الله أمرني بالزكاة، مع أنه لا يملك قرشًا واحدًا.

ولو قيل: إن كلامه في ذلك العمر الصغير كان حجة على المعارضين.. أي لم تكمن المعجزة في أي شيء سوى أنه تكلم في ذلك العمر الصغير، فالجواب: ما الداعي إذن لأن يتفوه بكل تلك الأمور التي كانت كذبًا في كذب؟ كان يكفيه أن يقول مثلا: "كيف حالك يا عمّ. ما هذا الذي تقوله، يا عمّ؟ ألا تخاف الله تعالى." فلو أنه تفوه بهذه الكلمات فقط لهرب على الفور كل الفقهاء والفريسيين الكبار ذوي العمائم والعباءات، دون أن يتكلم بكل هذه الأكاذيب.

الحقيقة أن السيدة مريم ظلت مقيمة في مكان خارج مدينتها بعد ولادة المسيح لمدة طويلة، ولما بلغ الثلاثين من عمره (لوقا ٣: ٢٣) وشرفه الله تعالى بالنبوة رجعت معه إلى قومها. ويبدو أن أقاربها المشاكسين ظلوا متربصين بها، فلم ينفعها غيابها عن المدينة، واطلع هؤلاء على السر الذي حاولت كتمانه، أو أن الله تعالى نفسه أراد أن يفشو سرها لتزداد المعجزة جلاء وعيانًا..... فلما رجعت ورأوا معها مولودها المشهور الخبر عيّروها به. فما استطاعت الرد عليهم خجلاً، بل ﴿أشارت إليه﴾. ولكن الولد أصبح الآن شابًّا، وقد صار نبيًّا، فرد عليهم وقال: ما هذا الهراء الذي تهذون به. ﴿إني عبد الله آتانيَ الكتابَ وجعلني نبيًّا﴾.. أي أنني إنسان متخلق بأخلاق الله، وإن صفاته تعالى تنعكس في أعمالي وتصرفاتي. وقد أعطاني الله الكتاب، وبعثني نبيًّا. فهل مثلي يكون من أولاد الحرام؟

ثم قال ﴿وجعلني مباركًا أينما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمتُ حيًّا﴾. فلو قلنا أنه قد نطق بهذا الكلام وهو طفل رضيع، فهذا يعني أنه كان في أيام

رضاعته يتجول في المدينة هنا وهناك، ويؤدي الصلوات، ويؤتي الزكاة، مع أنه أمر لا يعتقد به أي من المسلمين ولا النصارى.

أما إذا قالوا أنها كانت أنباء تتعلق بالمستقبل، قلنا: لقد تكلم المسيح بهذا الكلام في تلك السنّ الصغيرة لكي يصدقه الناس، بيد أن الذي حصل فعلاً هو أن هذا الكلام زادهم نفورًا وإعراضًا، حيث قالوا: إنه شخص كذاب، انظروا إلى حالته وإلى أكاذيبه. لا شك أنه حين قال لهم ﴿آتاني الكتاب﴾ ردوا عليه بأنك تكذب كذبًا صريحًا. أرِنا، أين هذا الكتاب؟ ولو افترضنا أنه أراهم الكتاب فأيضًا ما كان بوسعه أن يعمل بذلك الكتاب في تلك السن.

ثم إنه لما قال ﴿وجعلني نبيًّا﴾ فلا بد أنهم قد ردوا عليه: كيف جعلك الله تعالى نبيًّا وأنت لا تزال تمصّ ثدي أمك.

ولما قال لهم ﴿وجعلني مباركًا أينما كنت﴾ فلا بد أنهم قالوا لـــه: إنك لا تترك حضن أمك، ومع ذلك تقول إني مبارك من عند الله تعالى أينما ذهبت!

ولما قال لهم ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حيًّا﴾ فلا بد أنهم يكونون قد ردوا عليه قائلين: حسنًا، أخبِرْنا كم صلاة أدّيتَها حتى اليوم؟ ثم كيف تزعم أن الله تعالى قد أمرك بأداء الزكاة وليس عندك قرش واحد؟

ولما قال لهم ﴿وبَرًّا بوالدتي﴾ فلا بد أنهم قالوا لـــه: كيف تزعم أنك جدُّ محسنٍ إلى أمك، ومطيع لها تمامًا، مع أنك تنجس ثيابها بالبول، وتمتص دمها أي لبنها.

ولما قال لهم ﴿ولم يجعَلْني جبّارًا شقيًّا﴾.. أي لستُ ممن يظلِم الناسَ ويهضم حقوقهم، فلا بد أنهم أجابوه: أنّى لك أن تظلم الناس وأنت لا تزال بحاجة إلى مساعدة الآخرين في كل شيء.

ولكن المسيح عليه السلام لو لم يتفوه بكل "هذه الأباطيل"، وإنما اكتفى بقوله: يا عم، لِمَ تظلم أُمّي، وما هذا الهراء الذي تهذي به ضدها، لهرب عنه أحبار اليهود ورهبانهم. إذًا فإن هذه الدعاوى العريضة لا تترك هذا الحدث معجزة أبدًا، وإنما تجعله كذبًا صريحًا لا يمكن أن يقتنع منه العدو أبدًا.

فالواقع أن هذه الأقوال ترجع إلى الزمن الذي كان المسيح فيه فتى يافعًا عمره ثلاثون سنة، وجاء إلى أورشليم. كانت أمه أيضًا في رفقته، وكانت تدرك أن أقاربها سيطيلون عليها لسان الطعن بسبب ولدها. فلما قالوا لها ﴿يا مريم لقد جئتِ شيئًا فريًّا﴾ قالت لِمَ تعيّرونني؟ اسألوه هو؟ فقال لهم المسيح عليه السلام: ما هذه الأقاويل التي تهذون بها. إن الله تعالى قد جعلني نبيًّا، ومنَحني الورع والطهر، ووهَب لي علمًا وأخلاقًا فاضلة. لو كانت أمي امرأة فاحشة لما جعلني الله بَرًّا بها. إنه لبِرُّ أُمّي وتقواها الذي بسببه قد اختارها الله تعالى ورزقها ابنًا بارًّا مثلي.

فليس المراد من ﴿المهد﴾ هنا زمن الطفولة والصغر، وإنما قد تكلم المسيح بهذا الكلام فيما بعد حين بلغ ثلاثين سنة أي قبل الكهولة التي هي ما بين سن الثلاثين إلى الخمسين حيث تبدأ بعده الشيخوخة. لقد بُعث المسيح نبيًّا في سن الثلاثين، وبقي في وطنه حتى الثالثة والثلاثين من عمره. فتكلم مع أهل وطنه في المهد والكهولة، أما في الشيخوخة فتكلم مع أهل البلاد الأخرى.

لقد بيّنتُ في تفسير هذه الآيات حتى الآن نظرية القرآن الكريم حول كلام المسيح عليه السلام.. أي هل تكلم بهذا الكلام حين كان طفلاً رضيعًا في حضن أمه، أم حين شرفه الله تعالى بالنبوة. ولكن هذه الآيات، كما هو واضح للجميع، لا تخص المسلمين وحدهم، بل المسيحيين أيضًا، الذين قد يقولون إن بيان القرآن عن زعيمهم غلط؛ لذا أبين الآن ما إذا كان المسيحيون يصدّقون بأن المسيح قال ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا﴾ أم لا؟

إن الكُتّاب والمفسرين المسيحيين الذين قاموا بتفسير القرآن وألفوا كتبًا عن الإسلام قد استشاطوا غضبًا عند قراءة هذه الآية، وشنّوا هجومًا شرسًا على رسول الله ﷺ، وقالوا إنه – والعياذ بالله – قد عزا إلى المسيح هذه المفتريات دعمًا لدعواه (تفسير القرآن لـــ "ويري" مجلد ٣).

وهذا يعني أن علماء المسلمين قد نسبوا بأقوالهم معجزةً إلى المسيح، ولكن ما حصل هو أنهم أتاحوا بذلك للمسيحيين الفرصة لكي يسبّوا ويكذّبوا سيدهم ومولاهم محمدًا رسول الله ﷺ! يقول المسيحيون إن المسيح إله، فأنى لـــه أن يقول

﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعَلني نبيًّا﴾. ويقولون في غضب وكره شديدينِ أن محمدًا – والعياذ بالله – قد أراد أن يثبت دعواه، فعزا إلى المسيح هذه الكلمات والدعاوى كذبًا وافتراء. إن المسيح لم يقل هذا الكلام قط، فلا يمكن أن يعزى إلى المسيح بحال من الأحوال.

إذًا فلا يمكننا، والحال هذه، أن نتجاوز هذه الآيات بدون أن نبرهن بما لا يدع مجالا للشك على أن ما ذكره القرآن هنا هو الحق، وأن الأناجيل أيضًا تؤكد ما جاء في القرآن الكريم. فالأمر لا يخص تعليم الإسلام أو تاريخه فحسب حتى نمر به صامتين وظانين أنه أمر لا علاقة لـــه بالأغيار. كلا، بل إنها أمور تخص زعيم أمة، وقد أعلن القرآن أن زعيمهم قد قالها فعلاً؛ لذا يحق لأتباع هذا الزعيم أن يقولوا لنا فأتوا برهانكم من الإنجيل إن كنتم صادقين، وإلا فقد ثبت أن القرآن – والعياذ بالله – من افتراء البشر، وأنه قد حاول خداع الناس. أما إذا ثبت أن ما قاله القرآن الكريم هو الحق، وأن هذا ما يؤكده الإنجيل أيضًا، حُلّت لنا قضيتان، أعني أن هذا سيكون دليلاً على أن المسيح لم يتكلم بذلك الكلام في طفولته، كما أنه سيشكل برهانًا على أن المسيح لم يدّع الألوهية قط، بل كان إنسانًا كغيره من البشر الموجودين في الدنيا.

إن من الأمور التي يعزوها القرآن إلى المسيح عليه السلام قوله ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا﴾. وإذا ثبتت هذه الأمور لم يبق هناك شك ولا شبهة في أن المسيح لم يكن إلهًا ولا ابن إله، بل كان مجرد نبيّ من عند الله تعالى.

بيد أنه مما لا شك فيه أن من حق المسيحيين أن يغضبوا هنا ويقولوا أن القرآن قد نسب إلى المسيح دعاوى لا حقيقة لها، ولكن ليس من حقهم أن يلجأوا إلى البذاءة والسباب.

والواقع أننا عندما نقرأ الإنجيل بإمعان وتدبر نجد أن عقائد المسيحيين إنما هي حصيلة سوء الفهم، وأن ما يقوله القرآن الكريم هو الحق والصواب، وإليك بيان ذلك.

الأمر الأول: إن أول ما نسبه القرآن الكريم هنا إلى المسيح هو قوله ﴿إني عبد الله﴾. فلو أن الإنجيل قال أيضًا إن المسيح عبد الله لثبت أن القرآن على الحق. فنتوجه أولاً إلى هذا الأمر ونقدم على صدق بيان القرآن العبارة التالية من الإنجيل:

"ثم أُصعِد يسوع إلى البرية من الروح ليجرَّب من إبليس. فبعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلة جاعَ أخيرًا، فتقدَّمَ إليه المجرِّب وقال لـــه: إن كنتَ ابن الله فقُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزًا؟ فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرُج مِن فم الله. ثم أخذه إبليسُ إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال لـــه: إن كنتَ ابن الله فاطرَحْ نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدِم بحجر رِجلَك. قال لـــه يسوع: مكتوب أيضًا: لا تجرّب الربَّ إلهَك. ثم أخذه أيضًا إبليسُ إلى جبل عال جدًّا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال لـــه: أُعطيك هذه جميعَها إنْ خرَرتَ وسجدتَ لي. حينئذ قال لـــه يسوع: اذهبْ يا شيطانُ، لأنه مكتوب: للرب إلهِك تسجد، وإياه وحده تعبد.

(أقول: إن هذه الفقرة تبين أنه بالرغم أن المسيح لم يسجد للشيطان إلا أن أُمّته سيسجدون للشيطان في آخر المطاف، لأن الإنجيل يخبر أن مُلك الدنيا يتيسر نتيجة السجود للشيطان).

ثم تركه إبليس، وإذا ملائكة قد جاءت، فصارت تخدمه" (متى ٤: ١- ١١).

كم هي مفصلة وصريحة هذه الفقرة في دلالتها على كون المسيح واحدًا من البشر! فإن أول ما ورد هنا أن الشيطان جاء لاختباره، ولا أحد من العقلاء يمكن أن يصدق أن الشيطان الذي جاء لاختبار المسيح كان لا يعرف من هو الإله، وما هي صفاته، وما قدرته. فحيثما ذُكر الشيطان في الكتاب المقدس نعرف منه أن الشيطان كائن متمرد، لم تتيسر له معرفة الله تعالى كاملةً، ولكنا نعرف من بيان الكتاب المقدس أيضًا أن الشيطان كان يعرف من هو الإله، وما هي صفاته وقدراته. فذهاب الشيطان إلى المسيح لاختباره، رغم معرفته أن اختبار الله تعالى

محال، يكشف بجلاء أن الشيطان كان يعلم أن المسيح ليس بإله، وإلا فما الحاجة لأن يذهب لاختبار الإله؟

ثم ورد أن المسيح: "بعد ما صام أربعين نهارًا وأربعين ليلة جاعَ أخيرًا". فلو كان المراد من صيامه أربعين نهارًا وليلة أنه لم يأكل في كل هذه المدة فلا غرابة في ذلك، فإن السيد "غاندي"* كان يصوم شهرين متتابعين.

ثم إن الإنجيل يذكر هنا فقط جوعه دون العطش، وهذا يعني أن صيام المسيح كان عبارة عن الامتناع عن أكل الطعام دون الشراب، كما كان السيد "غاندي" يفعل حيث كان لا يأكل الطعام خلال صيامه، ولكن كان يشرب الماء وعصير الفواكه!

على أية حال، إن الإنجيل يخبرنا أنه لما انتهى صوم المسيح جاع، وجوعه يدل على أنه كان إنسانًا، وليس إلهًا لأن الجوع إنما يصيب الإنسانَ وليس الإلهَ.

يقول المسيحيون على ذلك أن المسيح كان في الجسد الإنساني لذا كان بحاجة إلى الحوائج البشرية.

ولكنا نحن المسلمين نرى أن جسد المسيح كان جسدَ بشرٍ كما أن روحه أيضًا كان روحَ بشرٍ. ونقول للمسيحيين: لقد أقررتم على الأقل بكون جسد المسيح جسدًا بشريًّا. وبقي الآن السؤال: هل كان في المسيح روح بشر أم روح إله؟ والجملة التالية تجيب على ذلك حيث ورد أن الشيطان قال له: "إن كنتَ ابن الله فقُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزًا؟ فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرُج من فم الله."

والبيّن أن تحويل الحجارة إلى خبز هو في قدرة الله وليس في مقدرة الإنسان. ولذلك قال الشيطان ليسوع: ما دمتَ تدعي أنك ابن الله، والناس أيضًا يظنون

* زعيم سياسي هندوسي شهير. *(المترجم)*

أنك كائن خارق، فحوِّلْ هذه الحجارة خبزًا. ولكن المسيح لم يقدر على ذلك. وهذا يدل على أنه لم يملك أي قدرة كقدرة الله تعالى.

ويقول المسيحيون على ذلك: إن عدم تحويله الحجارةَ إلى خبز ليس دليلاً على أنه لم يملك أي قدرة كقدرة الله تعالى، لأن الأمر كان يتوقف على مشيئة المسيح. فإنه لو شاء لحوّل الحجارة خبزًا، ولكن لم يرد ذلك، فلم تتحول الحجارة خبزًا. فإذا كان المسيح لم يُرِ معجزة تحويل الحجارة خبزًا فليس في ذلك دليل على عجزه، وإنما المراد منه أنه لما رأى جسارة الشيطان ووقاحته رفض طلبه قائلا: من أنت حتى تأمرني بهذه الأوامر. فاخسأْ عني، فإني لن أحوّل الحجارة خبزًا.

والجواب على ذلك هو: علينا أن نتدبر فيما قاله المسيح ردًّا على الشيطان لمعرفة السبب الحقيقي وراء عدم تحويله الحجارة خبزًا. فلو أن المسيح قال لـــه: لن أحول الحجارة خبزًا، فإن تحويلها خبزًا يتوقف على مشيئتي لا على إرادتك؛ فمن أنت حتى تُجبرني على ذلك؟ أقول: لو كان هذا هو جواب المسيح فيمكن القول أنه لم يحول الحجارة خبزًا لأنه لم يرد ذلك، وليس لأنه لم يقدر على ذلك. ولكن لم يجب المسيح هكذا، وإنما قال: "مكتوب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرُج من فم الله."

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو: من هما الكائنان اللذان كانا يتحاوران هناك؟ هل كان ثمة أي كائن يأكل الخبز سوى المسيح؟ فالبديهي أن الشيطان لا يأكل الخبز، بل المسيح هو الذي كان يأكل الخبز. والمسيح يجيب أنه "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"، وكأن المسيح يقر هنا بأنه إنسان ومحتاج إلى الخبز، ولكن الله تعالى إذا لم يعطني الطعام بعد فعلي أن أثق بوعد الله تعالى، وألا أخوض في مثل هذا الكلام التافه بأن تتحول الحجارة خبزًا.

ثم إن ما قاله المسيح بعد ذلك: "بل بكل كلمة تخرُج من فم الله"، فهو أيضًا يخص نفسه هو. فثبت أن المسيح كان يحيا بكلام الله تعالى، والبديهي أن الذي يحيى بكلام الله تعالى لا يمكن أن يكون إلهًا.

ثم تقول هذه الفقرة: "ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على جناح الهيكل، وقال لـــه: إن كنتَ ابنَ الله فاطرَحْ نفسَك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدِم بحجر رِجلَك." أي أن الشيطان طلب من المسيح أن يلقي بنفسه من على الهيكل، فيصدق بأنه إله، لأن الإله لا يمكن أن يصاب بجراح.

فأجابه المسيح وقال: "مكتوب أيضًا لا تجرّب الربَّ إلهَك." أي لن أفعل هذا أيضًا لأني لا أريد أن أجرب إلهي. إني عبد الله، وعباد الله مأمورون بألا يجربوا ربهم.

ثم تقول الفقرة: "ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبل عال جدًّا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال لـــه: أُعطيك هذه جميعَها إنْ خرَرتَ وسجدتَ لي."

هذا دليل آخر على أن المسيح لم يكن إلهًا. ذلك لأن الله تعالى مالكُ الأشياء كلها، ولكن الشيطان يعِد المسيحَ بكل تلك الأشياء إذا سجد لـــه. وهذا يدل صراحة على أن الشيطان كان يعلم أن المسيح ليس إلهًا، إذ لا أحد يقول للإله سأعطيك كل هذه الأشياء. ولا معنى أن يُعطَى لله ما يملكه هو سلفًا. فثبت أن المسيح لو كان إلهًا عند الشيطان لما قال لـــه إني سأعطيك نعم الدنيا كلها على أن تسجد لي.

ثم يجب أن يلاحَظ هنا أن المسيح ما قال للشيطان في الجواب بأني أنا مالك هذه الأشياء كلها. وهذا أيضًا يوضح أنه هو الآخر كان يرى أنه عبد من عباد الله تعالى. لو كان المسيح إلهًا لكان جوابه: إنني أنا الإله، وإن هذه الأشياء كلها هي ملكي؛ فماذا تقصد من قولك أنك ستمنحني ما أملكه سلفًا؟ إنما أجابه المسيح: "اذهبْ يا شيطانُ، لأنه مكتوب: للرب إلهِك تسجد، وإياه وحده تعبد." وكأن المسيح عليه السلام قد اعترف هنا أنه عبد لله وحده، فليس لـــه إلا أن يسجد لله وحده، ويعبد ربَّه وحده.

وقد ذكر لوقا (٤: ١-١٣) أيضًا نفس الأمور، إلا أنه زاد على بيان متى أمرًا واحدًا. لقد ورد في متى أن المسيح اختُبر بعد أن جاع أربعين نهارًا وليلة، بينما ورد في لوقا أن الشيطان لم يزل يختبر المسيح أربعين يومًا.

والغريب أن المشايخ يزعمون أن المسيح لم يمسّه الشيطان قط، بينما يعلن الإنجيل أن الشيطان لم يزل يذهب بالمسيح هنا وهناك، ويختبره طيلة أربعين يومًا. وهذا يعني أن الذين يتخذون المسيح إلهًا لا يبرءونه من مسّ الشيطان، ولكن أتباع محمد رسول الله ﷺ يرون أن سائر الأنبياء قد مسّهم الشيطان، اللهم إلا "ابن الله المزعوم"، بالرغم من أن أمة المسيح نفسها تقرّ بأن الشيطان لم يزل يذهب به هنا وهناك ويجربه طيلة أربعين يومًا!

والأغرب من ذلك أن المشايخ يقولون أن الشيطان لم يمس المسيح عندما كان وليدًا، بينما يعلن الإنجيل أن المسيح كان يسير مع الشيطان حتى بعد بلوغه سن الرشد والعقل، وليس لدقيقة أو دقيقين، بل أربعين يومًا بدون انقطاع.

ثم ورد في إنجيل يوحنا قول المسيح: "أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجُد لما نعلم، لأن الخلاص هو من اليهود" (يوحنا ٤: ٢٢).

لقد تبيّن من هنا أيضًا أن المسيح عليه السلام كان يعدّ نفسه عبدًا لله تعالى، لأنه يقول إننا نحن اليهود نعبد الله الذي نعلمه، وأما أنتم فتعبدون الذي لا تعلمونه.

ثم إن من أكبر صفات الإله معرفة علم الغيب، ولا بد لمدعي الألوهية من أن يعلم الغيب. ولكن المسيح يقول: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الآبُ" (مرقس ١٣: ٣٢).

علمًا أن هناك اختلافًا حول المراد من "ذلك اليوم وتلك الساعة"، فالبعض يرى أن المقصود به القيامة، بينما يرى البعض الآخر أن المراد منه المجيء الثاني للمسيح (تفسير مرقس (أورد) ص ٢٧٧). وأيًّا كان المراد، فإن المسيح يعلن أن لا علم لـــه ولا للملائكة بذلك اليوم وتلك الساعة، إنما علمهما عند الله. وهذا

يعني أن المسيح عليه السلام يعترف هنا بأنه لا يعلم الغيب، إنما الله وحده الذي عنده علم الغيب. فلو كان المسيح عليه السلام إلهًا لعلِم هذا الغيب حتمًا.

وكذلك ورد في الإنجيل: "وفيما هو خارج إلى الطريق ركَض واحد وجثا له وسأله: أيها المعلِّم الصالح، ماذا أعمل لأرِث الحياةَ الأبدية؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحًا. ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله." (مرقس ١٠: ١٧-١٨).

لقد قام المسيح عليه السلام هنا باثنين من الدعاوى:

أولهما: ليس أحد صالحًا إلا الله. **والثانية**: أن المسيح ليس صالحًا؛ والنتيجة الحتمية لذلك واحدة وهي أن المسيح لم يكن إلهًا. فسواء أن استعملتم الكلية الصغرى للمنطق أم الكلية الكبرى فلن تتوصلوا إلا إلى هذه النتيجة. فثبت جليًّا أن المسيح عليه السلام يعترف هنا بكونه إنسانًا.

وليكن معلومًا هنا أن بعض المسلمين يثورون غضبًا أكثر من المسيحيين أنفسهم لدى سماع هذا الدليل لعدم تدبرهم حقيقة الأمر، فيقولون: ألم يكن المسيح عليه السلام صالحًا؟ ولو وُجه هذا السؤال إلى أحد منا نحن المسلمين الأحمديين لأجاب: اسألِ النصارى بدلاً مني، لأن هذا قد ورد في كتابهم، وعليهم تقع مسؤولية الجواب، لا علينا.

أما إذا لم يكن لنا بدٌّ من الإجابة على ذلك فنقول إن الصلاح الذي أشار إليه المسيح هو صلاح ذاتي. ذلك لأن صلاح العباد يكون مكتسبًا، أما صلاح الله فذاتي غير مكتسب؛ ولذلك يسمَّى الله تعالى قدوسًا، ولكن الإنسان لا يسمى قدّوسًا. إنه تعالى قدّوس لأن ذاته تعالى منزه عن أي منقصة وعيب، أما الإنسان فيتخلص من العيوب بالجهد والمحاولة. لم يأت على الله تعالى وقت كان فيه ناقصًا، فحاول أن يحرز الكمال، ولكن الإنسان يكون ناقصًا في أول أمره، ثم يحرز الكمال شيئًا فشيئًا. إنه يكون في البداية طفلاً، وحين يبلغ سن الرشد

والعقل يبدأ في أداء الصلاة؛ فتأخذه صلاته كل يوم إلى الأمام بالتدريج. ولكن الله تعالى هو هو منذ الأزل. لم يكن أقل قداسةً في الماضي، ولم تزدد قدوسيته اليوم. ولكن صلاح الإنسان ينقص ويزداد وإن كان نبيًّا. عندما يكون صغيرًا يكون أقل صلاحًا، وحينما يأخذ في إدراك الحقائق يزداد صلاحًا؛ وعندما ينـــزل عليه الشرع أو الإلهام يتقدم في الروحانية أكثر فأكثر. فالمسيح عليه السلام لما قال إنه ليس صالحًا، فإنما كان يقصد أن صلاحه ليس ذاتيًّا، إنما هو صلاح مجلوب.

كذلك ورد في الإنجيل أن الناس جاءوه بامرأة وقالوا لقد أمسكها القوم وهي تزني، وعقاب الزانية هو الرجم بحسب شرع موسى، وقد جئناك بها، فماذا ترى أنت؟ فقال لهم المسيح: من كان منكم بلا إثم فليتقدم وليَرْمِها قبل الجميع. فلما سمعوا هربوا جميعًا. فقال المسيح للمرأة: أين هؤلاء الذين أدانوكِ. قالت: لقد هربوا. قال: اذهبي، فأنا أيضًا لا أدينك. وفيما يلي نص الإنجيل بهذا الصدد:

"وقدّم إليه الكتَبة والفريسيون امرأةً أُمسكتْ في زنًا. ولما أقاموها في الوسط قالوا لـــه: يا معلم، هذه المرأة أُمسكتْ وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه تُرجَم؛ فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجرّبوه لكي يكون لـــهم ما يشتكون به عليه. وأما يسوع فانحنى إلى أسفل، وكان يكتب بإصبعه على الأرض. ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بلا خطيّة فليَرْمِها أولاً بحجر. ثم انحنى أيضًا إلى أسفل وكان يكتب على الأرض. وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تُبكّتهم خرجوا واحدًا فواحدًا مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين. وبقي يسوع وحدَه والمرأةُ واقفةٌ في الوسط. فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحدًا سوى المرأة قال لـــها: يا امرأةُ، أين هم أولئك المشتكون

عليكِ؟ أما دانَكِ أحد؟ فقالت: لا أَحَدَ يا سيّدُ. فقال لها يسوع: ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضًا." (يوحنا ٨: ٣-١١)

فترى أن الكتبة والفريسيين يقولون إن شريعة موسى تأمر برجم مثل هذه المرأة، ولكن المسيح يقول لهم: يجب أن يرجمها أولاً من ليس لـــه خطيئة. فلما فر الجميع من هناك قال المسيح لها: أنا الآخر لا أدينك. وهذا يعني أنه يعلن هنا أنه هو الآخر ليس مبرأً من الإثم. فثبت أن المسيح اعترف بكونه غير مبرء من الإثم، وبتعبير آخر، بكونه عبدًا من عباد الله تعالى.

الأمر الثاني: والأمر الثاني الذي عزاه القرآن الكريم هنا إلى المسيح عليه السلام أنه قال لقومه إن الله تعالى قد ﴿آتانيَ الكتابَ﴾. ونقرأ في الإنجيل قول المسيح: "لستُ أفعل شيئًا من نفسي، بل أتكلم بهذا كما علّمني أبي" (يوحنا ٨: ٢٨).

فثبت بذلك أن المسيح عليه السلام لم يعرض على الناس أي تعليم من عند نفسه، بل كل ما عرضه عليهم كان مما علمّه الله تعالى، حيث يقول إنني لا أقول شيئًا من عندي، بل أقول لكم ما علمني أبي؛ إذ لا يحق لي أن أقول من عند نفسي شيئًا.

ويقول المسيح عليه السلام أيضًا: "لا تظنوا أني جئتُ لأنقُض الناموسَ أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقُض بل لأكمِّل. فإني الحقَّ أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكلُّ" (متى ٥: ١٧-١٨).

هذه الفقرة تكشف جليًّا أن المسيح عليه السلام قد بُعث إلى اليهود لترويج التوراة بينهم. فثبت أن ما عزاه القرآن إلى المسيح بأنه قال إن الله تعالى ﴿آتاني الكتابَ﴾ صدق وحق تمامًا. لقد قال عليه السلام ﴿آتاني الكتابَ﴾ لأنه كان مأمورًا بالعمل بكتاب نبي سابق ودعوة الآخرين إلى العمل به، وأيضًا لأنه كان يتعلم التفسير الصحيح لذلك الكتاب السابق من خلال وحي الله تعالى. هذان الأمران كلاهما ثابتان من الإنجيل، فقد أعلن المسيح عليه السلام أنه لم يأت إلا لترويج التوراة ودعوة الناس إلى العمل بها، كما أكد أنه لا يعرض على الناس شيئًا من عنده، وإنما يقول لهم ما يعلّمه الله تعالى.

الأمر الثالث: ثم يعلن القرآن الكريم أن المسيح عليه السلام قال ﴿وجعَلني نبيًّا﴾.. أي أنه أخبر الناس أنه نبي من عند الله تعالى. وهذا أيضًا ثابت من الإنجيل حيث ورد فيه قول المسيح: "والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآبُ وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه" (يوحنا ٨: ٢٩).

هذه الكلمات ليست إلا تفسيرًا لما ورد في القرآن ﴿وجعلني نبيًّا﴾، لأن النبي هو من يرسله الله تعالى لهداية الناس.

ثم ورد في الإنجيل أن الفريسيين لما قالوا للمسيح: "لنا أب واحد هو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبّونني لأني خرجتُ من قِبل الله وأتيتُ، لأني لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني." (يوحنا ٨: ٤١-٤٢).

إن قوله عليه السلام "ذاك أرسلني" لبرهان ساطع على نبوته ورسالته. إذًا فقد ثبت من هذه الفقرة أيضًا أن ليس في تسمية المسيح عليه السلام نفسَه "ابن الله" أي دليل على ألوهيته، لأن اليهود أيضًا كانوا يسمّون أنفسهم أبناء الله تعالى حيث يقول الفريسيون هنا: "لنا أب واحد هو الله." فلم يكن للمسيح أي خصوصية في كونه ابن الله، إذ كان هذا التعبير شائعًا بكثرة بين اليهود حتى سموا أنفسهم أبناء الله تعالى. ولا غرابة في شيوع مثل هذه التعابير بينهم، لأن الذين في قلوبهم حب صادق لله تعالى، والذين لا يتهافتون على المتع المادية، بل يرغبون في الوصال بالله تعالى رغبة صادقة، فإنهم يرون الله تعالى على صورة الأم والأب عند استيلاء مشاعر الحب الإلهي عليهم؛ بل إن الله تعالى نفسه يتجلى أحيانًا لعباده المصطفين الأخيار في رؤاهم وكشوفهم على صورة الأم أو الأب. لقد كتب سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أني رأيت الله تعالى على صورة أبي (جريدة "الحَكَم" عدد ١٠/٥/١٩٠٢ ص ٧). وأنا أيضًا قد رأيت الله تعالى ذات مرة على صورة أمي - رضي الله تعالى عنها. فعباد الله الذين يخلصون حبهم لله تعالى يرون ربهم كالأب والأم عند فورة مشاعر الحب الإلهي. كما أن الله تعالى حينما يبدي لهم حبه من خلال الكشوف والرؤى فإنما يتجلى عليهم عادةً على صورة الأب والأم. أما السؤال: متى يتجلى

في صورة الأب ومتى يظهر في صورة الأم فهو سر دقيق من الأسرار الروحانية. إن كل واحد من الأبوين يُعَدّ رمزًا للحب، غير أن هناك فرقًا بين حبهما، فحب الأُمّ له لون، ولحب الأب لون آخر، كما أن مسئوليات الأم مختلفة عن واجبات الأب. فإذا أراد الله تعالى أن يلفت نظر الإنسان إلى حب كحب الأم ومسؤوليات كمسؤولياتها فإنه يتجلى عليه على شكل أمه؛ وإذا أراد ﷻ لفت أنظار الإنسان إلى محبة كمحبة الأب وواجباتٍ كواجباته فإنه يظهر عليه على شكل أبيه. ولما كان الأتباع والمؤمنون يسمعون من أنبيائهم أن الله تعالى يحبهم كحب الأمهات والآباء، فيستخدم هؤلاء أي الأتباع أيضًا مثل هذه الكلمات تقليدًا بأنبيائهم. وهذا ما حدث باليهود أيضًا. فلما بُعث فيهم الأنبياء، وأكثروا أمامهم من ذكر حب الله لهم ولطفه بهم، وقالوا إن الله تعالى يحبنا كحبّ الأم لابنها أو كحبّ الأب لابنه، جعل اليهود أيضًا يسمون الله أبًا لهم. وقد استخدم المسيح عليه السلام أيضًا التعبير نفسه، فقال إن الله أبي.

وثمة أمر آخر نستنتجه من هذه الفقرة. يقول المسيح عليه السلام هنا: " لو كان الله أباكم لكنتم تحبّونني لأني خرجتُ من قِبل الله وأتيتُ." وهذا يعني أن من مقتضى الحب أن يحب المرء كل من هو محبوب للحبيب بغض النظر عن المراتب.. أي على المرء أن لا يقول إن فلانًا أقل مني شأنًا فكيف أبدي نحوه الاحترام والتقدير. كلا، إنما عليه أن يقول: ما دام حبيبي يحب فلانًا فمن واجبي أن أحب حبيبَ حبيبي، وإن كان أقل مني شأنًا. يحكى عن حضرة الشاه ولي الله – رحمه الله – أن الملك جاء لزيارته ذات مرة، فقام ترحيبًا به ثم جلس. ثم جاء وزيره لزيارة حضرة الشاه، فلم يقم له الشاه بل ظل جالسًا. ثم جاء حارس من حراس الملك، فقام حضرة الشاه لاستقباله، ثم جلس. فلما خرج هؤلاء الزوار من عنده قيل له: لما جاءك الملك قمت لاستقباله، وعندما جاءك الوزير لم تقم له، ولكن حين جاءك الحارس قمت له؟ فقال: لقد قمت للملك لأنني مأمور بطاعته، ولم أقم للوزير لأني غير مأمور بطاعته. وأما الحارس فقمت له لأنه حافظ للقرآن الكريم.

فترى أن الحارس كان حافظًا لكلام الله تعالى الذي هو حبيب حضرة الشاه، فقام لاستقباله رغم كونه أدنى درجة من الوزير من المنظور الدنيوي. وهذا ما يوضحه المسيح عليه السلام هنا ويقول: لو كنتم ترون الله أبًا لكم لأحببتموني أيضًا، ولم تعارضوني.

ونظرًا إلى هذه الحقيقة نفسها قد قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام في بيت شعر لـــه بالفارسية:

"خاكـم نثارِ كوچهء آلِ محمد است" (مجموعة اشتهارات مجلد ١ ص ٩٧)

أي ليتني كنتُ ترابًا في ديار آلِ محمد ﷺ. فمن جهة كان حضرته عليه السلام يعلن أنه أعظم درجة من سيدنا الإمام الحسين رضي الله عنه، حيث كان يقول للمعارضين اسألوا علماءكم هل المسيح الذي تنتظرونه من السماء يكون أعظم شأنًا من الإمام الحسين رضي الله عنه أم لا؟ ومن جهة أخرى، كان عليه السلام يتمنى أن تصبح نفسه فدى للإمام الحسين رضي الله عنه ولأولاده وأحفاده أجمعين، وكان يقول من الواجب علينا أن نكنّ غاية الاحترام والتبجيل لكل هؤلاء لأنهم أولاد نبينا محمد رسول الله ﷺ.

فثبت أن المرتبة والدرجة شيء، أما الحب فشيء مختلف تمامًا. ومن أجل ذلك قال المسيح عليه السلام لليهود لو كنتم تحبّون الله تعالى حقًّا ولو كنتم أبناءه لأحببتموني حتمًا. فعدم حبكم لي دليل واضح على أنكم لستم أبناءه ﷻ. ذلك "لأني خرجتُ من قِبل الله وأتيتُ".. أي أن كل ما يأتي من الحبيب حبيب، ولكنكم لا تكنّون لي الحب، فثبت أنكم لا تحبّون حبيبكم حقًّا.

ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ كان واقفًا، فجاء السحاب وأمطر. فلما أخذت قطرات الغيث في النـــزول أخرج النبي ﷺ لسانه الشريف وتلقى به القطرات. ثم فكّر أن الناس حوله ربما يظنون أنه قد أتى عملاً لا يليق بمكانته، فقال: هذه نعمة جديدة من ربي.*

* ورد في الحديث: "قال أنس: أصابنا، ونحن مع رسول الله ﷺ، مطرٌ. قال: فحسَر رســـول الله ﷺ ثوبَه حتى أصابه من المطر. فقلنا يا رسول الله: لِمَ صنعتَ هذا؟ قال: لأنه حديثُ عهدٍ بربـــه ﷻ" (مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء). *(المترجم)*

ولقد أشار المسيح عليه السلام إلى المعنى نفسه وقال: "لأني خرجتُ من قِبل الله وأتيتُ".. أي أنني نعمة جديدة من الله تعالى، فلِمَ لا تقدرونني إن كنتم تحبّون الله تعالى حقًّا.

ثم قال المسيح عليه السلام: "لأني لم آتِ من نفسي، بل ذاك أرسلني." وهذا دليل بيّن على أن المسيح لما قال إني ابن الله فإنما قاله بمعنى أنه مرسل من عند الله تعالى.

هذا، وقد ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام ذهب ذات مرة إلى بعض البِيَع في الناصرة يوم السبت، فدُفع إليه سِفْرُ إشعيا النبي ليلقي منه الوعظ. فأخذ الكتاب وأخرج منه الموضع الذي ورد فيه: "روحُ الربِّ عليَّ لأنه مسَحني لأبشّر المساكين. أرسَلني لأشفيَ المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعُمْي بالبصر، وأُرسِلَ المنسحقين في الحرّية، وأَكْرِزَ بسَنَة الربِّ المقبولة" (لوقا ٤: ١٦-١٩).

ثم ألقى المسيح عليه السلام الوعظ على ضوء هذه الفقرة. فلما انتهى من الوعظ "جميعُ الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصةً إليه. فابتدأ يقول لهم: إنه اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم" (المرجع السابق: ٢٠-٢١). أي أن هذه النبوءة لإشعياء النبي قد تحققت اليوم.

أما النبوءة التي قد أشار إليها المسيح عليه السلام هنا فقد قال فيها إشعياء النبي: "روحُ السيّد الربِّ عليَّ، لأن الربَّ مسَحني، لأبشّر المساكينَ. أرسَلني لأعصبَ منكسري القلب، لأنادي للمَسْبيِّين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق. لأنادي بسَنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا. لأعزّيَ كلَّ النائحين، لأجعَلَ لنائحي صِهْيَون، لأعطيهم جمالاً عوضًا عن الرماد، ودُهْنَ فرحٍ عوضًا عن النَّوح، ورداءَ تسبيح عوضًا عن الروح اليائسة، فيُدعَون أشجارَ البِرِّ غَرْسَ الربِّ للتمجيد" (إشعياء ٦١: ١-٣).

فيرى المسيحيون أن نبوءة إشعياء النبي هذه تنطبق على المسيح عليه السلام. فإذا صحّ ذلك فقد ثبت أن الموعود في هذه النبوءة ليس بإله بل إنسان، كما تدل على ذلك كلمة "أرسلني" التي ترادف ما ذكره القرآن على لسان المسيح ﴿وجعَلني نبيًّا﴾.

وجدير بالذكر هنا أن كلمات نبوءة إشعياء هذه تشبه تمامًا الكلمات الواردة في نبوءة "المصلح الموعود".*

---

* يشير حضرة المفسر ﷺ هنا إلى نبوءة لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام، أخبر فيها بأن الله تعالى قد أنبأه بأنه سيهَب لـــه ابنًا عظيمًا سيكون مصلحًا كبيرًا، وقد اشتهرت هذه النبوءة في جماعتنا باسم "نبوءة المصلح الموعود"؛ وقد تحققت في شخص المفسر نفسه ﷺ. وفيما يلي نصها العربي كما ذكرها سيدنا المسيح الموعود عليه السلام:

"ان الله بشّرني وقال: "سمعتُ تضرعاتك ودعواتك، وإني معطيك ما سألتَ مني وأنت من المنعَمين. وما أدراك ما أعطيك؟ آية رحمةٍ وفضلٍ وقربةٍ وفتحٍ وظَفَرٍ. فسلام عليك أنت من المظفَّرين. إنا نبشرك **بغلام** اسمه **عنموايل*** **وبشير**. أنيق الشكل دقيق العقل ومن المقربين. يأتي من السماء، والفضل ينـــزل بنـــزولـــه. وهو نور ومبارك وطيب ومن المطهرين. يُفشي البركات، ويغذّي الخَلق من الطيبات، وينصر الدين. ويسمو ويعرج ويرقى، ويعالج كلَّ عليل ومَرضَى، وكان بأنفاسه من الشافين. وإنه آية من آياتي، وعَلَمٌ لتأييداتي، ليعلم الذين كذبوا أني معك بفضلي المبين، وليجيء الحق بمجيئه، ويزهق الباطل بظهوره، وليتجلى قدرتي ويظهر عظمتي، ويعلو الدين ويلمع البراهين، ولينجو طلاب الحياة من أكفّ موت الإيمان والنور، وليُبعَث أصحاب القبور من القبور، وليَعلَم الذين كفروا بالله ورسوله وكتابه أنهم كانوا على خطأ ولتستبينَ سبيل المجرمين. فسيُعطَى لك غلام ذكيٌّ من صلبك وذريتك ونسلك، ويكون من عبادنا الوجيهين. ضيف جميل يأتيك من لدنّا. نقيٌّ من كلّ دَرَنٍ وشَينٍ وشَنارٍ وشرارةٍ، وعيبٍ وعارٍ وعرارةٍ، ومن الطيبين. وهو كلمة الله. خُلِقَ من كلمات تمجيدية. وهو فهيمٌ وذهين وحَسين. قد مُلِئَ قلبُه علمًا، وباطنُه حلمًا، وصدره سلمًا، وأُعطِيَ لـــه نفَسٌ مسيحي، وبورك بالروح الأمين. يوم الاثنـــين. فواهًا لك يا يوم الاثنين، يأتي فيك أرواح المباركين. ولدٌ صالح كريم ذكيّ مبارك. مَظهَرُ الأوّلِ والآخرِ. مظهرُ الحق والعَلاء، كأن الله نـــزل من السماء. يظهَر بظهوره جلالُ رب العالمين. يأتيك نورٌ ممسوح بعطر الرحمن، القائم تحت ظلّ الله المنّان. يفُكّ رقابَ الأسارى وينجي المسجونين. يُعظَّمُ شأنه، ويُرفَع اسمُه وبرهانه، ويُنشَر ذكره وريحانه إلى أقصى الأرضين. إمام هُمَامٌ، يبارَك منه أقوام، ويأتي معه شفاء ولا يبقى سَقام، وينتفع به أنام. ينمو سريعًا سريعًا كأنه عـــردام، ثم يُرفَع إلى نقطته النفسية التي هي لـــه مقام. وكان أمرًا مقضيًّا، قدّره قادر علام. فتباركَ الله خيرُ المقدّرين." ** (التبليغ ص ١٤١-١٤٣)

** لقد ورد هذا اللفظ في كتاب آخر لسيدنا أحمد عليه السلام بقراءة "عِمّانَوئِيل"، ويبدو أنه الأصح. انظُرْ "أنجام آتهم"، الخزائن الروحانية ج ١١ص ٦٢. (المترجم)*

** قد أخبر رسول الله ﷺ أن المسيح الموعود يتزوّج ويولد لـــه. ففي هذا إشارة إلى أن الله يعطيه ولدًا صالحًا يشابه أباه ولا يأباه، ويكون من عباد الله المكرمين. والسرّ في ذلك أن الله لا يبشر الأنبياء والأولياء بذرّيّةٍ إلا إذا قدر توليد الصالحين. وهذه هي البشارة التي قد بُشّرت بها من سنين ومن قبل هذه الدعوى،

ثم ورد في إنجيل متى: "ولما دخل أورشليمَ ارتجّت المدينة كلُّها قائلةً: مَن هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليلِ" (متى ٢١: ١٠-١١).

وهذا ما أكده القرآن الكريم إذ أخبر أن المسيح عليه السلام قال للناس إن الله تعالى ﴿جعَلني نبيًّا﴾.

ويقول يوحنا في إنجيله إن المسيح عليه السلام ذهب ذات يوم إلى الهيكل وأخذ يعلّم القومَ، فتعجب اليهود وقالوا: كيف صار عالمًا بدون أن يتعلم. فقال المسيح لهم: "تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني" (يوحنا ٧: ١٤-١٦).

فهنا أيضًا قد أعلن المسيح عليه السلام أنه رسول من الله تعالى. ذلك أن كمال الله تعالى كمال ذاتي، ولو كان المسيح إلهًا أو ابن الإله فكان لزامًا أن يتصف بهذه المعارف ككمال ذاتي؛ ولكنه يقر هنا بأنه ليس فيه أي كمال ذاتي، بل إن الله تعالى هو الذي بعثه، وليس هذا التعليم إلا من عنده تعالى.

لقد قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أيضًا بهذا المعنى في بيت شعر لـه:

دِگر اُستاد را نامے ندانم که خواندم در دبستانِ محمد

(استفتاء (بالأردو) ص ١٢٣)

أي أنا لا أعرف اسم أي أستاذ آخر، فإني قد تعلمت في مدرسة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أي ليست معارفي إلا من معارف القرآن الكريم. لا شك أنه عليه السلام قد ذكر هنا اسم الرسول صلى الله عليه وسلم من باب الأدب والاحترام، ولكنه في الحقيقة يشير إلى تعليم القرآن الكريم الذي هو تنـزيل من رب العالمين. فشعره هذا يماثل في المعنى قول المسيح الناصري عليهما السلام إن "تعليمي ليس لي، بل للذي أرسلني".

ثم يضيف المسيح عليه السلام ويقول: "إن شاء أحد أن يعمل مشيئتَه يعرف التعليم: هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي" (يوحنا ٧: ١٧).. أي أن الباحثين عن الحق بصدق لو فحصوا الأمر لعلموا أن هذا التعليم ليس مني، بل هو من ربي.

ليُعرفني الله بهذا العلم في أعين الذين يستشرفون وكانوا للمسيح كالمجلوذين. *(انتهى كلام سيدنا المسيح الموعود عليه السلام- المترجم)*

لقد أعلن المسيح عليه السلام من قبل أن الله تعالى هو الذي بعثه، أما هنا فيصر على دعواه ويقول إن هذا التعليم ليس من اختراعي، وإنما تلقيته من عند الله تعالى.

ثم يركّز المسيح عليه السلام على هذا الأمر أكثر فيقول: "من يتكلم من نفسه يطلب مجدَ نفسه، أما من يطلب مَجْدَ الذي أرسلَه فهو صادق وليس فيه ظلمٌ" (المرجع السابق: ١٨).

وهنا أيضًا يركّز المسيح عليه السلام مرة أخرى على كونه رسولاً، ويقول إن الذي يزعم أنه ينشر العلوم من عنده لكاذبٌ، أما الذي يقول إني أنشر هذا العلم بعد أن أتلقاه من الله تعالى فصادق. وكأن المسيح عليه السلام يكذّب هنا المسيحيين الذين يزعمون أن المسيح إله وأنه قد تكلم بناء على علمه الذاتي، ويصدّق المسلمين الذين يعتقدون أنه كان عبدًا لله تعالى.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "وإن كنتُ أنا أدين فدَينُونتي حق، لأني لست وحدي، بل أنا والآبُ الذي أرسلَني" (يوحنا ٨: ١٦). فهو عليه السلام قد أصر هنا أيضًا على كونه مرسلاً من الله تعالى، وبتعبير آخر، قد صدّق المسيح عليه السلام هنا ما عزاه إليه القرآن وقال ﴿وجعلني نبيًّا﴾.

ويضيف المسيح عليه السلام ويقول: "وأيضًا في ناموسكم (التثنية ١٧: ٧، و١٩: ١٦) مكتوب أن شهادة رجُلَين حق. أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي الآبُ الذي أرسلني" (يوحنا ٨: ١٧-١٨).

فالمسيح عليه السلام يقدم هنا شهادتين على صدقه: الأولى أنه هو نفسه يقول إنه صادق، والثانية أن الله تعالى أيضًا يشهد على صدقه عليه السلام. ثم يقول لليهود ما دامت شريعتكم تعلن أن شهادة شاهدَين تُعتبر صادقة، فلم لا تعدّونني صادقًا مع أن اثنينِ يشهدان على صدقي.

والحق أن قول المسيح عليه السلام "أنا هو الشاهد لنفسي" هو نفس الدليل الذي قد ذكره القرآن الكريم في قول الله تعالى ﴿فقد لبثتُ فيكم عمرًا مِن قَبله أفلا تعقلون﴾(يونس: ١٧). ذلك لأن بعض الشاهدين لا يكون صادقًا، وهناك آلاف الأمثلة على ذلك. فليس المراد من قول المسيح هذا أنه ما دام يقول إنه صادق فهو

صادق حتمًا، بل إنه قد قدم هنا حياته الطاهرة السابقة لدعواه كدليل على صدقه، فقال إن حياتي السابقة الطاهرة هي الشهادة الأولى على صدقي، أما الشهادة الثانية فهي الآيات التي قد أظهرها الله تعالى تأييدًا لي. والواقع أن هذه هي خلاصة حياة الأنبياء، ولا قيمة لما سواها من الخصومات والنـــزاعات. ولقد قدّمتُ الدليل نفسه في كتابي "دعوة الأمير"، وقلت إن هذا الدليل يماثل قولهم بالفارسية: "آفتاب آمد دليلِ آفتاب".

أي لو سألك أحد: ما الدليل على طلوع الشمس، فلن تقول لـــه إلا إن الشمس نفسها دليل على وجودها. وبالمثل، لو كان ثمة إنسان تكون حياته كلها كصفحة مفتوحة للجميع، فيعرف الأصدقاء والأغيار أنه لا يكذب أبدًا، بل يصدق القـــول حتى في أشد المواقف خطورة، ثم ادعى هذا بأن الله تعالى قد أوحى إليه بكذا وكذا، فلن يرفض ادعاءه هذا ولن يكذّبه إلا الأحمق الغبي. بيد أنه لا بد لمثل هذه الشهادة أن تكون سيرة هذا الإنسان وأعماله وأخلاقه ككتاب مفتوح للجميع فعلاً. أما الذي لا يعرف الناس أحوال حياته فلا يمكنه أن يعلن بأن حياتي السابقة لشهادة قاطعة على صدق ما أقول.

أتذكر جيدًا أنه كان في جماعتنا في زمن الخليفة الأول ﵁ شخص حكيم مخلص، فانضم فيما بعد إلى غير المبايعين، ثم منَّ الله عليه، فعاد ودخل في جماعة المبايعين ثانية. وذات مرة قال هذا الشخص لأحد وهو يخاصمه: إن شخصي نفسه لبرهان على صدق ما أقول؟ وكنتُ إذاك صبيًّا، ومع ذلك ضحكتُ من قوله، وقلت في نفسي: كيف يمكن أن يكون شخصه دليلاً للناس على صدقه وأحوالُ حياته غير معروفة لهم.

إذن فلا يمكن لأحد أن يستشهد بهذا الدليل على صدقه إلا من تكون حياته السابقة كتابًا مفتوحًا للناس، وقد فحَصوا ونقّبوا عن كل صغيرة وكبيرة في حياته. أما حياة الإنسان العادي فتكون في خفاء، فأنَّى له أن يقدمها دليلاً على صدقه.

هذا، وثمة أدلة أخرى على صدق الأنبياء يخطئ بعض الناس بصددها أيضًا، فيقدّمونها أحيانًا على صدقهم مع أنها لا تنطبق عليهم إطلاقًا بالنظر إلى السياق. فمثلاً كان هناك أخ في جماعتنا، وقد توفي الآن (في ١٩٥٦)، وكان اسمه السيد سيد أحمد نور الكابلي، وكان يدعي النبوة أيضًا. فقابله أحد من جماعتنا، وعندما رجع قال لي: إنني أعرف الرد على كل ما يقوله الكابلي إلا دليلاً واحدًا. لقد قال لي: إنكم تقولون إني مجنون، مع أن القرآن الكريم يخبرنا أنه ما مِن نبي ورسول إلا وقد اتُّهم بالجنون؛ فاتهامكم إياي بالجنون دليل على صدقي، لا على كذبي!

فقلت لهذا الأخ: كان الجواب سهلاً جدًّا. كان عليك أن تجيبه أن الناس يتهمون الأنبياء بالجنون بسبب نبوتهم وبعد أن يعلنوا هذه الدعوى، أما أنت يا أخانا فكنا نشدّ وثاقك بالأحبال حتى قبل ادعائك بالنبوة. فشتّان بين أن يدعي مجنون أنه نبي، وبين أن يتهم الناس نبيًّا من الأنبياء بالجنون. فلو كان هذا الأخ سليم العقل قبل دعواه بالنبوة واتهمه الناس بعد ذلك لكان في قوله بعض الوزن والثقل، ولكن الواقع أن الناس قد صفّدوه مرارًا بالحبال بسبب جنونه قبل ادعائه.

فمن الأدلة على صدق النبي أن حياته قبل الدعوى تبلغ من الطهر والورع بحيث إن الناس يجدونها مبرَّأة من العيوب والنقائص رغم أنه قد ذاق من الحياة حلوَها ومرَّها. إن الناس حوله يختبرونه في كل صغيرة وكبيرة، وتأتي عليه الشدائد بحيث لا يبقى له منجى ولا مَخلص منها إلا بالكذب، ومع ذلك لا يكذب، فيدرك الناس أنه إنسان صالح صادق. ولكن حياة عامة الناس لا تكون مكشوفة جليّة للجميع. فعشرات منهم يكونون سارقين، ولكن الناس لا يعرفون ذلك. وعشرات منهم يكونون كاذبين، ولكن أحوالهم لا تنكشف على القوم، فيبقى كذبهم أمرًا مستورًا. فثبت أن الأنبياء وحدهم الذين يحق لهم أن يستشهدوا بهذه الآية على صدقهم. إن النبي وحده الذي يمكنه أن يتحدى القوم بقوله: لقد رأيتم حياتي وأحوالي، لقد جربتم أخلاقي وعاداتي، ورأيتم أني لا أكذب أبدًا؛ فما دمت لم أكذب على الناس قط، فكيف يمكن أن أفتري على الله تعالى؟

وهذا الدليل نفسه يقدمه المسيح عليه السلام هنا ويقول: "وأيضًا في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجُلَين حق. أنا هو الشاهد لنفسي، ويشهد لي الآبُ الذي أرسلني". أما إذا ظننا أن قوله "أنا هو الشاهد لنفسي" يعني أنني ما دمتُ أنا أقول إني صادق، فلا شك في صدقي، لاختلت الموازين وعمّت الفوضى. فمتى يحق لشخص متّهَم بجريمة أن يقول للمحكمة: إني صادق لأني أنا الشاهد لنفسي، والشاهد الثاني هو الله تعالى؟ إنه لو قال ذلك لضحك الجميع عليه. فثبت أن المسيح عليه السلام قد قدم هنا الدليل الذي قد صار مثلاً سائرًا أعني قولهم إن الشمس نفسها دليل على طلوعها. إن المسيح عليه السلام لا يقدم شخصه هنا دليلاً على صدقه، وإنما يتحدى القوم بناء على حياته السابقة لدعواه. غير أن هذا يؤكد في كل حال أنه عليه السلام كان عبد الله ورسوله، ولم يدع الألوهية قط.

ومن الأدلة على أن المسيح عليه السلام ليس بإله ما ورد في الإنجيل كالآتي: "والجموع الذين تَقدَّموا والذين تبِعوا كانوا يصرخون قائلين: أُوصَنَّا لابنِ داودَ. مبارَكٌ الآتي باسم الرب. أُوصَنَّا في الأعالي" (متى ٢١: ٩).

أي كانت هناك نبوءة عن مجيء المسيح، فلما تحققت بمجيء عيسى عليه السلام قال الناس في فرحة وابتهاج: إن الذي بُشِّرنا بمجيئه قد جاء من عند الله تعالى. فترى أن المسيح عليه السلام قد سُمّي هنا ابن داود، أي عُدَّ فردًا من بني إسرائيل، ولم يُسَمَّ إلهًا.

ثم ورد في مكان آخر من الإنجيل: "ولما كان السبت ابتدأ يعلِّم في المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بُهتوا قائلين: من أين لهذا هذه؟ وما هذه الحكمة التي أُعطيتْ لـــه حتى تجري على يديه قوّاتٌ مثل هذه؟ أليس هذا هو النجّار ابن مريم وأخو يعقوب ويُوسي ويهوذا وسِمْعانَ؟ أوَليستْ أخواتُه ههنا عندنا".

(أي أن إخوته وأخواته كلهم متفقون معنا في الدين وليسوا معه، فمن أين لـــه هذه المعارف؟ فأجابهم يسوع وقال:)

"ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته" (مرقس ٦: ٢-٤).

ثم ورد هذا المعنى نفسه في مكان آخر من الإنجيل حيث جاء: "لأن يسوع نفسه شهد أنه ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه" (يوحنا ٤: ٤٤). فترى أن المسيح قد سمى

نفسه هنا نبيًّا بكل صراحة وجلاء، إذ يقول لا يهان النبي إلا في وطنه وبين أقاربه وأهل بيته. وهذا يعني أيضًا أن بعض أقاربه أيضًا كانوا يعارضونه حتمًا.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح: "الآب قد أرسلَني، والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي" (يوحنا ٥: ٣٦-٣٧). فهنا أيضًا قد سمى المسيح عليه السلام نفسه رسولاً من الله تعالى، مرتين وفي مكان واحد.

ويقول الإنجيل أيضًا: "قالت لـــه المرأة: يا سيد، أرى أنك نبي" (يوحنا ٤: ١٩). وهذا يعني أن الناس أنفسهم كانوا يسمونه نبيًّا كما كان نفسه يفعل. ولكن المسيحيين اليوم يسمونه إلهًا.

فقد ثبت من هذه الفقرات الإنجيلية أن السباب والشتائم التي كالها المسيحيون ضد النبي ﷺ بسبب ما ورد هنا في القرآن الكريم إنما كالوها ضد المسيح عليه السلام نفسه الذي ادعى فعلاً بما عزاه إليه القرآن من الدعاوى.

الأمر الرابع: بعد ذلك قال القرآن الكريم هنا على لسان المسيح عليه السلام ﴿وجعَلني مبارَكًا أينما كنتُ﴾. وهذه الألفاظ أيضًا تدل على أن المسيح عليه السلام كان بشرًا. ذلك لأن الله تعالى صاحبُ البركة في حد ذاته، أما الإنسان فإنما ينال البركة من عند الله تعالى. فالله مبارِك، والإنسان مبارَك. إن أحد أبنائي أيضًا يدعى "مبارَك"، وعندما يناديه أحد بالخطأ "مبارِك" أقوم بتصويب خطئه وأقول لـــه: إنه "مبارَك"، وليس مبارِك، لأن الله تعالى هو المبارِك. وهنا يعلن المسيح عليه السلام أن الله تعالى قد جعلني مبارَكًا، فالذي يكون مبارَكًا لا بد أن يكون بشرًا، إذ ليس بوسع أحد أن يهب البركةَ لله تعالى. إن قوى الله وقدراتها كلها ذاتية، إذ لا يكتسب ﷻ أي قوة من غيره. فلو ثبت أن المسيح عليه السلام كان مبارَكًا.. أي كان لا يهب البركة بل كان يسأل البركة من الله ﷻ.. لثبت أيضًا أنه كان بشرًا.

لقد ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "والذي أرسلني هو معي، ولم يتركني الآبُ وحدي (وهذا يعني أن المسيح كان بحاجة إلى المساعدة، وأن الله تعالى قد ساعده)، لأني في كل حين أفعل ما يُرضيه" (يوحنا ٨: ٢٩).

ثم ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام جاءه ذات مرة زوّار كثيرون، ومعه تلاميذه: "فأمَرهم أن يجعلوا الجميعَ يتّكئون رِفاقًا رِفاقًا على العشب الأخضر. فاتَّكأوا صفوفًا صفوفًا مئةً مئةً وخمسين خمسين. فأخَذ الأرغفةَ الخمسةَ والسمكتين، ورفَع نظرَه نحو السماء وبارك*. ثم كسَّر الأرغفةَ، وأعطى تلاميذَه ليقدّموا إليهم. وقسَّم السمكتين للجميع. فأكل الجميعُ وشبِعوا" (مرقس ٦: ٣٩-٤٢)..

أي أن المسيح قد طلب البركة من الله تعالى رافعًا وجهه إلى السماء، فأنزل الله تعالى البركة في الطعام. فترى أن مرقس قد اعترف هنا أن الله تعالى مبارِك وأن المسيح عليه السلام مبارَك.

وقد ورد هذا المعنى نفسه في موضع آخر من الإنجيل حيث جاء: "فأمَر الجَمْعَ أن يتّكئوا على الأرض. وأخَذ السبعَ خبزات، وشكَر، وكسَر، وأعطى تلاميذَه ليقدّموا، فقدّموا إلى الجمع. وكان معهم قليلٌ من صغار السمك، فبارك، وقال أن يقدّموا هذه أيضًا. فأكلوا وشبعوا" (مرقس ٨: ٦-٨).

فترى أن هذه العبارة تقول أن المسيح "شكَر" والواضح أنه قد شكر الله تعالى. ثم ترى هنا مرة أخرى أنه عليه السلام طلب البركة، وأن البركة نزلت من الله تعالى.

إننا لسنا هنا بصدد أن نناقش ماهية هذه المعجزة، وإنما نقصد من عرض هذه الفقرات أن نبرهن على أن الإنجيل نفسه يؤكد أن المسيح عليه السلام قد دعا الله تعالى للبركة فمنحه إياها، تمامًا كما أعلنه القرآن على لسان المسيح عليه السلام ﴿وجعَلني مبارَكًا أينما كنتُ﴾. فثبت أن بيان القرآن الكريم صدق وحق. أما إذا اعتبروا بيان القرآن الكريم غلطًا لصار بيان الإنجيل أيضًا غلطًا ساقطًا عن الاعتبار.

لقد وردت في الحديث أيضًا واقعات مماثلة لهذه. فرُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنّا اشترينا ذات مرة غَلّةً، فما زلنا نأكل منها وهي لا تنفد. ففكّرتُ أخيرًا

* علمًا أنهم قد حرفوا الترجمة العربية هنا فقالوا أن المسيح "بارَك"، ولكن قد ورد في النسخ الأردية والإنجليزية أنه *"دعا للبركة" (المترجم)*.

أن أرى كم بقي منها، فلما قمتُ بكيلها نفدتْ بعد أيام (انظُر الترمذي، أبواب صفة القيامة).

مما لا شك فيه أنه يمكن للمرء المدبر الحكيم أن يجعل الشيء القليل يكفيه، ولكن في بعض الأحيان تحل البركة في الشيء وتستمر بدون أي تدخُّلٍ من البشر. وهذا سرٌّ ليس بوسع الإنسان بيانه. فمثلاً إن عائلتي كبيرة؛ فعندي أربع زوجات، و٢٢ ولدًا وبنتًا، ثم لي أحفاد وحفيدات. وليس عند بعض أولادي أي عمل ولا وظيفة بعد، وبعضهم يعملون ولكنهم يعملون في سبيل الدين، ورواتبهم ضئيلة جدًّا لا تكفي لمعاشهم؛ وأُنفق أنا عليهم دائمًا لسدّ بعض حاجاتهم. وقد رأيتُ أنني كلما جلست للحساب أُصبتُ بالقلق والحزن ظنًّا مني أن لا سبيل لسد هذه النفقات. ولكني لو لم أقم بأي حساب لوجدت المال ولسدَّ الله تعالى حاجاتي كلها. وذات مرة ذهبتُ إلى النهر في رحلة ترفيهية. وكنا قد طبخنا دجاجة وبطّة صغيرتين. وكان هذا الطبيخ كافيًا لنا. ولكنا لما جلسنا بعد أداء صلاة المغرب جاءنا ثلاثون أو أربعون شخصًا من القرى المجاورة. كان اثنان منهم من جماعتنا، والباقون من أقاربهما غير الأحمديين. ولم يخبرني هؤلاء عن الغرض من زيارتهم. وكنت أظن أنهم جاءوا لمجرد الزيارة وسوف يرجعون بعد قليل، ولكنهم جلسوا عندنا حتى حانت صلاة العشاء. فلما سألتهم أخيرًا عن سبب زيارتهم قالوا: نرجوكم أن تعقدوا القِران لبعض أقاربنا. قلت: حسنًا. فألقيت الخطبة وعقدت القِران. ولكنهم ظلوا جالسين بعده أيضًا. وأغلبُ ظني أنهم كانوا ينوون ألا يرجعوا إلا بعد أكل الطعام عندنا. فغلبني البخل أول الأمر وقلت في نفسي سننتظر أكثر لعلهم يرجعون. ولكني لما وجدتُهم لا يبرحون المكان أرسلت إلى زوجتي أم طاهر – رضي الله عنها – وقلت لها: لقد جاءنا الضيوف، وهم أربعون تقريبًا، وأفراد عائلتنا سبعة، إضافة إلى حوالي عشرين شخصًا آخرين ممن يعملون في مكتبي وغيرهم؛ فماذا ستفعلين لطعامهم؟ فأرسلت في الجواب وقالت: إننا في انتظاركم، أما الضيوف فقد تكلمت مع الطباخ، فلا يأخذكم قلق في شأن الضيوف. فدعونا الجميع إلى المائدة، فأكلوا حتى شبعوا. وبعد فراغي من العمل ذهبتُ إلى أهلي

وقلت لأم طاهر –رضي الله عنها – يبدو أنه لم يبق لك أي طعام اليوم؟ قالت: كلا، لقد أكلت، وقد بقي منه شيء.

فلا غرو أن ما حدث كان فيه دخلٌ لتدبير الطباخ أيضًا، ولكن كان فيه بركة وفضل من الله تعالى حتمًا، حيث جلس على هذا الطعام المصنوع من لحم البطّتينِ الصغيرتين حوالي سبعين شخصًا فأكلوا حتى شبعوا.

فكما قلت إن بركة الله تنـــزل بطرق شتى، إلا أنها تنطوي على عنصر الإخفاء والكتمان أيضًا. فإنني، كما بيّنتُ من قبل، كلما أجلس لحساب نفقاتي أصاب بالقلق والخوف، ولكن لو لم أقم بأي حساب لسُدّت الحاجات والنفقات تلقائيًّا من حيث لا أدري. وإن ما حدث مع عيسى عليه السلام في هذه الواقعات كان من هذا القبيل. وكما بيّنتُ، قد وردت في كتب الحديث أحداث مماثلة عديدة حصلت مع رسول الله ﷺ أيضًا.

ثم إن متى أيضًا يذكر هذا الأمر في إنجيله حيث قال: "وفيما هم يأكلون أخَذ يسوعُ الخبزَ، "*ودعا للبركة*"، وكسّر، وأعطى التلاميذَ وقال: خُذوا كُلوا، هذا هو جسدي. وأخَذ الكأسَ وشكَر وأعطاهم قائلا: اشرَبوا منها كلُّكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" (متى ٢٦: ٢٦-٢٨).

فترى هنا أيضًا أن المسيح عليه السلام سأل البركة ثم كسّر الخبز. علمًا أن هذا الحدث هو الأساس لعبادة العشاء الرباني لدى المسيحيين.

ثم ورد في الإنجيل أن السيدة مريم لما حملتْ بالمسيح ذهبت لزيارة أم يحيى التي قالت لمريم: "مبارَكةٌ أنتِ في النساء، ومبارَكة هي ثمرةُ بطنكِ" (انظر لوقا ١: ٤١-٤٢).

هذه الفقرة أيضًا تصديق لما حكاه القرآن على لسان المسيح وقال ﴿وجعلني مبارَكًا﴾.

ثم ورد في الإنجيل: "وفيما هو يتكلم بهذا رفَعت امرأةٌ صوتها من الجمع وقالت لـــه: طوبى* للبطن الذي حمَلك والثديين اللذين رضعتَهما. أما هو فقال: بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه" (لوقا ١١: ٢٧-٢٨).

قصارى القول إنه توجد في الإنجيل شهادات من الله ومن الناس أيضًا تؤكد صحة ما حكاه القرآن على لسان المسيح ﴿وجعَلني مباركًا﴾.

الأمر الخامس: بعد ذلك يقول القرآن الكريم إن المسيح عليه السلام قال ﴿وأوصاني بالصلاة﴾. وهذه الصفة أيضًا تختص بالبشر، إذ ليس هناك من يوصي الله تعالى ويأمره بشيء، كما أنه لا مجال لأن يؤدي الله تعالى الصلاة. ثم إن الإنجيل أيضًا يؤكد أداء المسيح الصلاةَ حيث ورد: "وفيما هو يصلّي على انفراد كان التلاميذ معه، فسألهم قائلا: مَن تقُول الجموعُ أني أنا؟" (لوقا ٩: ١٨).

لقد اتضح من هذه الفقرة جليًّا أن المسيح عليه السلام كان معتادًا على الدعاء، وكان يدعو عادةً من أجل رقيه ونجاح دعوته. ذلك لأن قوله: "مَن تقُول الجموع أني أنا؟" يوضح أنه كان دائم التفكير فيما يظن الناس به، فهل يعتبرونه صادقًا أم كاذبًا؟ فثبت أن المسيح عليه السلام كان يدعو لنجاح دعوته وانتشار جماعته.

ثم ورد في الإنجيل: "وإذْ كان يصلي في موضع لما فرَغ قال واحد من تلاميذه: يا ربُّ، عَلِّمْنا أن نصلي كما علّم يوحنا أيضًا تلاميذَه. قال لهم: متى صلّيتم فقولوا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدسْ اسمُك، ليأت ملكوتُك، لتَكُنْ مشيئتُك كما في السماء كذلك على الأرض. خُبْزَنا كَفافَنا أَعْطِنا كل يوم. واغفـــرْ لنا خطايانا لأننا نحن أيضًا نغفِر لكل مَن يُذنِب إلينا. ولا تُدخِلْنا في تجربة، لكن نجِّنا من الشرير" (لوقا ١١: ١-٤).

لقد اتضح من هذا أيضًا أن المسيح عليه السلام كان معتادًا على الدعاء. وإن جملة "وإذْ كان يصلي في موضع لما فرغ" تدل على أنه كان يدعو في مكان ما في خلوة،

---

* علمًا أن ما ورد في النسخة الأردية فتعريبه: مبارَكٌ البطن الذي حمَلك، ومبارَكان الثديان اللذان رضعتَهما *(المترجم)*

فتأثر أتباعه من بكائه وابتهاله في الدعاء، فسألوه أن يعلّمهم ماذا يقولون في دعائهم. فعلّمهم هذا الدعاء.

إن هذا الدعاء هو بمثابة "سورة الفاتحة" للمسيحيين. ولكن التدبر يكشف أنه شتّانَ بين دعائهم هذا وبين فاتحة القرآن الكريم. فإن سورة الفاتحة تبدأ بقول الله تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.. أي أقوم بهذا الدعاء مستعينًا بالله الذي يعطينا بدون سؤال، ويأتي بأحسن النتائج لأعمالنا.

وهذا يعني أن الله تعالى قد علّمنا دعاء حتى قبل أن نبدأ بدعاء الفاتحة، بمعنى أن الداعي يستثير قبل الدعاء أيضًا تلك الصفات الإلهية التي هي وثيقة الصلة باستجابة الدعاء، لكي يساعده الله تعالى على القيام بدعاء الفاتحة بحسن النية، ويهيئَ لـــه الأسباب التي يترقى بها الإنسان في الدنيا، والتي تقع في قبضة الله وتصرفه وحده، وأن يوفقه في الأخذ بتلك الأسباب بشكل سليم، وأن يرتِّب ﷻ عليها أحسن النتائج وأفضلها التي يستحق بها الإنسان المزيد من الجوائز والصلات من عند الله تعالى.

فيا لـــه مِن دعاء جامع كامل! فإن الداعي، حتى قبل البدء في الدعاء، يسأل الله تعالى أن يعينه على ما يستجاب به دعاؤه ويتحقق مراده، فيتوسل إليه تعالى من خلال رحمانيته ورحيميته بأن يشمله بعونه، ويمدّه بالأسباب، بل يرتِّب عليها أفضل النتائج وأحسنها.

ثم يقول الداعي ﴿الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالكِ يومِ الدين﴾. فيذكر في دعائه أربعًا من صفات الله تعالى. وهذه الصفات الأربع هي الصفات الأساسية الحيوية التي ترتكز عليها صفات الله الأخرى.

بينما يقول المسيح عليه السلام إزاءها: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدسْ اسمُك". وهذا يعني أنه عليه السلام يسمي الله تعالى قدوسًا، مع أن القدوس هي صفة من الصفات التي ترتكز حول هذه الصفات الأربعة المحورية.

ثم إن سورة الفاتحة تذكر في بدايتها لفظ "الله"، وهو اسم ذاتي لذات البارئ تعالى، بينما يذكر المسيح هنا "أبانا"، مع أن كلمة "أبانا" تشير إلى صفة إلهية

واحدة فقط.. أعني أنها إنما تدل على أن الله تعالى متصف بالشفقة والرحمة مثل الأب. والحق أنه ليس الأب وحده الذي يتحلى بالرحمة، بل إن الرحمة توجد في الأم والأخ والمعلّم والملِك، فكل هؤلاء يعاملون الناس بمحبة وإحسان في نطاق مجالاتهم ودرجاتهم. أما القرآن الكريم فقد استخدم لفظ "الله"، وهو اسمُه الذاتي والمستجمعُ لصفاته الحميدة كلها. لا شك أن الأب يكون محبًّا، ولكن لا مقارنة بين حبه وحب الله، لأن الله تعالى يستجمع في ذاته محبة الأب والأم والابن والأخ والمعلم وكبير القرية والملِك وغيرهم، ولكن الأب لا يتحلى بمحبة هؤلاء الآخرين كلهم. إذًا فمن فضائل دعاء القرآن أنه قد ذكر فيه أولاً اسم الله الذاتي المستجمع لجميع كمالاته ومحاسنه ﷻ، ثم بدأ تقسيم هذه الصفات وقال: رب العالمين، الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين. ولكن الإنجيل اكتفى بقوله "أبانا الذي في السماوات، ليتقدسْ اسمُك". مع أن التقديس يمكن أن يكون حقيقيًا وغير حقيقي أيضًا. فالبعض يقدسون الأصنام مع أنها غير مقدسة.

ثم إن الإنجيل لم يقل إنك قدّوس، بل قال "ليتقدس اسمك".. أي ليقدّسك الناسُ، مع أن هؤلاء المقدِّسين قد يكونون صادقين أو كاذبين في تقديسهم.

ثم ورد في الدعاء الإنجيلي: "ليأتِ ملكوتُك"، بينما يعلن القرآن ﴿مالك يوم الدين﴾.. أي أن القرآن لا ينتظر ملكوت الله على الأرض، بل يعلن أن ملكوته محيط بالكون كله.

ثم إن الإنجيل قد اكتفى بقوله "ليأتِ ملكوتُك"، ولكن القرآن الكريم يخبر أن مجرد المُلك ليس بشيء، لأنه يأتي ويزول، ولكن مُلك الله تعالى لا يزال يتسع ويمتد إلى النهاية.. أي لا زوال لـــه إلى الأبد، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿مالِكِ يومِ الدِّين﴾.

ثم يقول الإنجيل: "لِتَكُنْ مشيئتُك كما في السماء كذلك على الأرض." وهذه الكلمات تتنافى تمامًا مع عظمة الله وتسيء إليه ﷻ إساءة كبيرة. ذلك لأنه تعالى هو الذي يحقق حاجات الآخرين، بينما يقول دعاء الإنجيل لِتَكُنْ مشيئتُك كما في

السماء كذلك على الأرض". فمثل دعاء الإنجيل كمثل دعاء الفقراء الذين إذا أعطاهم أحد شيئًا دعوا لـــه قائلين: حقق الله أمانيك.

وقد ذكر القرآن الكريم بعد ذلك كلمة لم يذكرها الإنجيل بتاتًا. فبعد ذكر صفات الله تعالى علّم القرآنُ الداعيَ أن يقول لله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.. أي أن يعترف الداعي بقدرات الله تعالى ويقرّ بعبوديته لـــه ﷻ. وكما قلت، لا أثر لمثل هذا الدعاء في الإنجيل.

ثم يعلّمنا القرآن الكريم ﴿اهدِنا الصراطَ المستقيم صراطَ الذين أنعمتَ عليهم﴾.. أي على الإنسان أن يقول يا رب إن عليّ القيام بأعمال الدنيا والدين، وإن عليَّ واجبات أرضية وفرائض سماوية كذلك. فمثلاً إذا كان أبًا فعليه واجبات الأب، وإذا كانت أمًّا فعليها مسؤوليات الأُمّ، وإذا كان في الجيش فعليه واجبات الجندي، وإذا كان قائدًا فعليه واجبات القيادة، وإذا كان ملكًا فعليه واجبات المُلك، وإذا كان فيلسوفًا فعليه واجبات فلسفية، وإذا كان صانعًا فعليه مسؤوليات صناعية. فواجبات المرء تتعدد بتعدد الأعمال، لذلك يقول الداعي يا رب، أَرِني في كل عمل من أعمالي أقرب طريق إلى النجاح والفلاح. ولكن الإنجيل يقول إن المسيح عليه السلام علّم دعاء " خُبْزَنا كَفافَنا أَعْطِنا كل يوم." وكأنه يعلّمهم أن يطلبوا خبز كل يوم مثلما تفعل بعض الحيوانات كالقط أو الغراب وغيرهما حيث تقترب من المرء وهو يأكل الطعام، فيرمي إليه قطعة من طعامه.

ثم ورد في الدعاء الإنجيلي: "واغفِـــرْ لنا خطايانا لأننا نحن أيضًا نغفِر لكل مَن يُذنب إلينا."

أما القرآن الكريم فعلّمنا في الفاتحة دعاء ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. وهكذا أخبرنا أن الإثم نوعان: إيجابي وسلبي.. بمعنى أن بعض الذنوب تتعلق بالنواهي.. أي أنها تتولد بارتكاب ما نهى الله عنه، وبعضها تتعلق بالأوامر.. أي أنها تنشأ بترك ما أمر الله تعالى به. ودعاء الإنجيل يخص الذنوب الإيجابية فقط، دون الذنوب السلبية.. بمعنى أنه يعلّم المرء أن يستغفر ربّه بصدد الذنوب التي وقع فيها، ولكنه لا يعلّمه أن يسأل الله تعالى أي يحفظه من التقاعس عن القيام بما أمر الله به

من الصالحات. ولكن القرآن الكريم قد ذكر المعاصي الإيجابية في كلمة ﴿غير المغضوب عليهم﴾، وكذلك الآثامَ السلبية في كلمة ﴿ولا الضالين﴾.. أي ربَّنا احفَظْنا من مغبّة السيئات التي ارتكبناها، وأيضًا احمنا من أن نتقاعس عن القيام بما أمرتنا به من خير، فننحرف عن جادّة الصواب.

وأخيرًا يقول الدعاء الإنجيلي: "ولا تُدخِلْنا في تجربة، لكن نَجِّنا من الشرير." والواقع أن هذه الجملة نتيجة للجملة السابقة، وليس فيها أي معنى زائد. ولكن القرآن الكريم لا يرى أي حاجة إلى دعاء كهذا، لأن الله تعالى لو دلّنا على صراط المنعَم عليهم استجابةً لدعائنا ﴿اهدِنا الصراط المستقيم﴾ فلن نقع بفضله في التجربة أبدًا.

على كل حال، فإن هذه الفقرة الإنجيلية تؤكد أن المسيح عليه السلام كان يدعو الله تعالى ويصلي له، كما تدل على البون الشاسع بين دعاء القرآن ودعاء الإنجيل.

ثم ورد في موضع آخر من الإنجيل عن المسيح عليه السلام: "وأما هو فكان يعتزل في البراري ويصلي" (لوقا ٥: ١٦).

فما أعظمَه وأوضحَه من برهان على صدق ما قاله القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام ﴿وأوصاني بالصلاة﴾. ذلك لأن "أوصاه بكذا" يعني عهِد إليه (الأقرب) أي أمره بالقيام به دائمًا. علمًا أن الأمر هو الطلب بفعل شيء فحسب، أما الوصية فمدلولها أكثر من ذلك حيث تعني الإلزام بالقيام بشيء على الدوام. فالمراد من قول المسيح عليه السلام ﴿وأوصاني بالصلاة﴾ أنه تعالى قد ألزم عليّ كواجب دائم أن أدعوه وأبتهل إليه على الدوام. والعبارات التي أوردها هنا من الإنجيل توضح أن المسيح عليه السلام كان كثير الدعاء دائمًا.

ثم يذكر الإنجيل دعاء المسيح عليه السلام في مكان آخر حيث قال لرجل: "ولكني طلبتُ * من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (لوقا ٢٢: ٣٢).

* علمًا أن ما ورد في النسخة الأردية هو "دعوتُ مِن أجلك"، عوضًا عن "طلبتُ من أجلك". *(المترجم)*

كما ورد عن المسيح عليه السلام في الإنجيل: "وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على رُكبتيه وصلّى" (لوقا ٢٢: ٤١).. أي ذهب المسيح عليه السلام بعيدًا عن القوم مئة وخمسين قدمًا تقريبًا، ثم صلى جالسًا كما نجلس نحن المسلمين في القعدة الأخيرة في الصلاة.

ثم ورد في المكان نفسه بعد بضع جمل: "وإذْ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقُه كقطرات دمٍ نازلة على الأرض. ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه، فوجدهم نيامًا من الحزن، فقال لهم: لماذا أنتم نيام. قُوموا وصلُّوا لئلا تدخُلوا في تجربة" (لوقا ٢٢: ٤٤-٤٦).. أي كان المسيح عليه السلام يدعو في صلاته بإلحاح وابتهال شديدين حتى بدا كأن العرق الكثير النازل من جسده ليس عرقًا وإنما هو دم.

انظروا هنا كم يحبّ المسيحيون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، فإنهم ناموا بدلاً من أن يصلوا مع المسيح عليه السلام، ومع ذلك يقولون أنهم ناموا لشدة الحزن عليه.

والزكاة هو الشيء الثاني المذكور هنا على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة﴾. وليكن معلومًا عن الزكاة أن مهمة الأنبياء إنما هي أن يوزعوا على الناس كل ما حباهم الله تعالى به من النعم. فالحق أن المراد من إخراج الأنبياء للزكاة هو حثُّهم أتباعَهم على أدائها.

ورد في الإنجيل أن الفريسيين جاءوا المسيح عليه السلام وقالوا لـــه: أيجوز أن تُعطَى جزيةٌ لقيصرَ؟ وكان غرضهم من ذلك أنه إذا أجاب بالإيجاب فيثيرون القومَ ضده بحجة أنه يتملق للحكومة ويأمرهم بأداء الجزية لها، أما إذا أجاب بالنفي فيثيرون الضجة بأن المسيح قد تمرد على الحكومة - وهي المكيدة نفسها التي قد لجأ إليها المشايخ ضدنا اليوم - ففطِن المسيح عليه السلام لنواياهم الخبيثة حيث ورد: "فعلِم يسوعُ خبثهم وقال: لماذا تجرّبونني يا مُراؤون؟ أَرُوني معاملة الجزية. فقدَّموا لـــه دينارًا، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا لـــه: لقيصر. فقال لهم: أَعْطُوا إذًا ما

لقيصرَ لقيصرَ وما لله لله. فلما سمعوا تعجّبوا وتركوه ومضوا" (انظر متى ٢٢: ١٨-٢٢).

لقد تبينَ من ذلك أن المسيح عليه السلام قد أقرّ بقانون إخراج حق الله تعالى من المال، وهذا هو ما يسمى الزكاة.

وجاء في موضع آخر من الإنجيل: "وأما يسوع فدعا تلاميذه وقال: إني أُشفق على الجمع لأن الآنَ لهم ثلاثةَ أيام يمكُثون معي وليس لهم ما يأكلون. ولستُ أريد أن أصرِفهم صائمين لئلا يخوِّروا في الطريق. فقال لـــه تلاميذه: من أين لنا في البرية خبزٌ بهذا المقدار حتى يُشبِع جمعًا هذا عددُه؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ قالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمَر الجموعَ أن يتّكئوا على الأرض، وأخَذ السبعَ خبزاتٍ والسمكَ وشكَر وكسّر، وأعطى تلاميذَه، والتلاميذُ أعطَوا الجمعَ. فأكَل الجميعُ وشبعوا. ثم رفَعوا ما فضَل من الكسَر سبعةَ سلالٍ مملوءة، والآكلون كانوا أربعةَ آلافِ رجلٍ ما عدا النساءَ والأولادَ. ثم صرَف الجموعَ، وصعِد إلى السفينة، وجاء إلى تخومِ مَجْدَلَ" (متى ١٥: ٣٢-٣٩).

إن بيان الإنجيل مبالَغ فيه عادةً. فربما كان الضيوف أربعة أو خمسة، ولكن كاتب الإنجيل ضخّم العدد وجعَله أربعة آلاف. شأنه شأن السيخ عندنا، فإذا طرَق أحدهم باب صاحبه يسأله: من الطارق؟ فيجيب: جيش. فيقول: كم عددهم؟ فيقول: مئة ألف أو يزيدون. فيجعلون من الشخص الواحد مئة ألف وأكثر. كذلك يبالغ كتّاب الإنجيل في بيان الأرقام بشكل مذهل. وعلى سبيل المثال، قد بالغوا في ذكر عدد قوم موسى عليه السلام مبالغة خرافية، مع أنهم لم يكونوا أمة كبيرة حينذاك.

على أية حال، إن هذا الحادث أيضًا يؤكد أن المسيح عليه السلام كان يشفق على الجياع، وكان من عادتهم إطعام الفقراء والجائعين. وقد ذُكر هذا الحادث في مواضع أخرى من الإنجيل أيضًا.

بعد ذلك يحكي لنا القرآن الكريم قول المسيح عليه السلام ﴿وبَرًّا بوالدتي﴾.. أي لقد جعلني الله تعالى محسنًا إلى أمي. وهذا ما يؤكده الإنجيل أيضًا حيث جاء: "ثم

نـــزل معهما (أي مع أمه وزوجها)، وجاء إلى الناصرة، وكان خاضعًا لهما. وكانت أمُّه تحفَظ جميعَ هذه الأمور في قلبها" (لوقا ٢: ٥١). فثبت أن المسيح عليه السلام كان مطيعًا لأمه.

ومع أن لوقا يذكر في إنجيله أن المسيح كان مطيعًا لأمه، إلا أن أصحاب الأناجيل الأخرى يقولون إنه عليه السلام كان يعصيها. فتارةً نَهَر أمه بشدة، وتارةً أخرى قال لها: إني لا أعرفكِ. وتارةً ثالثة قال لها: اذهبي عني، فإني لن آتي وراءك. ولكن القرآن الكريم قد أكدَ في كل مكان أن المسيح عليه السلام كان مطيعًا لأمه ومحسنًا إليها على الدوام.

ثم يقول القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام ﴿ولم يجعَلْني جبّارًا شقيًّا﴾. ولفظ "الجبّار" من الأضداد. فمن معانيه إصلاح الشيء المكسور، وأيضًا التعالي بهضم حق الغير وإهانته. فكأن من الناس من ينال الرفعة والعظمة بطريق مشروع، ومنهم من يحاول الصعود بإسقاط الآخر وإهانته. وهذا يعني أن الله تعالى إذا وُصف بكونه "جبّارًا" فالمعنى أنه تعالى يُصلح ما فسد ويجبر ما كُسر، وحين يوصف الإنسان بكونه جبارًا فالمراد أنه يريد الصعود بظلم الآخرين وإسقاطهم. إذًا فالجبار من الناس من ليس حليمًا ولا رؤوفًا بالناس. وعليه فيعني قول المسيح عليه السلام ﴿ولم يجعَلْني جبّارًا شقيًّا﴾ أن الله تعالى قد هذّب أخلاقي وجعلني حليمًا ومحبًّا للناس.

ونجد في الإنجيل بهذا الشأن قول المسيح عليه السلام: "احمِلوا نيري عليكم وتعلَّموا مني، لأني وديعٌ ومتواضع القلب، فتجِدوا راحةً لنفوسكم، لأن نيري هيِّنٌ، وحملي خفيف" (متى ١١: ٢٩).

لقد وصف المسيح عليه السلام نفسه هنا بأنه حليم القلب ومتواضع، وأنه لا يظلم أحدًا. إنه لا يسلب حقوق الآخرين، بل إذا أمرهم بشيء فإنما يأمرهم به لأنه نافع لهم، وليس لأنه يريد أن يتحكم عليهم.

ثم ورد في موضع آخر من الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "قُولوا لابنةِ صِهْيَون: هوذا مَلِكُكِ يأتيكِ وديعًا راكبًا على أتانٍ وجَحْشٍ ابنِ أتانٍ" (متى ٢١: ٥).

وهنا أيضًا يصف المسيح عليه السلام نفسه بالدعة والرفق، أي أنه ليس ممن يتكبرون على الآخرين بإضعافهم وإهانتهم، بل لقد جاء خادمًا للقوم.

بيد أن الإنجيل يقدم المسيحَ عليه السلام هنا بشكل مضحك، حيث يذكر أنه دخل المدينة على جحش كان في الواقع ملكًا لشخص آخر فاستولى عليه المسيح، حيث ورد: "ولما قرُبوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوعُ تلميذَين قائلا لهما: اذْهَبا إلى القرية التي أمامكما، فللوقت تجدان أتانًا مربوطةً وجحشًا معها، فحُلّاهما وأْتياني بهما. وإنْ قال لكما أحد شيئًا فقُولا: الربُّ محتاج إليهما" (متى ٢١: ١-٣).

والوصف الثاني الذي وُصف به المسيح عليه السلام هنا في القرآن الكريم هو عدم الشقاوة حيث قال المسيح عليه السلام ﴿ولم يجعلني جبارًا شقيًّا﴾. والشقاوة ضدُّ السعادة. علمًا أن هناك من الكلمات التي يتضح مرادها بذاتها، ولكن هنا بعض الكلمات التي لا يتضح مفهومها إلا بأضدادها مثل الشقي والسعيد. فإذا راجعتَ القواميس لمعرفة معنى السعيد مثلاً تجدها تقول: السعيد مَن لم يكن شقيًّا. وإذا بحثت فيها عن معنى الشقي وجدتها تقول: الشقي من لم يكن سعيدًا. فكلتا الكلمتين ضدٌّ، والمتصفح للقاموس يتحير ويقول من أين أعرف معناهما. ولكنه حين يرى المشتقات الأخرى لمادة "سعد" يتبيّن لـــه أن السعيد من يحقق مطلبه بمساعدة غيره، وأن هذا اللفظ لا يمكن إطلاقه على الله تعالى. أما الشقي فهو من يفشل في جلب المعونة من غيره. إذًا فالشقي من يُحرَم من المساعدة المشروعة من الآخرين، ولا يؤيده أحد ولا ينصره.

فلنرجع الآن إلى الإنجيل لنعرف موقفه من بيان القرآن هذا. لقد ورد فيه قول المسيح عليه السلام: "قد كلّمتُكم بهذا ليكون لكم فيَّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيقٌ، ولكن ثِقُوا أنا قد غلبتُ العالَمَ" (يوحنا ١٦: ٣٣).

أي ستحل بكم المصائب، حتى سيتمنى الناس أن يسحقوكم، ولكن كونوا على يقين أنني أنا الغالب في آخر المطاف.

إن كل نبي جاء إلى الدنيا قد عرض على العالم الدعوى نفسها، فقال أنا الغالب في نهاية الأمر، وليس لكل من يتصدى لي إلا الفشل. ولكن الغريب أن الناس يثورون غضبًا عندما نقول لهم نحن المسلمين الأحمديين الكلام نفسه، فيقولون كيف يمكنكم أن تقولوا إنكم الغالبون في النهاية. هذا على الرغم أن المدعين الكاذبين أيضًا يعلنون أن الفتح لهم في نهاية المطاف. إن الذي يعِده الله تعالى بالفتح والنصر إذا لم يقل إني أنا الغالب فماذا يقول يا ترى؟ وإن المسيح عليه السلام أيضًا يعلن هنا الأمر نفسه ويقول "ولكن ثِقُوا أنا قد غلبتُ العالَمَ"، وكأنه قد قال هنا نفس ما عزا إليه القرآن الكريم بأنه قال أن الله تعالى لم يجعلني شقيًّا.

كذلك ورد في الإنجيل أن المسيح عليه السلام نصح الحواريين أنهم إذا ذهبوا إلى مدينة للتبليغ والدعوة "اشفُوا المرضى الذين فيها، وقُولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوتُ الله" (لوقا١٠: ٩).. أي عليهم أن يوقنوا بأن النجاح على الأبواب وأن النصر قريب.

فثبت من ذلك أن كل تلك الأمور التي نسبها القرآن الكريم إلى المسيح عليه السلام لموجودةٌ في الإنجيل أيضًا. فزعم المسيحيين أن القرآن قد نسب إلى المسيح ما لم يقله قط يمثّل برهانًا ساطعًا على كذبهم أو على جهلهم بكتبهم.

وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٤﴾

التفسير: لقد وصف الله تعالى يحيى عليه السلام أيضًا بهذه المزايا نفسها فقال ﴿وسلام عليه يومَ وُلد ويوم يموت ويوم يُبعَث حيًّا﴾(مريم: ١٦). غير أن ثمة فرقًا، وهو أن الله تعالى نفسه قد شهد بذلك عن يحيى عليه السلام، أما المسيح عليه السلام فيقول بنفسه عن نفسه ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت يوم أُبعث حيًّا﴾.

وهناك أمران خاطئان يستنتجهما البعض من قول المسيح عليه السلام هذا، فيقال أن قوله ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ﴾ دليل على أن الشيطان لم يمسّ المسيحَ قط، وأن قوله ﴿ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا﴾ دليل على أنه لم يعلَّق على الصليب (فتح البيان، وتفسير القرآن لِـــ "ويري" مجلد ١ ص ٢١).

وأقول: إذا كان قول المسيح ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ﴾ دليلاً على براءته من مس الشيطان، فلم لا يسلِّمون ببراءة يحيى عليه السلام من مس الشيطان لقوله تعالى عنه ﴿وسلام عليه يومَ وُلد﴾.

الحق أنه ليس في هذه الكلمات أي دليل على أن المسيح وحده معصوم من مس الشيطان، وإنما معناها أن الله تعالى قد جعل في المسيح البركة منذ يوم ولادته. ولا خصوصية للمسيح عليه السلام في ذلك، فإن موسى وداود وسليمان وآلاف وآلاف غيرهم من الأنبياء – عليهم السلام – كانوا كلهم مباركين منذ ولادتهم.

أما استدلالهم الآخر من قول المسيح إنه سيكون عليه سلامٌ ﴿يوم يموت﴾ بأنه لم يعلَّق على الصليب فهو الآخر غلط. ذلك لأن تعليقه على الصليب لا ينافي كونه تحت السلام، بل إن موته على الصليب هو الذي ينافي السلام. إذ جاء في العهد القديم: "وإذا كان على إنسان خطيّةٌ حقُّها الموتُ، فقُتل وعلَّقتَه على خَشَبة، فلا تَبِتْ جُثّتُه على الخشبة، بل تدفِنُه في ذلك اليومِ، لأن المعلَّقَ ملعونٌ مِن اللهِ" (التثنية ٢١: ٢٢-٢٣). فالمراد من السلام على المسيح يوم يموت أنه لن يموت ميتة ملعونة، بل سيموت ميتة رضوان من الله تعالى، وأن الله تعالى سيرفعه إليه. فثبت بذلك أن سلامة المسيح يوم يموت تنفي موته على الصليب، ولكنها لا تنفي تعليقه على الصليب.

بيد أنه لا يمكن أن يُستنتج من ذلك أن يحيى عليه السلام لم يُستشهد، ذلك لأن قتل المرء بيد العدو في سبيل الله تعالى لا يتنافى مع السلام. كان الخليفة الأول رضي الله عنه يعتقد في أول الأمر بعدم استشهاد يحيى عليه السلام، ولكن لما عُرضت عليه أقوال كثيرة تؤكد استشهاد يحيى عدّل حضرته موقفه. وفي الفترة التي كان حضرته رضي الله عنه يعتقد بعدم شهادة يحيى عليه السلام كان يستدل على موقفه بقول الله تعالى ﴿وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا﴾. مع أن الموت لا يتنافى مع السلام، سواء كان موتًا طبيعيًا بالحمى وغيرها، أو قتلاً بالسيف. ولكن الموت على الصليب كان منافيًا للسلام حتمًا. وإن يحيى عليه السلام لم يمت على الصليب، فلا يمكن أن تكون هذه

الكلمات القرآنية نفيًا لقتله. أما قول الله تعالى للمسيح أنه سيشمله بالسلام يوم موته فينفي موته على الصليب يقينًا، لأنه ميتة ملعونة بحسب التوراة.

إن هذه الآية تدل، في بادئ الرأي، على عظمة المسيح عليه السلام، ولكنها في الواقع تنفي كون المسيح عليه السلام إلهًا، مؤكدةً أنه كان بشرًا فحسب. ذلك لأن قوله عليه السلام ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت يوم أُبعث حيًّا﴾ يصرح أن السلام قد نـــزل على المسيح مِن قِبل غيره، فالذي أنـــزلَ السلامَ هو غيرُ مَن نـــزل عليه السلام. ومعلوم للجميع أن "السلام" من أسماء الله تعالى، ومن أجل ذلك نسمي أولادنا "عبد السلام"، أو نحيّي الآخرين بقولنا "سلام عليه" أو "السلام عليكم". ولكن قولنا هذا لا يعني أن هذا الذي سلّمنا عليه لن يُقتل أبدًا، أو لن يُعلَّق على الصليب أبدًا. وبالمثل نقول في صلواتنا: "السلام عليك أيها النبي". ولكن لا يمكننا أن نقول "السلام على الله"، اللهم إلا أن يقال ذلك على سبيل المجاز والاستعارة. فمثلاً قد يتصور أحدنا في مخيلته ربَّه، فيستولي عليه حبُّ الله تعالى حتى يصبح نشوانًا في حبه تعالى، فيقول لربه في نشوته هذه: "السلام عليك"، ولكن قوله هذا سيُعتبر مجرد استعارة، ولن يُحمل على الحقيقة أبدًا.

قصارى القول إننا كلما استعملنا لأحد كلمة السلام فإنما نعني بذلك أنه بشر وأنه يفتقر إلى السلام، وأن الله تعالى هو وحده واهب السلام. فقول المسيح عليه السلام ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت﴾ يعني أن السلام قد نـــزل عليه وقت ميلاده ووقت موته مِن قِبل مَن هو السلام. وقوله عليه السلام ﴿ويوم أُبعَث حيًّا﴾ يعني أن السلام سينـــزل عليه يوم يُبعث بعد الموت. فكلمة ﴿أُبعَث حيًّا﴾ أيضًا تدل دلالة واضحة على أن واهب السلام هو غيرُ مَن يتلقى السلام.

وكما قلت سابقًا إن هذه الآية تدل، في بادئ الرأي، على عظمة المسيح عليه السلام، حيث يقول المرء في نفسه كم كان المسيح عظيم الشأن حيث شمله السلام يوم ميلاده ويوم موته ويوم يُبعث بعد الموت؛ ولكن مفهومها الحقيقي هو أن المسيح عليه السلام ليس إلا بشرًا، وليس بإله أبدًا. إذًا فكان من الطبيعي، والحال هذه، أن يطعن المسيحيون في القرآن الكريم ويقولوا إنه قد افترى على المسيح هذه الكلمات ليُثبت

أن إلههم كان مجرد إنسان. وللرد على هذا الطعن المحتمل من قِبلهم علينا بدارسة الإنجيل بتدبر وإمعان لنعرف ما يقول بهذا الصدد.

وليكن معلومًا أن قوله ﴿يوم أُبعَثُ حيًّا﴾ يمكن أن يفسَّر بمفهومين: مفهوم من وجهة النظر الإسلامية ومفهوم من وجهة النظر المسيحية، إذ يوجد بين الوجهتين بون شاسع جدًّا. نحن نؤمن بأن المسيح عليه السلام لم يمت على الصليب، وإنما قد عُلّق على الصليب وصار كالميت فقط، فالمراد من ﴿يومَ أُبعث حيًّا﴾ ذلك الوقت الذي علِّق فيه المسيح على الصليب، حيث طرأت عليه حالة كحالة الموت، ولكنه شمله السلام من عند الله تعالى، فأُنقذ من ذلك الموت. أما المسيحيون فيقولون أن المسيح قد مات على الصليب حقيقة، وأن الله تعالى أحياه بعد ثلاثة أيام، فيكون المراد من ﴿يومَ أُبعث حيًّا﴾ من وجهة نظر المسيحيين ذلك الوقت الذي أعيد فيه إلى الحياة ثانية في زعمهم.

مما لا شك فيه أن الوقت الذي سيُعاد فيه الإنسان من الموت الحقيقي إلى الحياة ثانية أيضًا يسمى بعثًا، ولكنا لا نملك أي دليل على نـــزول السلام عليه عندها، أما المعنى الذي بيّنتُه لقوله تعالى ﴿يوم أُبعث حيًّا﴾ فبوسعنا أن نقدم عليه الدليل لكل مسيحي، حيث إنه من الثابت من الإنجيل أن الله تعالى أنقذ المسيح عليه السلام وهو في حالة شبيهة بالموت، ونجاه من الموت على الصليب. كما يمكننا أن نقيم الحجة عليهم، بالنظر إلى معناهم، بقولنا لهم إنكم أنفسكم تعترفون بأن المسيح كان قد مات، ثم أُعيدَ إلى الحياة، وهذا يعني نـــزول السلام عليه عندئذ كما أعلن القرآن الكريم. ولكنا لو قلنا لهم إن ﴿يوم أُبعث حيًّا﴾ يعني أن السلام سيشمل المسيح في الآخرة فلا دليل بيدنا على ذلك؛ مع أنه يجب على المرء أن يكون بيده دليل على صدق موقفه وإلا لم يقتنع الخصم بقوله أبدًا. لا جرم أن هناك أشياء لا تحتّم على المرء تقديم الدليل عليها، ولكنها أمور لا علاقة لها بالعقائد. فمثلاً إذا أثبتنا بالبراهين لشخص غير مؤمن أن الإنسان يُبعث بعد الموت فهذا يكفينا، ولا حاجة بنا أن نقدم لـــه البراهين على نوعية نعماء الجنة وأشكالها، إذ يدخل هذا في إيماننا فقط، ولا علاقة لـــه بمعتقداتنا التي يجب أن نقدّم الأدلة عليها لإقناع الخصم. وكذلك لو

جاءنا أحد وطالبنا قائلا يجب أن تبرهنوا على أن كل ما يتمناه المرء في الجنة سيجده، لقلنا لـــه إنه سؤال لا طائل وراءه؛ لأن ما يخصّك من عقيدتنا إنما هو أن الإنسان يُبعث بعد الموت، أما كيفية معاملة الله معه فهو ليس مما يجب علينا أن نبرهن عليه. إن هذه الأمور تدخل في الذوقيات عند البعض، بينما اعتبره البعض الآخر من الإيمانيات وقال إن المؤمنين يفرحون بما وعدهم الله به وأن الله تعالى قد أعدّ لهم في الآخرة نعمًا عظيمة. بيد أنه لا حاجة بنا أن نبرهن على ذلك حتى يقتنع به الخصم.

أما هنا فقد قدم القرآن دعوى عظيمة وقال إن المسيح عليه السلام قد شمله السلام وقت ميلاده، كما ظل موردًا للسلام فيما بعد أيضًا؛ لذا فلا بد لنا من أن تكون بأيدينا أدلة على نـــزول السلام على المسيح عليه السلام.

فتعالوا الآن لنرى هل يتحدث الإنجيل عن هذا السلام النازل على المسيح أم لا؟ تكشف لنا دراسة الإنجيل أن الرعاة – الذين كانوا يرعون غنمهم خارج المدينة، والذين قد وُلد المسيح عليه السلام قريبًا من مكانهم في البرية – رأوا في حالة من الكشف ملائكة تقول: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرّة" (لوقا ٢: ١٣-١٤).

لقد تضمنت هذه الفقرة ثلاثة أمور: أولها: المجد أي الحمد لله في السماء، وثانيها: السلام لله على الأرض، وثالثها: رضا الله عن الناس.

والأمر الأول، أي الحمد لله في الأعالي، يخص الله تعالى، ولا نقاش في ذلك. أما الأمر الثاني أي السلام لله على الأرض، فلا يمكن التسليم بأنه يخص الله تعالى، لأنه تعالى صاحب السلام، وله السلام في كل مكان، ولا خوف عليه أبدًا حتى يدعو الإنسان بأن يكون لله السلام على الأرض. إنما البشر هم الذين يكونون بحاجة إلى السلام على الأرض، وهم الذين يمنحهم الله تعالى السلام. أما الأمر الثالث أي رضا الله عن الناس، فأيضًا يخص البشر كلهم، والمراد أن يتبع الناس أوامر الله تعالى ويحظوا برضوانه.

ونعود بالحديث ثانية إلى الأمر الثاني المتعلق بالسلام لله على الأرض، ونقول: حيث إن هذا الكشف قد رآه الرعاة عند ولادة المسيح فلا شك أن السلام المذكور هنا يخص المسيح حتمًا، وإلا لوجب التسليم بأن الله تعالى يتمتع بالسلام في السماء، ولكنه لا يتمتع به على الأرض؛ وهذا غلط بالبداهة، إذ لم يتعرض الله ﷻ لخطر في الماضي قط، ولن يتعرض لخطر في المستقبل أبدًا. فثبت أن "السلام لله على الأرض" يخص المسيح عليه السلام.. وهذا يعني أن الإنجيل أيضًا يؤكد أن الله تعالى قد أنـــزل على المسيح السلام عند ميلاده، مثلما أعلن القرآن الكريم.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي" (يوحنا ١٦: ٣٢).. أي لو أردتم أن تخذلوني فشأنكم. إن أخوف ما يمكن أن أخافه منكم هو أن تتخلوا عني وقت الشدائد والمحن، ولكن لا أبالي بذلك، لأني لست وحيدًا، بل إن معي ربي. إن وقوفكم بجانبي لن يزيدني قوة، وإن خذلانكم لي لن يُضعفني شيئًا. وهذا يعني أن الإنجيل يؤكد نـــزول السلام على المسيح عليه السلام عند ولادته وأيضًا في أيام حياته فيما بعد على الدوام.

أما عند الصليب حين مات المسيح بالفعل عند المسيحيين واليهود، وحين دخل في حالة شبيهة بالموت عندنا نحن المسلمين، فأيضًا لم يتركه الله تعالى، بل شمله السلام من عنده تعالى. فقد ورد في العهد الجديد: "يسوع الذي من الناصرة كيف مسَحه الله بالروح القدس والقوة، الذي جالَ يصنع خيرًا ويشفي جميعَ المتسلطِ عليهم إبليسُ، لأن الله كان معه" (أعمال الرسل ١٠: ٣٨).

ثم يؤكد العهد الجديد نـــزول السلام على المسيح عليه السلام في الوقت الذي يموت الإنسان موتًا حقيقيًّا حيث جاء: "ها أنا أنظر السماواتِ مفتوحةً وابنَ الإنسان قائمًا عن يمين الله" (أعمال الرسل ٧: ٥٦).

كما ورد في موضع آخر قول المسيح عليه السلام: "منذ الآن يكون ابنُ الإنسان جالسًا عن يمينِ قوةِ الله" (لوقا ٢٢: ٦٩).. أي سيظن العدو بناء على حادث الصليب أنه قد دمّرني، ولكني سأجلس على يمين الله تعالى، وسيتغمدني بفضله ورحمته ﷻ.

إن هذه وعودٌ بنـــزول السلام على المسيح عليه السلام كما وردت في العهد الجديد، وإنها لبرهان حاسم على أن المسيح عليه السلام كان بشرًا، لا إلهًا، لأن الدليل على نـــزول السلام على المسيح هنا هو كون الله تعالى معه، فثبت أن الله تعالى هو الذي كان يهب هذا السلام للمسيح. أما لو كان المسيح إلهًا حقًّا لقال إني إله، وموت الإله محال. ولكنه لم يقل هذا، كما لم يقل أني أتمتع بالسلام بقوتي وقدرتي، بل قال إن الله تعالى معي. فثبت أن المسيح عليه السلام كان بشرًا، لا إلهًا.

وثمة أمر آخر جدير بالذكر هنا، وهو أن الله تعالى قد ذكر يحيى مع المسيح – عليهما السلام – لينبه أن الأول قد جاء إرهاصًا للأخير، ولكن صفاتهما المذكورة هنا متشابهة جدًّا حتى يخيل للمرء أنهما قطعتان من جوهر واحد.

فقد ذكر القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام قال إن الله تعالى قد ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا﴾، وقال، إزاء ذلك، في ذكر يحيى عليه السلام ﴿يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوّةٍ وآتيناه الحُكمَ صبيًّا﴾. فأخبر أن كليهما قد أُوتي النبوة والكتاب في شبابه.

ثم ورد في القرآن الكريم قول عيسى عليه السلام ﴿وجعَلني مباركًا أينما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمْتُ حيًّا﴾، بينما ورد عن يحيى عليه السلام قول الله تعالى إننا وهبنا لـــه ﴿حنانًا من لدنّا وزكاةً وكان تقيًّا﴾.

ثم ورد في القرآن الكريم قول المسيح عليه السلام إن الله تعالى قد جعلني ﴿بَرًّا بوالدتي ولم يجعلني جبّارًا شقيًّا﴾، في حين قال الله تعالى عن يحيى عليه السلام إننا جعلناه ﴿بَرًّا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيًّا﴾.

كذلك يقول المسيح عليه السلام ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا﴾، بينما يقول الله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا﴾.

فترى أن هناك تشابهًا كبيرًا بين صفات النبيين. فمثلاً يقول المسيح عليه السلام ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة﴾، وأوصاه أو وصّاه بكذا يعني عهد إليه.. أي أمَره به بكل شدة وقوة. أما يحيى عليه السلام فقد قال الله تعالى عنه أيضًا ﴿خُذِ الكتابَ بقوة﴾.

ثم قال الله تعالى عن يحيى عليه السلام ﴿ولم يكُنْ جبّارًا عصيًّا﴾، بينما ورد في القرآن قول عيسى عليه السلام ﴿ولم يجعلني جبارًا شقيًّا﴾. فترى أن الله تعالى قد ركّز هنا على بيان صفة ذاتية ليحيى لأن كون المرء غير عاص صفة ذاتية، بينما ركز الله تعالى على صفة قومية، لأن كون المرء غير شقي، أي كونه ناجحًا، صفة قومية. ذلك لأن نجاح الزعيم الروحاني أو النبي إنما هو غلبة قومه وانتشارهم في العالم. فثبت أن الله تعالى قد بين هنا صفة قومية للمسيح وصفة ذاتية ليحيى عليهما السلام. وكان هذا في الحقيقة إعلامًا من الله تعالى أنه لن يُكتَب البقاء لأتباع يحيى كأمة منفصلة، أما المؤمنون بالمسيح عليه السلام فيبقون في العالم كأمة. ذلك لأن يحيى عليه السلام كان من الأنبياء الذين جاءوا في الوسط، وكانوا كمجددين، أما المسيح عليه السلام فكان الحلقة الأخيرة من السلسلة الموسوية. ومن سنة الله تعالى أن النبي الذي يكون بمنـــزلة أول أو آخر حلقة في سلسلة النبوة، فإن الله تعالى يوليه أهمية كبيرة، ويكتب لاسمه وعمله وجماعته البقاء. أما النبيين الذين يأتون في الوسط فتُضَمّ إنجازاتهم إلى إنجازات النبي الذي هو مؤسس تلك السلسلة للنبوة، ولا تبقى لهم مكانة منفصلة. وعلى سبيل المثال، كان داود نبيًّا عظيمًا، ولكن أعماله قد ضُمّت إلى إنجازات موسى عليهما السلام. وكان إشعياء وإرمياء وحزقيال وعزرا أيضًا من الأنبياء العظام، ولكن أعمالهم أيضًا قد أُدمجت في أعمال موسى عليه السلام. أما عيسى عليه السلام فنالت أعماله مكانة منفصلة بارزة، ذلك لأنه كان الحلقة الأخيرة من السلسلة الموسوية. ومن أجل ذلك قال حضرة محيي الدين ابن عربي أن المسيح الموعود عليه السلام سيقف يوم القيامة ممسكًا لواءً صغيرًا تحت اللواء الكبير لمحمد رسول الله ﷺ (الفتوحات المكية: السفر الثالث، الباب الرابع والعشرون ص ١٧٦). وكأنه يعني إنه سيُكتب البقاء لاسم المسيح الموعود عليه السلام على شكل جماعة بارزة ضمن الأمة الكبيرة لرسول الله ﷺ، أما غيره من كبار المسلمين فتُضَمّ أعمالهم إلى أعمال رسول الله ﷺ. وكأن صورة المسيح الموعود سوف تُرى منفصلة أيضًا على نطاق ضيق إعلامًا أنه قد بلغ في طاعة محمد رسول الله عليه السلام درجة عظيمة بحيث نال بها مكانة منفصلة أيضًا.

وجدير بالذكر أيضًا أن الله تعالى نفسه قال عن يحيى عليه السلام ﴿وسلام عليه﴾، بينما قال المسيح بنفسه عن نفسه ﴿والسلام عليَّ﴾. وكل واحد من القولين يفوق الآخر بشكل ما. فما قيل في يحيى عليه السلام فهو أفضل مما ورد عن المسيح عليه السلام من حيث إن الله تعالى نفسه شهد بنـــزول السلام على يحيى، ولا شك أن لشهادة الله أهميتها ومكانتها. أما ما ورد عن المسيح فهو أفضل مما ورد عن يحيى من حيث إن المسيح نفسه قام بهذا الإعلان بعد أن بشره الله بذلك حتمًا. لا شك أن المسيح عليه السلام لم يصرح هنا بأن الله تعالى قد وعده بالسلام، إلا أن قوله هذا يدل أن الله تعالى هو الذي بشره بذلك فقام بهذا الإعلان للناس. غير أن المسيح قد نسب ذلك السلام إلى نفسه، وهذا يعني أن صفة الله "كُن فيكون" قد تجلت في المسيح عليه السلام حيث أعلن بنفسه ﴿والسلام عليَّ﴾.. ولن تقدر قوة في العالم على أن تجرّدني من هذا السلام.

كما أن هذه المقارنة تكشف لنا أن السلام قد شمل ولادة يحيى كما شمل ولادة المسيح عليهما السلام. فلو ظننا أن هذا يعني فقط أن يحيى وعيسى سينجوان من الموت عند ولادتهما، فلم تعد لهما أي خصوصية في هذا الأمر، فإن جميع المواليد الذين يحيون بعد ولادتهم إنما يحيون نتيجة السلام الذي يشملهم من عند الله تعالى. الحق أن هذه الألفاظ قد جاءت لتدل على أن ولادتهما تنطوي على آية من عند الله تعالى. وكأن نـــزول السلام عليهما لا يدل هنا على السلامة الجسمانية أي أنهم سيُرزَقان الحياة، بل المراد أن السلام سينـــزل بسببهما على الدنيا، إذ سيأتيان بآيات من الله تعالى بحيث إن ولادتهما ستتسبب في نجاة العالم من الكفر والإلحاد. فكل من نظر إلى ولادة يحيى وعيسى الإعجازية وإنجازاتهما المدهشة، وكل من شاهد الانقلاب العظيم الذي أحدثاه في العالم، وكل من رأى الآيات السماوية التي ظهرت على أيديهما، لا بد أن يزداد إيمانًا، ويكره الكفر والإلحاد، ويخرج من ظلمات الشبهات والوساوس، وسيتجلى لـــه نور الله، فيدرك أن ربنا عز وجل ذو قدرة واسعة.

ثم قال الله تعالى إن السلام شمل يحيى وعيسى لدى موتهما أيضًا. ولكن هذا لا يعني أن موتهما كان خاليًا من أي تدخُّل من البشر كما يظن البعض عن يحيى عليه السلام. ذلك لأن المرء ما دام لا مفر لـــه من الموت، فلا فرق بين أن يُستشهد وبين أن يموت موتًا طبيعيًّا. فإما أن يقال أن السلام هنا يعني نجاته من الموت أبدًا، ولكن هذا غلط، وإلا لما قال الله تعالى هنا إنه سيكون في سلام ﴿يوم يموت﴾، بل لقال إنه سيكون في مأمن من الموت أبدًا. فما دام الله تعالى لا ينفي موته فلا فرق في أن يموت على يد بعض البشر أو أن يموت على يد بعض الملائكة.

إذًا فلا بد لنا من تفسير هذه الآية بما يؤكد نـــزول السلام على يحيى وعيسى رغم موتهما. وهذا التفسير هو أن موتهما لن يحول دون الغاية التي قاما من أجلها وبُعثا لتحقيقها. إنهما سيموتان حتمًا، ولكن سيبقى اسمهما خالدًا. سيأتي عليهما الفناء، ولكن أعمالهما لن تفنى؛ وهكذا يكون موتهما موت سلام. وأي شك في أن المرء إذا لم تمت دعوته بموته، وإذا لم يتضرر عمله بوفاته، بل صار بعده أكثر ازدهارًا وأوسع انتشارًا من ذي قبل، فميتتُه ميتة سلام! أما إذا مات عمله بموته، وانمحى اسمه بفنائه، فلا شك أن ميتته ميتة دمار وهلاك. ولكن إذا استمر عمله في الانتشار والازدهار فلن نسميه ميتًا.

ورد في التاريخ أن المأمون الرشيد أمر ابنيه بالتعلم على يد الفرّاء النحوي الشهير. وذات يوم أراد الفراء أن ينهض لبعض شأنه، فابتدر الأميران إلى نعل الأستاذ يقدّمانه إليه. فتنازعا أيهما يقدّمه، لأن كل واحد منهما كان يريد أن ينال شرف وضع النعل أمام أستاذه. وأخيرًا اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا من النعلين أمامه. ولما بلغ ذلك المأمونَ قال للفراء: ما هلَك مَن خلف مثلَك* (تاريخ بغداد للبغدادي مجلد ١٤ ص ١٥٠). أي أن المعلم الذي يكنّ له تلاميذُه مثل هذا

* نصُّ ما ورد في المصدر المشار إليه هو: "قال لـــه: مَن أعزّ الناسِ؟ قال: ما أعرِف أعزَّ من أمير المؤمنين. قال: بلى، مَن إذا نَهَض تَقاتَلَ على تقديم نعليه وليًّا عهدِ المسلمين حتى رضِي كلُ واحد أن يقدّم لـــه فردًا". *(المترجم)*

الأدب الجمّ لا يمكن أن يموت أبدًا. إذًا فالشخص الذي يترك وراءه جماعة من أتباعه الذين يخلّدون اسمه وعمله فموته ميتة سلام، إذ لا شك أن الموت قد حلّ به، ولكنه لم يعرقل عمله.

فعندما نقول إن موت فلان موت سلام فلا يعني ذلك استحالة قتله بيد أحد، لأن الذي قد مات فليس مهمًّا أن يموت بطريق معين. إن ميتة سلام هي ذلك الموت الذي لا يفنى به عمل صاحبه، بل إنه ينجح في مقصده. لا شك أن يحيى عليه السلام قد مات وانمحى أي أثر لجماعته، ومع ذلك كلما يذكره المسلمون يقولون: يحيى عليه السلام. وكلما قرءوا في القرآن الكريم قول الله تعالى في شأنه ﴿وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا﴾ جدّدوا ذكراه، وتراءت لهم أحداث حياته، وامتلأت قلوبهم بمشاعر الحب والاحترام نحوه. فثبت أنه عليه السلام حيٌّ رغم موته، وسيظل خالدًا إلى يوم القيامة.

وهذا هو حال المسيح عليه السلام أيضًا. لا جرم أن أتباعه موجودون اليوم، ولكن الأمر الواقع أنه ليس خالدًا من خلالهم، لأنهم لا يَعرِضون المسيحَ أمام العالم، وإنما يعرضون ابنَ الله الذي لا وجود لـــه في الواقع. الحق أن المسيح إذا كان خالدًا اليوم فإنما هو خالد من خلال الإسلام والقرآن الكريم وجماعتنا؛ ذلك لأن الإسلام والقرآن وحدهما اللذان يعرضان على العالم المسيح الحقيقي. فالمراد من السلام على يحيى وعيسى أنه سيُكتَب لهما ولتعليمهما الحقيقي الخلودُ في العالم؛ وسيكون النجاح حليفهما في أهدافهما، ثم يرثان الحياة الأبدية من خلال القرآن والإسلام.

وبعد ذلك يقول القرآن الكريم عن يحيى عليه السلام إن السلام سيشمله ﴿يوم يُبعث حيًّا﴾، بينما ورد عن عيسى عليه السلام أنه قال إن السلام عليّ ﴿يوم أُبعث حيًّا﴾. والسؤال هنا: ما هو الدليل على ذلك، ومن ذا الذي سيرى في يوم البعث أن السلام قد شملهما؟ إذ يمكن لكل امرئ أن يدعي بأنه سيتبوأ الدرجات العلى يوم يُبعث حيًّا، وليس بيدنا طريق لمعرفة صدقه أو كذبه في دعواه.

والجواب الأول على ذلك هو أن صدق المرء في دعواه يقاس على ما سبق منه من أقوال وأعمال. وهذا القانون مطبق في كل مكان في العالم. لقد قدّم القرآن الكريم هذا الأمر كبرهان على البعث بعد الموت، حيث لفت انتباه معارضي النبي ﷺ إلى الأنباء التي تخص هلاكهم وغلبة الإسلام والتي قد أُنيطت بها بعض الوعود التي ستتحقق في الآخرة؛ وقال لهم:

ألا ترون أن العقل لم يكن يصدق تحقُّق الأنباء المتعلقة بالرقي المادي للمسلمين، مع ذلك قد تحققت فعلاً، فيمكنكم أن تقيسوا بذلك صدق الأنباء المتعلقة بالآخرة وتعرفوا أنها هي الأخرى ستتحقق حتمًا في يوم من الأيام.

وهذا الدليل نفسه قد ساقه القرآن الكريم هنا، فذكر ثلاثة أمور، واستشهد بالأمرين الأولين المتعلقين بالحياة الدنيا على صدق الأمر الثالث المتعلق بالآخرة، حتى لا يتردد أحد في تصديقه مدركًا أن الأمرين الأولين ما داما قد تحققا رغم الظروف غير المواتية جدًّا، فلم لا يتحقق الأمر الثالث أيضًا. ومن البديهي أنه إذا أتى أحد إلى الدنيا، وأنبأ أنه سيُحدث انقلابًا عظيمًا، ثم بالفعل أحدث بجهوده وتضحياته وإيثاره وصلاحه وورعه وطهارته انقلابًا طيبًا عظيمًا ما كان أحد ليتوقعه أبدًا، فإن ذلك يكون أيضًا برهانًا على صدق الأنباء التي أخبر بها هذا الإنسان حول الآخرة. لقد جاء يحيى والمسيح عليهما السلام، وأعلنا أن الله تعالى سيُظهر من خلالهما مجده وقدوسيته، وأنهما سيبذران في الدنيا بذرة الخير، وسيمحوان الكفر والمكائد الشيطانية من العالم. فعارضهما الناس، وحاولت الدولة قمعهما، وقام الأعداء بتعذيبهما، فقتَلوا الواحد وعلّقوا الآخر على الصليب. ولكن بالرغم من أنهم حاولوا عرقلة طريقهما بكل وسيلة ممكنة إلا أن التعليم الذي جاءا به قد انتشر في العالم في نهاية المطاف. لقد هلك أعداء يحيى وعيسى رغم كونهم ذوي قوة ومنعة، وانمحت الحكومات القوية المعادية لهما، بينما صار النجاح حليفهما. فما دام الأمر الأول الذي أخبرا به قد تم، فلا بد أن يعترف كل إنسان أن الأمر الثاني أيضًا سيتحقق لا محالة. لو أن عيسى قال "والسلام عليَّ يوم أُبعث

حيًّا" كان هناك مجال لأن يشك المعارض ويقول: كيف أصدّق أن السلام سيشمل المسيح عندما يُبعث. ولكن الله تعالى قد ذكر هذا الأمر بعد الأمرين الآخرين وهما ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدت ويوم أموت﴾. وهذا يعني أن الله تعالى قد أكد نزول السلام على المسيح في مناسبات ثلاث: عند ولادته، عند موته، وعند بعثه بعد الموت. وعلى المرء أن يتوقف هنا ويتدبر الأمر. فمن ذا الذي كان بإمكانه أن يقول عند ولادة يحيى في بيت زكريا – عليهما السلام – إن هذا المولود سيكون إنسانًا عظيمًا حتى إنه يتسبب في نجاة الدنيا؟ ومن ذا الذي كان بوسعه أن يقول عن عيسى عليه السلام عند ولادته إن هذا الصبي سيكون نبيًّا عظيمًا، وسيحرز رقيًّا مدهشًا رغم الظروف غير المواتية؟ كلا، ما كان لأحد أن يقول ذلك، لأن البشر لا يعرفون أخبار المستقبل. ولكن الله تعالى قد أنبأ بهذه الأمور حتى قبل مولد يحيى وعيسى، ثم حصل كما أخبر الله به. إن الإدلاء بهذه الأنباء من عند الله تعالى قبل مولدهما، ثم تحقُّق هذه الأنباء، لبرهان أكيد على أن ولادتهما كانت معجزة، وأن ما أخبر الله به قد تحقق فعلاً.

ثم قال يحيى وعيسى – عليهما السلام – إن ربنا معنا، وإنه لن يخذلنا أبدًا. وقولهم هذا يماثل ما قلتُ أنا ذات مرة لمسؤول حكومي. وكان ذلك في ١٩ مارس عام ١٩٥٣ حين بعث حاكم إقليم البنجاب بموجب قانون الأمان رسالة إليّ مع مدير الأمن يحذّرني فيها. فقلت لرسوله: إن عنقي في يد الحاكم الذي بعثك، ولكن رقبته في يد ربي. إنه قد فعَل بي ما شاء، فلينظر الآن كيف يُظهر لي ربي يد قهره وقدرته ﷻ. ولما أراد مدير الأمن الانصراف أوضحت له الأمر ثانية وقلت: إني لم أقل هذا من فورة حماس، بل إن هذا هو القدر الذي لا بد له أن يتمّ، وعندما يتمّ سأذكّرك وأقول: ها قد تم ما قلتُ في صاحبك. فلما طُرد الحاكم من منصبه بعثتُ إلى ذلك المسؤول الكبير في الشرطة وقلت له: أتتذكر ما كنتُ قلت لك؟ قال: نعم أتذكر جيدًا، وكنت قد ذكرتُ ذلك لبعض معارفي أيضًا. كما بلغني أن هذا المسؤول قال لشخص آخر: يبدو أن الله تعالى قد وضع يده على رقبتي أيضًا.

فلا شك أن الإنسان فان، ولكن إذا كُتب لاسمه وعمله وتعليمه الخلودُ فلا يموت أبدًا، بل يصبح خالدًا إلى الأبد. وهذه هي الحقيقة التي قد بيّنها المسيح عليه السلام في قوله ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموتُ﴾.. أي لن أتمتع بسلام من الله تعالى في حياتي فحسب، بل بعد موتي أيضًا. ذلك لأن الإنسان لا يملك بعد موته شيئًا، أما في حياته فيمكن للناس أن يقولوا: كان هذا شديد الذكاء ومحتالاً وخداعًا، فقام بغزو العالم بمكره وكيده. ولكن بعد الموت لا يبقى هناك من فرصة للمكر والخداع والنفوذ والسلطة أو خدمة الخلق، بل الله هو الذي يخلّد بعد ذلك اسم أحد إن شاء. فترى أن يحيى عليه السلام قد مات، والمسيح عليه السلام أيضًا قد مات، ولكن اسمهما خالد حتى اليوم. فما دام هذان الأمران اللذان هما شبهُ المستحيل قد تحققا فلم تبق هناك أي شبهة في تحقُّق الأمر الثالث أيضًا. لا شك أن نـــزول السلام بعد الموت أمر غير مرئي، ولكن الله تعالى قد ذكَره مع الأمرين الأوّلين المرئيين اللذين كانا كالمستحيل ومع ذلك تحققا، وهكذا أكد أن السلام في الآخرة أيضًا أمرٌ محقق حتمًا.

والجواب الثاني هو أنه بالإضافة إلى البعث بعد الموت هناك بعثٌ آخر مقدر لكل نبي في هذه الدنيا أيضًا، حيث يظهر في الدنيا ثانية في شخص نبي آخر. وهذا يعني أن من سنة الله تعالى أن يبعث بعد كل نبي صادق نبيًّا آخر يصدّق النبي السابق، وهكذا يُظهر الله على الناس صدق النبي الأول مرة أخرى، ويُنـــزل عليه السلام ثانية بشهادة النبي الجديد. لقد جاء موسى عليه السلام إلى الدنيا، وقام بإنجازات عظيمة، ولكن بعد انقضاء فترة طويلة على بعثته أخذ الناس يشكّون في صدقه رويدًا رويدًا، فبعث الله تعالى المسيحَ الذي شهد على صدق موسى أمام الناس، وهكذا نال موسى حياة جديدة من خلال المسيح الناصري عليهما السلام. أما يحيى والمسيح فقد نالا الحياة ثانية من خلال محمد رسول الله ﷺ. أما النبي ﷺ فيقول الله بشأنه ﴿أَفَمَنْ كان على بيّنة مِن ربه ويتلوه شاهدٌ منه ومِن قَبله كتابُ موسى إمامًا ورحمةً أولئك يؤمنون به ومَن يكفُرْ به من الأحزاب فالنار موعدُه فلا تكُ في

مرية منه إنه الحقُّ من ربك ولكن أكثرَ الناس لا يؤمنون﴾(هود: ١٨).. أي كيف يمكن أن يكون كاذبًا مَن احتوت حياتُه على آلاف الآيات من عند الله تعالى، بالإضافة إلى الأنباء التي نبّأ بها موسى في حقه ﷺ، كما سنبعث بعد وفاته مأمورًا من عندنا ليعلن أن محمدًا ﷺ كان رسولاً صادقًا من عند الله تعالى. بتعبير آخر، يعلن الله تعالى هنا أن ذلك ماضي هذا الرسول ﷺ، وهذا حاله، أما فيما يتعلق بمستقبله فإننا لن نـــزال نبعث من عندنا من السماء أناسًا سيشهدون أن محمدًا ﷺ كان رسولاً صادقًا من عند الله تعالى. وكأن هذا سيكون بمنـــزلة بعثة ثانية لرسولنا الكريم ﷺ. ومن أجل ذلك نجد أن الله تعالى قد عبّر في سورة الجمعة عن مجيء الرسول ﷺ في "الآخَرين" بلفظ البعث إذ قال ﴿هو الذي بعَث في الأُمّيّين رسولاً منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا من قبل لفي ضلال مبين * وآخَرين منهم لما يلحَقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾(الجمعة: ٣، ٤).. أي أن الله تعالى قد قدر لرسولنا ﷺ بعثتين: بعثة في الأوّلين الأُمّيّين، وبعثة في الآخرين. ولقد استخدم المسيح الناصري عليه السلام في قوله ﴿ويوم أُبعَث حيًّا﴾ كلمة البعث نفسها التي قد وردت بحق نبيّنا ﷺ في سورة الجمعة. فثبت من ذلك أن من أساليب القرآن استعمال كلمة البعث أيضًا بمعنى مجيء نبي يُحيي بشخصه النبيَّ السابقَ لـــه، ويكشف صدقه على الدنيا.

فالمراد من قول المسيح عليه السلام والسلام عليَّ ﴿يوم أُبعث حيًّا﴾ أنه حين يأتي بعدي نبي آخر، ويقوم بتصديقي، ستدركون عندها أن ما أقول لكم إنما أقوله من عند الله تعالى. إن ذلك النبي سيأتي من بلد آخر ومن شعب آخر، ولكنه سيكون مصدّقًا لي. وبالفعل لما جاء نبينا محمد رسول الله ﷺ قام بتصديق المسيح عليه السلام، وهكذا تحقق ما أخبر المسيح وقال ﴿والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أُبعث حيًّا﴾، كما أنه ﷺ قام بتصديق يحيى عليه السلام أيضًا، محققًا ما قال الله تعالى عن يحيى ﴿وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا﴾.

وعليه فلا حاجة لتطبيق هذه الآية على يوم القيامة، إذ يمكن مشاهدة نـــزول سلام الله على يحيى وعيسى في هذه الدنيا نفسها لدى بعثتهما الثانية.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

يَمتَرون: من الامتراء وهو الاختلاف حيث يطعَن كلٌّ من الخصمين في قول صاحبه، ويجادله وينازعه، ويتردد في قبول موقفه.

التفسير: إضافةً إلى جانب ما يوجد بين النصارى واليهود من اختلاف حول المسيح عليه السلام، فإن المسيحيين أنفسهم مختلفون فيما بينهم حوله، مما يشكل برهانًا على أنهم ليسوا على الحق. فمنهم من يقول أن أم المسيح هي الأخرى كانت إلهةً، ومنهم من ينكر ذلك. ومنهم من يقول أن المسيح كان في الواقع جزءًا من الإله، ومنهم من يقول أن الله تعالى خلق روحًا خصَّها بفضله ورحمته.

ثم إلى جانب الاختلاف الموجود بين اليهود والمسيحيين حول حادث الصليب، فإن المسيحيين أنفسهم يختلفون حوله. ولربما لا يوجد في العالم شخصية أخرى قد اختلف الناس حولها هذا الاختلاف الشديد، حيث تجد المسلمين أيضًا مختلفين في أمره عليه السلام اختلافًا كبيرًا. فمثلا نقول نحن المسلمين الأحمديين إن المسيح قد لحِق بالأموات، أما غالبية المسلمين الآخرين فيقولون أنه لم يمت، بل هو موجود في السماء حيًّا.

ثم هناك اختلاف كبير حول حادث الصليب أيضًا. يقول عامة المسلمين أن المسيح لم يعلَّق على الصليب أصلاً، بينما نؤمن نحن المسلمين الأحمديين أنه قد علِّق على الصليب فعلاً، ولكنه لم يمت عليه. ويقول اليهود أنه عُلّق على الصليب ومات عليه، بينما يقول المسيحيون أنه عُلّق على الصليب ومات عليه، ثم أُعيدَ إلى الحياة ثانية. وهذا يعني أن أربعة من الطوائف الكبيرة في العالم لمختلفة في حادث الصليب نفسه اختلافًا كبيرًا. فمن جهة، هناك اختلاف كبير حول المسيح عليه السلام بين اليهود والنصارى والمسلمين، كما أن هناك اختلافًا كبيرًا حوله بين شتى فرق اليهود، ثم إن الفرق المسيحية نفسها تختلف حوله عليه السلام.

ثم إن ولادة المسيح أيضًا لأمرٌ قد تضاربت حوله الآراء. فنحن المسلمين الأحمديين نؤمن بأن الله تعالى قد خلقه عليه السلام كمعجزة بمحض قدرته الكاملة من غير أب. بينما يقول غير المبايعين أن المسيح كان من نطفة يوسف النجار. ويقول المسيحيون أنه كان من نطفة الله سبحانه وتعالى. أما اليهود فيقولون أنه كان من نطفة الحرام. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون﴾.

والحق أن قول الله هذا يمثّل توبيخًا للمسيحيين. ذلك لأنه ليست في الدنيا حقيقة هي أكثر صدقًا ويقينًا من وجود الله تعالى، بينما لا يوجد عند النصارى أمر واحد يقيني حول المسيح عليه السلام. فثبت أن قول الله تعالى هذا جاء تعييرًا وتوبيخًا للمسيحيين حيث قيل إنهم يؤلهون المسيح مع أنهم لا يعلمون أي شيء عنه علم اليقين. وها نحن نخبركم عنه خبر اليقين. إنه كان رسولاً منا بعثناه لإصلاح الدنيا.

لقد سُمي المسيح عليه السلام هنا ﴿عيسى ابن مريم﴾، والمسيحيون يتضايقون من هذه التسمية أيضًا ويقولون: لماذا سمى القرآن مسيحنا "ابن مريم"، مع أنه ابن الله. لم يفعل القرآن ذلك إلا لإيذائنا وتجريح مشاعرنا، ولكي يرفض كونه إلهًا. والواقع أن الإنجيل نفسه قد سمى المسيح عليه السلام "ابن مريم"، حيث ورد فيه: "أليس هذا هو النجّار ابنُ مريم وأخو يعقوب ويوسى ويهوذا وسِمعان؟ أوَليست أَخَواتُه ههنا عندنا. فكانوا يعثُرون به" (مرقس ٦: ٣).. أي أن الناس لما رأوا المسيح قالوا كيف يقوم هذا بدعاوى عريضة بأن الله تعالى قد قطع معي وعودًا عظيمة، وتفضَّلَ عليّ بنعم كثيرة؟ أليس هو ابن مريم؟ أليس هو ذلك النجار الذي كان يصلح لنا الأسرّة والطاولات.

في عهد سيدنا المسيح الموعود عليه السلام كان حضرة المولوي عبد الكريم السيالكوتي رضي الله عنه يؤمّ الناس في الصلاة. كان رضي الله عنه عذب اللحن، رفيع الصوت، ومثير الخطاب. ورغم أنني كنت إذّاك صغير السن، إلا أني أتذكر جيدًا أنه رضي الله عنه كلما تناول في خطبه المعنى المذكور أعلاه قال بحماس شديد: ما الذي يمكن للمسيحيين أن يقدّموه إزاءنا. دَعِ الحديث عن نبينا محمد رسول الله ﷺ فإنه أسمى شأنًا كثيرًا. لقد جاء

نائب لـــه ﷺ لإحياء الإسلام في هذا العصـــر. ونحن نعلم أنه ينحدر من أسرة نبيلة، ومن ذرية الملوك، ويشهد تاريخ آلاف السنين على عظمة أسرته. وعلى النقيض لا يزال صوت المسيح الأول عليه السلام يتردد في آذاني وهو يقول: ها قد جاء النجار، فمن أراد فأرمم له سريره الذي قد فسد، ومن شاء فأصلح له كرسيه الذي قد انكسر.

هذه هي دلالة الفقرة الإنجيلية المذكورة أعلاه، حيث عيّر اليهود المسيحَ وقالوا: أليس هو النجّارُ ابنُ مريم؟ وكما تلاحظ، فإنهم لم يقولوا إنه ابن يوسف النجار، بل قالوا: النجارُ ابن مريم؛ وهذا يعني أن المسيح عليه السلام أيضًا كان يعمل نجّارًا.

لا شك أن المسيح كان يسمي نفسه ابن آدم، بحسب ما ورد في أماكن كثيرة من الإنجيل، ولكن لا خصوصية للمسيح عليه السلام في ذلك، فجميع البشر مشتركون معه في هذا الأمر. أما القرآن الكريم فيسمي المسيح باسم يُعرَف به بسهولة. ولو أن القرآن دعاه عيسى بن آدم لظل الإشكال في مكانه، إذ يوجد في الدنيا آلاف الناس الذين اسمهم عيسى، وهم من أبناء آدم طبعًا. فلو سماه القرآن ابن آدم فقط لزاد الإشكال أكثر، لأن الجميع أبناء آدم، فكيف يتم تمييزه عن الآخرين يا ترى؟

أما اسم "ابن الله" الذي يطلقه المسيحيون على المسيح عليه السلام، فقد ورد في التوراة بكثرة، فما كان صالحًا لتمييز المسيح عن الآخرين بصورة قطعية، لأن جميع الصالحين الأبرار هم أبناء الله تعالى بحسب التوراة. أما إذا كان المسيحيون يفسرون لفظ ابن الله بمعنى الابن الحقيقي لله تعالى فيجب أن يقدموا على ذلك دلائل ظاهرة، ولكن لا وجود لمثل هذه البراهين.

فالواقع أن معرفة المسيح وتمييزه إنما تتم بذلك الاسم الذي قد اختاره الله لـــه في القرآن الكريم أي "ابن مريم". ذلك أننا، كما قلت، لو نادينا عيسى فقط لوجدنا في كل محافظة عشرات الناس الذين اسمهم عيسى. ويوجد في جماعتنا أيضًا عدة أشخاص بهذا الاسم، وإن قل استعماله الآن حيث يحب الناس محمدًا وأحمد أكثر من عيسى، فيفضلون تسمية أولادهم بمحمد وأحمد. أما المسلمون القدامى فيوجد بينهم مئات باسم عيسى. إذًا فلو سُمي المسيح باسم عيسى فقط لم يدل

هذا على شخصه بصورة قطعية. ولو سمي عيسى ابن آدم لظلت المشكلة كما هي، لأن كل من اسمه عيسى هو من أبناء آدم أيضًا، ولا خصوصية للمسيح في ذلك. ولو سمي ابن الله لقال الناس إنه كذب وافتراء. فدفعًا للبس والإشكال أطلق القرآن على المسيح اسم "عيسى ابن مريم"، وهو اسم لا يمكن الاعتراض عليه بوجه من الوجوه. فالجميع راضون به، ويعترفون أنه هو الاسم المناسب جدًا لمعرفة شخص المسيح عليه السلام.

فثبت أن الاسم الذي اختاره الإنجيل والمسيحيون للمسيح اسم خاطئ، وأن الاسم الذي اختاره القرآن الكريم لـــه هو الحق والصواب.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

ما كان لله: يقال "ما كان لـــه أن يفعل كذا" أي أنه لا يقدر على فعل كذا لكون الفعل أسمى من طاقته، أو لكونه لا يليق بمكانته. وكأنه يعني أن ذلك الفعل يفوق طاقة ذلك الشخص، أو أن ذلك الشخص أسمى من أن يقوم بذلك الفعل.

التفسير: وغنيٌّ عن البيان أن أحد المفهومين المذكورين أعلاه لا ينطبق هنا.. أي أن قوله تعالى ﴿ما كان لله أن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَد سُبْحَانَهُ﴾ لا يعني أبدًا أن ليس في الله القدرة على أن يكون لـــه ولد. إذ يمكن أن يعزى مثل هذا القول إلى النساء، ولكن لا يقال هكذا عن الله تعالى. إذًا فإن المعنى الثاني هو الذي ينطبق هنا.. أي أن الله تعالى أسمى من أن يعزى إليه مثل هذا الأمر الدال على الضعف والهوان، فيقال أنه قد اتخذ ولدًا.

والجدير بالذكر أن الله تعالى قد قال هنا ﴿ما كان لله أن يتخذ مِن ولد﴾، ولم يقل "ما كان لله أن يكون لـــه ولد"، والظاهر أن هناك فرقًا بين التعبيرين. وقد قال القرآن هكذا لأن المسيحيين أنفسهم مختلفون في هذا الأمر. فمنهم من يعتقد

أن الله تعالى قد اتخذ ولدًا، ومنهم من يقول أن لله ولدًا. ويرى الفريق الأول أنه إذا قيل للناس أن المسيح ابن الله فلن يصدّقوا ذلك، إذ سيقولون: هل كانت ثمة امرأة أنشأ الله معها العلاقات الزوجية، فولدت لـــه ابنًا؟ ومن أجل ذلك يقول هؤلاء أن الله تعالى قد اتخذ ولدًا ولا يقولون أن لله ولدًا، زاعمين أن عظمة الله تعالى وقداسته شاءت أن يتخذ لنفسه ولدًا، فاتخذ المسيح ولدًا لـــه. فتعبير ﴿ما كان لله أن يتخذ مِن ولد﴾ راجع إلى هذا الاختلاف الموجود بين النصارى. والمعنى أنه لما يتنافى مع عظمة الله تمامًا أن يتخذ من ولد. وهذا التعبير يدحض زعم الفريقين كليهما، سواء أقالوا إن الله اتخذ ولدًا أو قالوا أن لله ولدًا. ذلك أنه ما دام اتخاذ الولد يتنافى مع عظمة الله تعالى، فوجود الولد لـــه ﷻ أيضًا ليتعارض مع عظمته تعالى تمامًا.

وليكن معلومًا أن القاعدة تقول إن البيّنة على المدّعي. فمثلا لو قال المرء لصاحبه إن على رأسك قرنين، فكذّبه هذا، فلا يمكن للمدّعي أن يقول له: حسنًا، إذا لم يكن على رأسك قرنان فهاتِ بالبيّنة. ولو قال ذلك لعدّه الجميع مجنونًا، وقالوا له: كلا، إنما عليك أنت البينة والبرهان، لأنك أنت المدّعي، وليس على صاحبك أن يقدم أي برهان على ما تدّعيه أنت.

فبما أن المسيحيين يدّعون أن المسيح عليه السلام كان ابن الله تعالى فعليهم تقع مسؤولية تقديم الأدلة على صدق دعواهم. وغاية ما يمكن أن يدللوا به هو قولهم أن المسيح قد سُمِّي في الإنجيل "ابن الله" فهو ابن الله عندنا. فلنرجع إلى الإنجيل لنرى هل وردت كلمة "ابن الله" في الإنجيل بالمفهوم الذي يزعمه المسيحيون.

ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "ولكن الذين حُسِبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون، إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضًا لأنهم مثل الملائكة، وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة" (لوقا ٢٠: ٣٥-٣٦).

يوضح المسيح عليه السلام هنا أن بعض الناس ينذرون حياتهم في سبيل الله تعالى، وهؤلاء لا يموتون موتًا روحانيًّا أبدًا، ويُسمَّون أبناء الله تعالى. وكأن المسيح عليه السلام يسمي كل الصالحين الأبرار "أبناء الله".

ثم ورد في العهد القديم أن الله تعالى قال لإرميا: "لأني صرتُ لإسرائيل أبًا، وأفرايمُ هو بِكري" (إرمياء٣١: ٩). وهنا قد سمى الله تعالى بني إسرائيل كلهم "أبناء الله"، بينما اعتبر أفرايمَ، وهي إحدى القبائل الإسرائيلية، الابنَ البِكرَ لـــه ﷻ.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "فليُضِئْ نورُكم هكذا قُدّامَ الناس، لكي يروا أعمالَكم الحسنة، ويمجِّدوا أباكم الذي في السماوات" (متى ٥: ١٦). وهنا قد سمى المسيح عليه السلام كل الذين كان يخاطبهم أبناء الله تعالى.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" (متى ٦: ٨).

ثم إن المسيح عليه السلام قد اعتبر اللهَ تعالى أبًا للجميع في الدعاء الذي علّمه أتباعَه حيث أمرهم أن يدعوا الله تعالى قائلين "أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمُك" (متى ٦: ٩).

كما ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "فإنه إنْ غفرتم للناس زلاتِهم يَغفِرْ لكم أيضًا أبوكم السماوي" (متى ٦: ١٤).

ثم نجد في الإنجيل المسيح عليه السلام يلوم الصائمين المرائين ويقول إن هؤلاء لا يستحقون أي جزاء على صيامهم: "لا تَظهَرْ للناس صائمًا، بل لأبيك الذي في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانيةً" (متى ٦: ١٧-١٨).

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "ولا تخافوا من الذين يقتُلون الجسد، ولكن النفسَ لا يقدرون أن يقتلوها. بل خافوا بالحريِّ مِن الذي يقدِر أن يُهلِك النفسَ والجسدَ كليهما في جهنم. أليس عصفورانِ يُباعان بفلْسٍ، وواحدٌ منهما لا يسقُط على الأرض بدون أبيكم. وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاةٌ" (متى ١٠: ٢٨-٣٠).

كما ورد في الإنجيل قوله عليه السلام: "وإن لم تغفروا أنتم لا يَغفِرْ أبوكم الذي في السماوات أيضًا زلاتِكم" (مرقس ١١: ٢٦).

فترى أن البشر كلهم قد اعتُبروا هنا أبناء الله تعالى.

ثم ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "فكونوا رحماءَ كما أن أباكم أيضًا رحيم" (لوقا ٦: ٣٦).

كما ورد في موضع آخر قوله عليه السلام: "وأما أنتم فأبوكم يعلَم أنكم تحتاجون إلى هذه" (لوقا ١٢: ٣٠).

كما جاء أيضًا: "لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوتَ" (لوقا ١٢: ٣٢).

ثم ورد في الإنجيل أن اليهود قالوا: "لنا أب واحد وهو الله" (يوحنا ٨: ٤١). وهذا يدل على أن هذا التعبير كان شائعًا بين اليهود، فكانوا يسمون أنفسهم أبناء الله تعالى. كما أن التوراة نفسها أطلقت هذا الاسم على اليهود. ثم إن المسيح عليه السلام نفسه قد سمى الجميع أبناء الله تعالى، ونصحهم أن يدعوا الله تعالى قائلين "أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمُك".

وإذا فحصنا رسائل الحواريين وجدناها تؤكد الأمر نفسه حيث ورد: "إله وآبٌ واحد للكُلّ، الذي على الكلّ، وبالكلّ، وفي كلِّكم" (الرسالة إلى أهل أفَسُس ٤: ٦).. أي أن الله تعالى أب لجميع البشر، وأن البشر كلهم أبناؤه.

كما ورد في التوراة أيضًا أن الله تعالى قال: "إسرائيل ابني البِكرُ" (الخروج ٤: ٢٢).

فثبت من هذا أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مليء بعبارات تنصّ أن جميع البشر، بما فيهم البار والشرير، أبناء الله تعالى وخاصة الأبرار منهم، وبالأخص حواريو المسيح وبنو إسرائيل؛ فكانوا يقولون أن الله تعالى هو أبوهم، كما أن الله تعالى نفسه كان يسميهم أبناءه سبحانه وتعالى. كما نجد أن المسيح عليه السلام نفسه كان يعلّم الناس أن ينادوا الله تعالى في دعائهم "أبانا". فإذا كان الإنجيل يذكر في موضع ما أن المسيح ابن الله تعالى، فلا مناص لنا من أن نفسر هذا التعبير على ضوء ما هو ثابت في المواضع الأخرى من الكتاب المقدس. ولا يجوز لنا إطلاقًا أن نأخذه بأي مفهوم سواه. كما لا يحق للمسيحيين أن يؤلّهوا المسيح لمجرد أن الإنجيل قد سماه ابن الله تعالى.

قصارى القول إن الله تعالى يعلن في القرآن ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾.. أي أنه مما يتنافى مع عظمة الله تمامًا أن يتخذ أحدًا ولدًا لـــه سبحانه وتعالى. أما أن يعتبر الله

أحدًا بمنـــزلة الولد فهو شيء مختلف تمامًا، إذ ليس معناه إلا أن الله تعالى يعدّه من أحبّته المقربين. ولكن القول أن الله تعالى "اتخذ ولدًا" يرادف القول أن لله تعالى ولدًا في الحقيقة؛ مع أن الله تعالى لا يمنح أحدًا منـــزلة ابن حقيقي لـــه ﷻ. ذلك لأن الابن الحقيقي يرث أباه، ومن المستحيل أن يجعل الله أحدًا وارثًا لـــه ﷻ لأنه تعالى حي لا يموت. كما أن الابن الحقيقي يرث من أبيه يده وأنفه وأذنه ووجهه وغيرها من الأعضاء كلها، ومن المحال أن يرث عبد من العباد صفات الله تعالى حقيقةً. إن التحلي بصفات كصفات الله تعالى شيء، أما اقتناء صفات الله تعالى بالإرث فشيء مختلف تمامًا. إن التحلي بصفات كصفات الله تعالى ممكن ويتأتى بالجهد والاكتساب، شأن التلميذ الذي يأخذ ما يأخذ من أستاذه بالجهد والاكتساب. أما الابن فيأخذ من أبيه كثيرًا من الأشياء بالوراثة، وأخذ أي شيء من الله تعالى بالوارثة محال، إذ لا يُمنح أحد شيئًا من عند الله تعالى إلا من خلال الاكتساب أو على سبيل العطاء. وعلى سبيل المثال، إن الإنجليز بِيضُ اللون، وكلما وُلد عندهم مولود جاء أبيض اللون، ولم يحدث قط أنهم دعوا ولدًا من أولادهم بعد فترة من ولادته، وقالوا لـــه تعالوا نمنحك شيئًا من بياضنا. وبالمثل كلما جاء مولود عند الأفارقة جاء أسود اللون، ولم يحدث قط أن دعا أحدهم ولده وقال لـــه تعال أُعطك من سوادي أو أمنحك من شعري وأنفي وأذني ووجهي وما إلى ذلك. إنه يولد آخذًا كل هذه الأشياء والصفات من آبائه بالوراثة. ولكن لا يمكن أن يكون أحد ابنًا لله تعالى على هذا النحو، كما لا يليق بالله تعالى أن يُعزى إليه مثل هذه الأمور.

أما أن يسمي الله تعالى أحدًا من العباد ابنًا لـــه تعبيرًا عن حبه لـــه وعطفه عليه فلا خصوصية للمسيح عليه السلام في ذلك، إذ يخبرنا الإنجيل أن البشر كلهم، بما فيهم الفاجر والبارّ، أبناء الله تعالى (لوقا ٦: ٣٥).

أما الآن فلنفحص الكتاب المقدس لنرى هل يوجد فيه ما يدعم ما أعلنه القرآن الكريم في قول الله تعالى ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾.

ولا يغيبن عن البال أن القرآن الكريم يستعمل لفظ "الله" للذي هو متصف بالصفات الحسنة والمحامد كلها، والذي هو خالق الكون كله ومالكُه ﷻ. وهو اسم عَلَم لـــه ﷻ. ولا يوجد اسم عَلَم لذات البارئ تعالى في أي لغة من اللغات إلا العربية. لا شك أن التوراة قد استعملت لفظ "يهوه" استعمالاً يوهم وكأنه عَلَمٌ لذات البارئ تعالى، ولكنه ليس كذلك في الواقع. الحق أن هناك تشابهًا كبيرًا بين العربية والعبرية، وذلك لأن إبراهيم عليه السلام كان وطنه الأصلي العراق الذي هو جزء من الجزيرة العربية، ثم هاجر إبراهيم من العراق إلى كنعان وأقام هناك. ثم فيما بعد انتقل قومه من هناك إلى مصر. وأثناء إقامة إبراهيم في كنعان جاءت الحكمة الربانية بابنه إسماعيل إلى مكة؛ بينما مكث الابن الآخر إسحاق مع إبراهيم؛ ومن أجل ذلك كان بين اللغتين اللتين تكلما بهما شَبَهٌ كبير جدًّا. والحق أنه كان بين العربية والعبرية فرق ضئيل جدًّا في البداية. ولفظ "يهوه" الذي يقال عنه أنه عَلَمٌ لذات البارئ تعالى في التوراة إنما هو في الحقيقة لفظ عربي معدَّل.

على كل حال، يوجد في التوراة لفظ "يهوه" حيث ورد: "أنا يهوه*. هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخَرَ" (إشعياء ٤٢: ٨).

وهذه الجملة تحتوي على نفس المعنى الذي قد ذكره الله تعالى في قوله ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾، حيث جاء: "أنا يهوه. هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخَرَ".. أي ليس بوسع أيّ كائن أن يشترك معي في عظمتي وجبروتي وقدرتي.

والواقع أن لفظ "يهوه" أصلُه "يا هو".. أي يا من هو غائب عن الأنظار. فثبت بذلك أن "يهوه" أيضًا اسم صفاتي لله تعالى، وليس علَمًا لـــه ﷻ، إذ ليست فيه أي دلالة إلا أن الله تعالى موجود ولكنه غائب عن الأنظار؛ ذلك أن "ياء" في "يهوه" هي للنداء، وتدل على شيء موجود، وأما "هو" فيدل على أنه موجود

* علمًا أن هذا اللفظ قد ورد في بعض النسخ العربية مترجمًا كالآتي: "أنا الرب"، بينمـــا ورد في النسخة الأردية كالآتي: "يهوواه". *(المترجم)*.

ولكنه غائب عن الأنظار، ولذا لا يمكن أن يسمى "أنت" بل يسمى "هو" فحسب. فثبت أن "يهوه" ليس عَلَمًا لله تعالى.

ويمكن للمرء أن يقدر بذلك التشابهَ الكبير بين العربية والعبرية. لا شك أن العبرية قد تغيرت كثيرًا بمرور الزمن الطويل، ومع ذلك نجد حتى في عصر المسيح عليه السلام، الذي كان آخر حقبة بالنسبة للأمة اليهودية حيث تشتتت وتفرقت بعدها تمامًا، تشابهًا كبيرًا بين اللغتين حتى يخيَّل للمرء أن العبرية صورة مشوهة للعربية. فنرى أن آخر ما تفوه به المسيح عليه السلام بحسب إجماع الباحثين قبل أن يُغشى عليه معلَّقًا على الصليب هو قوله: "أيلي أيلي لما شبقتَني" (متى ٢٧: ٤٦، ومرقس ١٥: ٣٤). وهي جملة عربية في الحقيقة، لأن لفظ "أيلي أيلي" يماثل "إيلي إيلي" في العربية أي "إلهي إلهي"، حيث يقال للإله في العبرية "أيل"، وفي العربية "إيل"، فيقول أهل العبرانية "جبرأيل" و"أسرافَيل" بينما يقول العرب "جبرإيل"، و"إسرافيل". وأما لفظ "لما" فهو في الأصل "لِمَ"، وأما "شبقتَني" فهو سبقتَني أي تركتني. والمعنى: إلهي إلهي، لماذا تركتني؟ إذ يقال: سبَقه أي ترَكه وراءه وذهب. فكأن المسيح عليه السلام دعا ربه وقال: يا رب يا رب، لَمَ تركتني وراءك وحيدًا وذهبتَ. لم لم تكن معي حتى تساعدني؟

فما أشبهَ هذه الجملةَ العبرية بالعربية. وكما قلت فإن هذه هي الجملة الوحيدة من كلام المسيح التي هي محفوظة في الإنجيل بصورة يقينية. إذ ليس هناك أي شهادة قاطعة على صدق ما يعزى إلى المسيح في الإنجيل من كلام آخر، في حين أن الباحثين كلهم مجمعون على أن هذه الجملة من كلام المسيح حتمًا ويقينًا. فثبت أن العبرية ليست بلغة منفصلة، وإنما هي لهجة مشوهة من العربية. ولو أدخلتَ تعديلاً بسيطًا في العبرية صارت عربية.

قصارى القول إن أهل العبرية يستخدمون لفظ "أيل" بمعنى الله تعالى. كما أنهم يستعملون كلمة "أَيلَوهِيم" أيضًا لله ﷻ (The United Bible سفر الخروج ٦: ٢). ولفظ "هيم" هنا صورة مبدَّلة لضمير الجمع للغائب في العربية "هُم"، والمعنى الحرفي لِـ "أَيلَوهِيم" هو آلهة، ويعني في الحقيقة الإله العظيم أو الإله الكبير.

كان العرب في الماضي يقولون للمخاطب "أنت"، أما اليوم فبدءوا يقولون "أنتم" أيضًا. كان العرب يخاطبون رسول الله ﷺ دائمًا بقولهم: أنت، (البخاري: كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت)، ولكنهم اليوم يخاطبون كلَّ كبير من القوم من معلم أو مسؤول حكومي أو حاكم محافظة أو والٍ بصيغة "أنتم" بدل "أنت". كذلك لما تطور أهل العبرية أيضًا ثقافة وحضارةً أخذوا يستخدمون كلمة "أَيلَوهِيم" تعظيمًا وإجلالاً لله تعالى. والحق أن هذه الكلمة صورة مبدلة للكلمة العربية "آلهة". وهذا يعني أن ما يقال له في العربية آلهة وإله وإيل، يُطلَق عليه في العبرية أَيلَوهِيم وأيلواه ويهوه وأيل. ولكن ليس أي من هذه الألفاظ العبرية اسمًا عَلَمًا لذات البارئ تعالى، وإنما هي كلها أسماء صفاتية لله ﷻ.

بعد هذه الكلمة التمهيدية أود أن أحيطكم علمًا أنه بالرغم أن التوراة لم تستخدم لفظ "الله" لذات البارئ ﷻ، إلا أن العهد القديم يؤكد كون الله تعالى واحدًا لا شريك لـــه، حيث جاء: "اسمَعْ يا إسرائيلُ، الربُّ إلـــهُنا ربٌّ واحد" (التثنية ٦: ٤). ففي لفظ "رب واحد" دلالة واضحة على كونه تعالى وحده لا شريك لـــه. فثبت بذلك أن التوراة هي الأخرى تؤكد ما أعلنه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ما كان لله أن يتخذ مِن ولد﴾.

ثم ورد في موضع آخر من التوراة: "أنا يهوه. هذا اسمي، ومجدي لا أعطيه لآخَرَ" (إشعياء ٤٢: ٨). فلفظ "ومجدي لا أعطيه لآخَرَ" يشبه تمامًا قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ما كان لله أن يتخذ مِن ولد﴾.. أي ليس له ولد، كما لن يتخذ أحدًا ابنًا له. وكأنه تعالى يعلن هنا: إذا قال أحد أني قد اتخذت أحدًا ابنًا لي ومنحته قدرتي وقوتي، فهذا أيضًا غلط. كلا، فإني لا أمنح أحدًا صفاتي أبدًا.

والآن نفحص الإنجيل نفسه الذي يبنون ألوهية المسيح عليه السلام على ما ورد فيه. إن دراسة الإنجيل تكشف أنه هو الآخر يعلّم أن الله تعالى واحد لا شريك لـــه. حيث ورد فيه أن شخصًا جاء المسيح عليه السلام وسأله عن أكبر وصية. فأجابه المسيح: "إن أول كل الوصايا هي: اسمَعْ يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد" (مرقس ١٢: ٢٩).

ثم إن رسائل حواريي المسيح عليه السلام أيضًا تنصّ على ذلك حيث جاء فيها: "للهِ الحكيمِ وَحْدَهُ، بيسوع المسيح، لهُ المجدُ إلى الأبد" (رسالة بولس إلى أهل رومية ١٦: ٢٧).

فترى أن صاحب الرسالة قد ذكر هنا المسيح إزاء الله الأحد، ودعا أن يكون المجد لله وحده بواسطة المسيح.

ويقول حواري آخر: "لكنني لهذا رُحِمْتُ ليُظهر يسوعُ المسيحُ فيّ أنا أوّلاً كلَّ أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية. ومَلِكُ الدهور الذي لا يفنَى ولا يُرَى، الإلهُ الحكيم وحده، له الكرامة والمجد إلى دهر الدهور." (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ١: ١٦-١٧).

لقد وُصف الله تعالى في هذه الفقرة بكونه أزليًّا، ملكًا، غيرَ فان، غيرَ مرئيٍّ (ولكن المسيح كان مرئيًّا منظورًا) واحدًا وحكيمًا. ومن الواضح الجلي أن وجود الإله المتصف بهذه الصفات كلها يغني الناس عن أي إله آخر.

ثم نقرأ في رسالة أخرى: "الإله الحكيمُ الوحيدُ مخلِّصُنا" (رسالة يهوذا: ٢٥).

فترى أن العهد القديم يعلن أن الله تعالى واحد لا شريك لـــه، كما ينصّ عليه العهدُ الجديد أيضًا. فثبت أن التوراة والإنجيل كلاهما يتفقان مع القرآن الكريم، إذ يعلن كلاهما ما يعلّمه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾. ولكن المؤسف أن كلا الفريقين اليهود والنصارى قد اختلقوا الشرك صنوفًا وألوانًا منحرفين عن جادّة الحق. إن دراسة التوراة تكشف لنا أن جميع الأنبياء الذين بُعثوا إلى اليهود قالوا لهم: لقد بذلنا كل ما في وسعنا لنشرح لكم أن الله تعالى واحد لا شريك لـــه، ولكنكم قوم لا يفقهون حديثًا وتعودون إلى الشرك مرة بعد أخرى.

بعد ذلك يقدم الله تعالى هنا دليلاً على وحدانيته فيقول ﴿سبحانه﴾. وكأنه تعالى يقول إننا لا نركّز على التوحيد تقليدًا بالتوراة، بل على أساس الدليل والبرهان، وهذا الدليل هو ﴿سبحانه﴾.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا تخلّف بعض الكائنات أولادًا؟ لو تدبرت في الكون تبين لك أن قانون الولادة إنما يعمل في الكائنات التي تفنى قبل إنجاز مهمتها. فمثلا إن عمل الإنسان لا ينتهي في الدنيا، بل يموت الإنسان قبل

إتمامه، فيحتاج إلى أولاد. وبالمثل إن الحاجة إلى الخراف موجودة، ولكنها أيضًا تموت، فتخلف وراءها أولادًا. وإن الحاجة إلى الجبال لموجودة، ولكنها لا تفنى فلا تحتاج إلى أي أولاد. ولا يزال الإنسان حتى اليوم بحاجة إلى الشمس والقمر والنجوم كاحتياجه إليها في الماضي، ولكن هذه الأجرام أيضًا موجودة، فلا حاجة لها إلى أي أولاد. فثبت بذلك أن قانون التناسل إنما هو جارٍ في الأشياء التي تفنى قبل أداء مهمتها، وأما الأشياء التي تدوم ما دامت الحاجة إليها فلا تناسل فيها. وهذا هو الدليل الذي قد ذكره الله تعالى في قوله ﴿سبحانه﴾.. أي أن التدبر في حكمة قانون الولادة سيكشف لكم الأسباب وراء وجود الولد، وهي:

الأول الشهوة الجنسية.. أي أن الله تعالى قد جعل في جسم الإنسان بعض المواد التي إذا بقيت بداخله أضرت بصحته، فلا بد من طردها من الجسد. فتخرج هذه المواد حتمًا إما من خلال العلاقة الجنسية بين الزوجين أو عن طريق الاحتلام أثناء المنام.

والثاني: أن كل امرئ بحاجة إلى من يؤنسه ويواسيه وإلا فلن يرتاح بالاً ولا يجد سكينة ولا طمأنينة. ورد في التوراة أن آدم في بداية أمره كان يهيم على وجهه مكتئبًا رغم تيسُّر شتى أسباب الراحة. فقال الله تعالى إن آدم بحاجة إلى زوجة، هلمّ نخلق لـــه زوجة، فخلق لـــه حواء، فزال اكتئابه وقلقه (انظر التكوين ٢: ١٨-٢٢). فالإنسان عندما لا يفرح ولا يرتاح بالاً بمفرده فإنه يحتاج إلى أنيس.

والثالث: أن الذي يموت قبل إكمال المهمة المنوطة به يكون بحاجة إلى ولد يُتمّ عمله حتى لا يتضرر بموته العمل الذي بدأه.

هذه هي الدواعي الثلاثة إلى وجود الولد، وهي كلها تدل على وجود النقص والعيب في صاحبها. فالتسليم بأن في الله تعالى - والعياذ به - مادة لا بد من طردها من داخله وإلا لتضرر بها يعني أن الله تعالى لا يخلو - والعياذ بالله - من عيب ومنقصة. أما القول أن الله تعالى لا يرتاح بالاً من دون أنيس يواسيه فأيضًا يدل على النقصان فيه، حاشا لله. والقول أن الله تعالى سيموت لذا لا بد لـــه من ولد يخلفه في الكون يدل على العيب والمنقصة أيضًا. ومن أجل ذلك قال الله تعالى

هنا ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾.. أي أن الدواعي الثلاثة لوجود الولد تدل على العيب والنقص؛ وإنه لمن المستحيل لمن هو كامل في ذاته أن يكون فيه أي مادة ضارة به، أو أن يحتاج إلى جليس أنيس، أو أن يموت؛ إذًا فلا حاجة به ﷻ إلى أي ولد.

وكان من الممكن أن يقول قائل: إن الله تعالى بحاجة إلى الولد ليساعده، فدفعًا لهذه الشبهة قال الله تعالى في الجملة التالية ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول لـــه كُنْ فيكون﴾.

هذا، ويعترض البعض على قول الله هذا، ويقولون ما هو الذي يقول الله لـــه "كُنْ"؟ وقصدهم بهذا الاعتراض إثبات أزلية المادة التي خلق الله منها الأشياء.*

اعلَمْ أن لفظ "كُنْ" يقال للمخاطب، كما يفيد مجرد التمني أيضًا. فإن رسول الله ﷺ لما خرج في غزوة تبوك ناحية الشام تخلف عنه صحابي له اسمه أبو خيثمة. وكان النبي ﷺ يحبه ويثق به كثيرًا، وكان على يقين أن هذا الصحابي لا يمكن أن يتقاعس عن أداء الواجب. ولكن النبي ﷺ لما سار بالصحابة بعيدًا عن المدينة، وتفقد الجيش لم يجد أبا خيثمة. فبلغ منه ﷺ الحزن كل مبلغ حيث كان يحسن بأبي خيثمة الظن، ومع ذلك تخلف عنه ﷺ في القتال. فلما سار النبي ﷺ بالجيش أخبره بعض صحابته هذا راكبٌ مقبلٌ وراءنا. فنظر النبي ﷺ إلى الوراء وقال "كُنْ أبا خيثمة". فلما سكن الغبار واقترب الفارس فإذا هو أبو خيثمة. فحمد النبي ﷺ ربه وشكره حيث حقق ما تمناه (السيرة الحلبية: الجزء الثالث ص ١٣٣ غزوة تبوك).

فقوله ﷺ "كُنْ أبا خيثمة" لا يعني أن الفارس القادم كان غير أبي خيثمة، ولما قال النبي ﷺ هذا الكلام صار أبا خيثمة. وإنما يعني أن النبي ﷺ تمنى يا ليت هذا الفارس هو أبو خيثمة.

---

* يشير حضرة المفسر ﷺ هنا إلى العقيدة الهندوسية القائلة بأن المادة والأرواح أزليتان مثل الله تعـــالى، وأنه تعالى ليس خالقًا لهما، بل إنه قام بتركيب المادة والروح معًا، فخلق منهما الأشياء. *(المترجم)*

فمن الأســـاليب العربية استخدام "كُن" تعبيرًا عن أمنية وإرادة أيضًا، وليس لتغيير هيئة شيء موجود. وهذا هو المراد من قول الله هذا، وكأنه ﷻ يعلن هنا أن إرادتنا وحدها تكفي لحدوث شيء، فما إن نريد شيئًا إلا ويقع وفق مشيئتنا. فثبت بطلان ما يقول البعض أن كلمة "كُنْ فيكون" تؤكد أن المادة والروح موجودان منذ الأزل مثل الله تعالى، وأنه تعالى إنما يأمرهما فيتشكّلان بالشكل الذي يريده الله لهما. والحق أن هذا الاعتراض ناشئ عن الجهل باللغة العربية. لا شك أن لفظ "كُنْ" يقال للمخاطَب أيضًا، ولكنه يُستعمل أيضًا لمجرد التمني والإرادة بدون أن يوجه الكلام إلى أحد، كقول الرسول ﷺ هنا: "كُنْ أبا خيثمة"؛ إذ لم يكن يعني أن يتحول الفارس القادم، أيًا كان، إلى أبي خيثمة، وإنما تمنى أن يكون الفارس أبا خيثمة. وبالمثل عندما يريد الله تعالى شيئًا فيقع كما يريد ﷻ. غير أننا لا يمكننا أن نقول أن الله تعالى يتمنى ذلك الشيء. لا شك أن البشر إذا أرادوا شيئًا قالوا يا ليت هذا يحدث، ولكن الله تعالى إذا أراد شيئًا أعرب عن إرادته فتأخذ مشيئته في التحقق والوجود من دون تأخير. وهذا هو معنى "كُنْ فيكون".

وليكنْ معلومًا أن من مزايا اللغة العربية أن كلماتها تدل على مدلولها تمامًا. فمثلا، قبل بضعة أيام تلقيتُ رسالة من أحد الإخوة السوريين، وكانت ضمنها هذه الكلمات "إذا أراد الله بشيء". فوقع في بالي عندها أن كلمة "شيء" تتضمن معنى الإرادة والمشيئة أيضًا حيث تعني: "ما يراد ويُشاء"، وفيه ردٌّ على الذين يطعنـــون في قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إن الله على كل شيء قديرٌ﴾ قائلين: هـــذا يعني أن الله قادر على قتل نفسه أيضًا. ذلك لأن كلمة "شيء" تعني المشيئة والمراد. فيكون تقدير قولـــه تعالى ﴿إن الله على كل شيء قديرٌ﴾ كالآتي: "إن الله على كل مشيئته قدير". فكيف يمكن، يا ترى، أن يشاء الله قتله وموته هو. إذًا فلا يصح الاعتراض على قوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قديرٌ﴾.

أما قول الله تعالى هنا ﴿إذا قضى أمرًا﴾ فتقديره: "إذا أراد شيئًا مما أمر به وأجازه". وكأن ﴿أمرًا﴾ يعني هنا "مأمورًا به" مثلما جاءت كلمة "شيئًا" بمعنى

"مشيئة". فلا مجال للاعتراض على هذه التعابير القرآنية. إذ يعني قوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قديرٌ﴾ أنه تعالى قادر على كل ما شاء وأراد، بينما يعني قوله تعالى ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول لـــه كُنْ فيكون﴾ أنه تعالى حين يقرر ما هو ضمن أحكامه ولائق بعظمته ﷻ فإنما يقول "كُنْ" فيقع ما قضى به. فالأمر هنا يعني فقط الشيء الذي قد صدر القرار الإلهي سلفًا بجوازه، والذي قد رضي به، والذي هو لائق بشأنه وعظمته ﷻ. فلا يصح أن يعزى إلى الله تعالى ما هو لغو وعبث، ثم يقال كيف يمكن أن يفعل الله تعالى ذلك؟

وبالفعل يوجد هناك من يقول أن الله إذا أراد أن يسرق فهل يسرق؟ والرد عليه هو: يجب أن نرى هل يأمر أحد نفسَه بنفسه أن يذهب ويسرق؟ ثم هل السرقة من الأمور التي تليق بالله تعالى ويرضى بها؟ فثبت أن هذا الاعتراض دليل على غباء صاحبه فقط.

باختصار، إن الله تعالى يعلن في هذه الآية أنه لا يحتاج إلى الولد إلا من هو غير قادر على القيام بمهمته، فيحتاج إلى مساعدة من غيره. ولكن الله تعالى في غنى عن مساعد ومعين، وإنه فعّال لما يريد بمفرده؛ فكيف يمكن إذًا التسليم بوجود ابن لـــه أو الروح القدس؟

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

التفسير: أي ما دمتم أنتم تؤمنون بأن الله تعالى فعّالٌ لما يريد، وقادر على كل شيء، فما الداعي لأن تتركوا القادر المطلق وتقولوا قد اتخذ الله ولدًا؟ إن الله ربي وربكم، هو مالكي ومالكـــكم أيضًا، فلِمَ هذا النـــزاع والعداء؟ اتركوا النـــزاع، فهذا صراط مستقيم. لقد انحرفتم إلى أشياء تسلّمون بعدم الحاجة إليها. فتعلمون أن الله تعالى أسمى من الموت والفناء حتى يحتاج إلى الولد. وتسلّمون أنه تعالى في غنى عن الزوجة. وتدركون أن الله تعالى أعظم من أن تكون فيه ﷻ مادة تتسبب في إنجاب الأولاد. فما دمتم تعترفون بكل هذه الحقائق فتعالوا واعبدوا الله وحده،

متمسكين بالصراط المستقيم. لم تنحرفون عن الصراط المستقيم وتسلكون سبلاً جائرة؟

فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

التفسير: الأحزاب جمع الحزب ومعناه "الجماعة من الناس". غير أن أهل اللغة يرون أنه لا يعني الجماعة من الناس فحسب، بل معناه "كل قوم تشاكلت قلوبُهم وأعمالهم فهم أحزاب وإنْ لم يلقَ بعضُهم بعضًا" (الأقرب). لا شك أنك لو رأيت خمسين أو ستين رجلاً واقفين في مكان فلك أن تسميهم حزبًا بمعنى طائفة من الناس، ولكن كلمة الحزب تُطلَق خاصة على قوم يحملون فكرة واحدة وعقيدة واحدة. فمثلاً هناك جمعٌ من الناس بينهم المسيحيون واليهود والمسلمون والملحدون والمنتمون إلى الجماعات السياسية، فلن تسميهم حزبًا في المصطلح، وإنما تطلق كلمة الحزب على مجموعة من الناس يكون طابع أفكارهم وأعمالهم الدينية والحضارية والسياسية موحدًا.

إذًا فقوله تعالى ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ لا يمكن أن يؤخذ بمعنى أي جماعة من الناس، إذ كيف يختلف فيما بينهم مَن لا رغبة لهم في المسيح ولا علاقة لهم به، وإنما المختلفون هنا من ينتمون إلى المسيح عليه السلام.

بيد أن كلمة الحزب إذا أُخذت بمعنى "قوم تشاكلت قلوبُهم وأعمالهم" واجهَنا إشكال آخر، وهو: ما دامت أفكارهم وأعمالهم موحدة فأين مجال الاختلاف بينهم؟ فثمة تعارضٌ فيما يقوله القرآن على ما يبدو، حيث يقال من جهة إنهم متحدون في أهوائهم وأعمالهم، ويقال، من جهة أخرى، إنهم مختلفون؟

فليكن معلومًا أن الاختلاف إنما يقع حيث الاتفاق والاتحاد. فإن الناس، كما قلت، إذا لم يكونوا راغبين في شيء فلا مجال لأن يختلفوا فيه أيضًا. إنما يكتسب الاختلاف الأهميةَ إذا كان القوم موحَّدين في أفكارهم وأعمالهم أولاً، ثم يختلفون.

وعلى سبيل المثال، لو اختلف المسلمون في القرآن الكريم لكانت لاختلافهم أهمية كبيرة حيث يقال إنهم يؤمنون بالقرآن الكريم، ومع ذلك يختلفون فيه. ولكن إذا اختلف المسيحيون فيما بينهم حول القرآن الكريم فلا أهمية لاختلافهم، لأن الجميع يقول إنهم لا يؤمنون بالقرآن، فما قيمة اختلافهم حوله. فثبت أن الاختلاف إنما يكون ذا أهمية إذا ما حصل بين قوم أفكارهم وعقائدهم موحدة. وإن كلمة ﴿مِن بينهم﴾ أيضًا تكشف أن الحزب لم يرد هنا بمعناه العام أي "الجماعة من الناس"، بل بمعنى القوم ذوي العقائد والأفكار الواحدة؛ ومثل هذا الاختلاف هو الذي يبعث على الاستغراب والعجب، حيث يقال إنهم يؤمنون بكتاب واحد ورسول واحد وغاية واحدة، ومع ذلك يختلفون!

فقول الله تعالى ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾.. يعني أن هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ويحبّونه كان كتابهم واحدًا، وعقيدتهم واحدة، وأعمالهم واحدة، ومع ذلك اختلفوا فيما بينهم للأسف الشديد. فمنهم من يقول أن مريم كانت بشرًا ومع ذلك وضعتْ لله ولدًا (لوقا ١: ٢٦-٣٥). ومنهم من يقول أن مريم كانت زوجةً لله تعالى وكانت تتصف بصفات إلهية؛ فقد أعلن البابا قبل حوالي سنة ونصف أن هذه هي العقيدة الرسمية للكاثوليك. ومنهم من يقول أن الإله واحد، وأن المسيح لم يكن إلا مظهرًا للصفات الإلهية، وأنه جاء إلى الدنيا كإنسان. ومنهم من يقول أن المسيح كان إلهًا، وأنه كان إلهًا متجسدًا؛ وأنه لا بد من الإيمان بثلاث شخصيات كل واحدة منهن إله. بينما يقول البعض الآخر أنه لا حاجة للإيمان بثلاث شخصيات إلهية، بل يكفي الإيمان بثلاثة مظاهر للإله. ويقول هؤلاء أن المسيح الذي جاء في الدنيا كان بشرًا، ولكنهم يقولون أيضًا أن الإله الابن كان غير الإله الأب، وأنه (أي الإله الابن) سرى في المسيح الإنسان الذي جاء إلى الدنيا. إنهم لا يؤمنون بوجود ثلاث شخصيات إلهية، بل بوجود ثلاث صور للإله، حيث يقولون أن الإله أب من جهة، وأنه ابن من جهة أخرى، وأنه الروح القدس من جهة ثالثة. بينما يقول الذين يؤمنون بوجود ثلاث شخصيات إلهية أن الإله الأب وجود منفصل، وأن الإله الابن وجود منفصل، وأن الإله الروح القدس وجود منفصل.

فإلى ذلك الاختلاف يشير الله تعالى في قوله ﴿فاختلف الأحزاب مِن بينهم﴾.. أي أن هؤلاء المؤمنين بالمسيح رغم اشتراكهم في الدين والعقيدة والعمل قد وقعوا في الاختلاف!

ثم يقول الله تعالى ﴿فويلٌ للذين كفروا مِن مشهدِ يومٍ عظيمٍ﴾. إن الاختلاف الموجود بين هؤلاء يحتّم اعتبار أحد الفريقين على الحق والفريق الآخر على الضلال. فمهما تعددت فِرقهم إلا أنهم سيُعَدُّون فريقين بسبب الاختلاف، ولا بد من اعتبار أحدهما على الحق والآخر على الباطل. ويقول الله تعالى: الويل للذين وقعوا منهم في العقائد الباطلة. لقد بعث الله الأحدُ عبدًا من عباده لنشر التوحيد، ولكنهم اتخذوا هذا العبد هو الآخر إلهًا. وإنها لجريمة شنيعة قد ارتكبوها، فلهم العذاب واللعنة. علمًا أن الويل يعني العذاب وأيضًا اللعنة. فالمعنى أن الذين كفروا بالمثول أمام ربهم في يوم عظيم سيحلّ بهم عذابي، وسأقول لهم: اخسأوا عني ولا تكلّمونِ. لا شك أن الإنسان يتمنى شهود ذلك اليوم العظيم، ويودّ أن يشاهد اللهَ تعالى فيه، ظنًّا منه أنه سيتلقى منه الجوائز والصلات، ولكنه لو أتى الله تعالى مجرمًا فمن ذا الذي يكون أكثر منه ذلة وأشد منه شقاءً؟

ورد في التاريخ أن الصحابي ضرار ﷺ كان ضمن الجيش المسلم الذي خرج لمحاربة جنود قيصر. فتقدم قائد من الجيش المسيحي مبارزًا المسلمين، وقتل كثيرًا منهم. فدعا قائدُ الجيش المسلم أبو عبيدة ﷺ ضرارًا وأمره بقتاله. فخرج ووقف مواجهًا للمحارب الكافر. ولكنه ولّى مدبرًا فجأة وأخذ يجري إلى خيمته. فاستولى اليأس والقنوط على جنود المسلمين، وبدأ النصارى يرفعون الهتافات فرحًا وابتهاجًا. فبعث أبو عبيدة أحدًا من جنوده إلى ضرار يسأله عن سبب الفرار من ساحة القتال. فوجده الرسول وهو يخرج من خيمته. فقال لـــه: يا ضرار، لقد لطّختَ اليوم سمعة المسلمين كلهم، وقد اكتسحتْ موجة من اليأس الجيش المسلم من جراء ما فعلتَ. لماذا فررت من القتال؟ قال ضرار: الواقع أنني لما خرجتُ لمبارزة قائد الكافرين ووقفت إزاءه وجهًا لوجه تذكرت فجأة أنني ألبس الدرع منذ الصباح. وكنت أعرف أن هذا الكافر يحسن الضرب بالسيف والطعن بالرمح.

فقلت في نفسي يا ضرار، هل تكره لقاء الله تعالى حيث خرجت لقتال هذا الكافر لابسًا الدرع خوفًا من أن يقتلك بضربة أو طعنة؟ فلو قُتلت اليوم فليس بك إلا الجحيم، لأن الله تعالى سيقول لك إنك لم تُرد لقائي. لو أحببتَ لقائي لما خرجتَ لساحة القتال لابسًا الدرع. فجريتُ إلى خيمتي لأخلع الدرع، حتى إذا قُتلتُ لقيتُ ربي ضاحكًا مسرورًا.

فليس المراد من "يوم عظيم" إلا يوم لقاء الله تعالى، ولكن لا معنى للقاء الله تعالى إلا إذا سُرّ العبد بذلك. ولكن الله تعالى يعلن هنا ﴿فويلٌ للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم﴾.. أي ما أتعسَه حظًّا وما أكثرَه لعنةً ذلك المرء الذي حين يلاقيه ربه يتمنى الفرار من عنده بدلاً من أن يُسَرّ بلقائه. وهذا هو الخزي والهوان الذي سيصيب هؤلاء القوم لأنهم قطعوا صلتهم عن الذي كان من واجبهم أن يكونوا على صلة به ﷻ، ورفعوا عبدًا متواضعًا من عباد الله تعالى إلى منصب الألوهية.

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

التفسير: لقد قال علماء الصرف والنحو- على العموم - في قوله تعالى ﴿أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ﴾ إنه تعجّبٌ، والمعنى: ما أكثرَهم سمعًا وما أحدَّهم بصرًا في ذلك اليوم! بينما قال بعض النحويين إنه ليس تعجّبًا، بل هو أمرٌ حقيقةً (إملاء ما منّ به الرحمن)، والمعنى: يا مخاطبُ، أَسمِعْ هؤلاء وأَرِهم حالَهم.. أي اكشِفْ لهم حالتهم الحقيقية تمامًا.

ولكني أرى أن المعنى الأول هو الأجدر بالأخذ لكونه مطابقًا لاستعمال العرب.

ثم قال الله تعالى ﴿يومَ يأتوننا﴾.. ذلك لأنه ستنكشف في ذلك اليوم الأمور كلها، ويزول كل إشكال وانحراف قد تطرق إلى مسائل الدين، وتُزال الغشاوة التي تغطي أبصار الناس نتيجة الأباطيل والخرافات المنسوجة من قِبل الأحبار والرهبان والكهان والمشايخ. فتسمع الآذان عندها الحقيقة، وسترى الأبصار الحق عيانًا.

ولكن ماذا ستكون نتيجة انكشاف الحقيقة عندئذ. سيفرح المؤمن لدى انجلائها لإيمانه بها في الدنيا أيضًا، إذ لا ينكشف عليه شيء جديد، بل سيتجلى عليه نفس ما كان مؤمنًا به في الحياة الدنيا. فالمؤمن الذي يؤمن بأن الله حميد، مجيد، غفار، ستار، مهيمن، شكور، غفور، رب، رحمن، رحيم ومالك يوم الدين.. سيتيسر له إدراك أوسع بكثير لصفة الرحمن والرحيم ومالك يوم الدين وغيرها من صفاته ﷻ عند انكشاف الحقيقة عليه يوم القيامة ومثوله أمام الله تعالى؛ ومع ذلك سيكون مسرورًا لمعرفته أنه كان يسير في الدنيا على جادة الحق والصواب. شأنه شأن المرء الذي يرى خضرة من بعيد، وحين يقترب منها يشهد مشهدًا آخر تمامًا لانكشاف الحقيقة عليه. ورغم وجود البون الشاسع بين مشاعره لدى رؤية الخضرة من بُعد وبين رؤيته الخمائل الخضراء عن قريب، إلا أن هذا لا ينقص من ابتهاجه وإنما يزيده فرحةً وسرورًا. أما الكافر فمثله كمثل المسافر الذي يرى أفعى كبيرة من بعيد، ولكنه لضعف بصره يظنها تلة من التلال، فيمشي نحوها ليقضي عليها الليل في مأمن من هجوم الضواري؛ ولكنه حين يقترب من المكان يجد أنه ليس بتلة بل هي حية ضخمة، فتستولي عليه الحسرة واليأس. هذا ما سيحدث بالكفار يوم القيامة، فعندما تنجلي عليهم الحقيقة يقولون يا حسرتنا، ما هذا الذي حدث. إنه عكس ما ظنناه.

أما قوله تعالى ﴿لكنِ الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ فهو لا يعني أن الإنسان يصير في ضلال مبين بعد أن يصبح مصداقًا لقوله تعالى ﴿أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ﴾.. أي بعد انجلاء الحقائق عليه. كلا، بل حين تنفتح عينُه وبصره فإنه ينال الهدى. إنما المراد من هذه الجملة أنهم سيدركون عندها أن ما آمنوا به كان باطلا، ولكن هذا الإدراك لن ينفعهم عندها شيئًا، إذ يُجزَى المرء عندئذ بحسب ما آمن به من قبل. إن المسيحي الذي يدرك عندئذ أن الله تعالى واحد لا شريك لـــه لن يتطهر من الشرك بإدراكه هذا، وإلا فلماذا سيُلقى في النار؟ فثبت أن قوله تعالى ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ يعني أنهم سيدركون عندئذ أنهم كانوا في ضلال مبين، وليس أنهم سيَضلّون عندئذ.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

التفسير: لقد سمى الله تعالى ذلك اليوم ﴿يوم الحسرة﴾ لانجلاء الحقيقة فيه، وبما أنها ستكون على عكس ما آمنوا به، فيتحسرون ويتأسفون بانكشاف خطأ معتقداتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿إذ قُضي الأمر﴾ أي يوم يقضى بحسب الحقائق، أو يوم يتم الإعلان عن أمر الله وقضائه. وبما أن الإعلان عن قضائه تعالى سيتم تأييدًا للحق لا للباطل، فيقولون والحسرة تعتصر قلوبهم: يا ليتنا آمنّا بالحق من قبل.

ثم يقول الله تعالى ﴿وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾.. أي أنهم رغم إدراك الحقائق كلها سيظلون فرسى للغفلة، ولن يتخذوا الخطوة إلى الإيمان.

هنا تنكشف لنا حقيقة عجيبة، وهي أن القلوب لا تتغير فجأة رغم رؤية الحق عيانًا. فإن الله تعالى يقول هنا ﴿أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ﴾ أي بالرغم أنهم حينذاك سيسمعون ويبصرون أيضًا، ﴿يوم يأتوننا﴾ أي أنهم يكونون ماثلين أمامنا، ﴿إذ قُضي الأمر﴾ أي يكون القرار قد صدر من قِبلنا، ﴿وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾.. إلا أن قلوبهم لن تتطهر جراء ما سبق منهم من الكفر والسيئات، فيُدخَلون في الجحيم. وهذا يدل على أن المرء، رغم انكشاف الحق عليه، لا يترك سيرته الأولى بسبب تعوده عليها، وإنما يؤثر الظلمة على النور. فترى أن الكفار يرون الآيات بكل أنواعها ومع ذلك يصرّون على الرفض والإعراض، ولا تتطهر قلوبهم قليلاً حتى يسري إليها نور الله تعالى. إنهم يرون الآيات ومع ذلك يظلّون بعيدين عن الهدى.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

التفسير: لقد أخبر الله تعالى في الآيات السابقة أن الحقيقة ستنكشف على المسيحيين يومًا، فيدركون أن الله تعالى ليس معهم، بل هو مع دين آخر، ومع ذلك

سيُعرضون عن قبول الحق. أما الآن فيقول الله تعالى ﴿إنا نحن نرِث الأرض ومَن عليها وإلينا يُرجَعون﴾.. أي أن هؤلاء سينالون الحُكم على الناس والأموال، أما يومَ الفصل فيُنـــزع منهم الحُكم ليوهَب للمؤمنين والمتمسكين بالحق. وكأن هذه الآية تنبئ عن غلبة الإسلام والأحمدية، كما أنها تشير إلى أن المسيحية ستكون غالبة على العالم كله في تلك الأيام. لا شك أن المسيحية كانت تتمتع بالحكم وقت نـــزول هذه الآيات، ولكنه كان حكمًا محدودًا جدًّا، بينما يخبر الله تعالى هنا أنه سينـــزع منهم حكم العالم كله في يوم من الأيام، وكان هذا نبأً بوقوع العالم كله في نفوذهم وتحت سيطرتهم، إذ لا يُنـــزع الشيء من أحد إلا إذا كان في يده. فالإعلان الرباني عن انتزاع حكم العالم من يد المسيحيين يتضمن في الحقيقة نبوءتين. فمثل هذا الإعلان كمثل شخص يقول عن رجل فقير إنه سينـــزع من يد هذا الفقير مائة مليون دينار. فهذا القول ينطوي على مفهومين: أولهما أن هذا الفقير سيملك مئة مليون دينار بعد أيام، والثاني أن هذا المبلغ سيُنـــزع منه فيما بعد. فثبت أن قوله تعالى ﴿إنا نحن نرِث الأرض ومَن عليها﴾ قد انطوى على نبوءتين: إحداهما أن المسيحيين سيستولون على مقادير العالم كله في يوم من الأيام، ويرثون الأرض كلها، ويقع أهلها كلهم تحت سيطرتهم، والثانية أن الله سيرث الأرض ومن عليها في يوم من الأيام.. أي سينـــزع من المسيحيين حكم العالم ليرثه عباده الصالحون.

واعلم أن قوله تعالى ﴿إنا نحن نرث الأرض﴾ يشير إلى القوة المادية للمسيحيين، أما قوله تعالى ﴿ومَن عليها﴾ فهو نبأٌ عن كثرتهم العددية في العالم في الزمن الموعود. أي أنهم لن يتمتعوا بالنفوذ المادي في العالم ولن يأخذوا زمام حكمه في أيديهم فحسب، بل سيكثر أتباع المسيحية أيضًا في الأرض. وبالفعل قد اكتُشفت أمريكا التي تقع في قبضة المسيحيين بعد نـــزول هذا النبأ القرآني. فلو انتزع الله أمريكا فإنما ينتزعها من يد المسيحيين لأنهم الغالبون هناك. ولو انتزع ﷻ الفيليبين فإنما ينتزعها من يد المسيحيين أنفسهم. ولو انتزعت كثير من المناطق ذات الأكثرية المسيحية بالصين، حيث توجد بها مئات الملايين من المسيحيين، فإنما تُنـــزع من

المسيحيين أنفسهم. ولو انتُزعت أستراليا فإنما تُنـــزع من المسيحيين أنفسهم. ولو انتُزعت روسيا فإنما تنـــزع من المسيحيين أنفسهم وإن كانت الدهرية قد سادتها. ولو انتُزعت أوروبا فإنما تنـــزع من المسيحيين أنفسهم. ولو انتزعت أفريقيا فإنما تنـــزع معظمها من المسيحيين أنفسهم. ولو انتزعت الجزر فإنما تنـــزع من المسيحيين أنفسهم.

قصارى القول إن قوله تعالى ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها﴾ يعني أنه تعالى سينتزع الأرض وأهلها من أيدي المسيحيين الذين سيكونون مسيطرين عليها.. أي أن أهلها سيقبلون عندئذ ملكوت الله الواحد الأحد. لقد نبّأت الآيةُ السالفة أن المسيحيين لم يؤمنوا كأُمّة، أما الآن فأخبرت هذه الآية أن المسيحية ستبقى كأُمّة إلى يوم القيامة، ولكنا سننـــزع منها الأكثرية العددية، فتصبح الأرض لله تعالى.. أي للذين يعبدون الله الواحد الأحد، كما أن أهلها أيضًا يكونون كلهم تحت نفوذ عباد الله الموحدين. وكأن هذا نبأ باستقطاب الأحمدية لمعظم سكان المعمورة، وباندحار المسيحية على يد الأحمدية.

ثم يقول الله تعالى ﴿وإلينا يُرجعون﴾.. أي أن المسيحيين مُعرِضون اليوم عن الله الأحد، ويعبدون عبدًا من عباده، ولكنهم سيُرجَعون إلى الله تعالى بعد أن يذوقوا الذل والهوان في طوافهم حول المسيح. بمعنى أن دعوة الإسلام ستصلهم، فيدخلون فيه شاهدين أنْ "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، تاركين الشرك وراجعين إلى توحيد الله تعالى.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾

التفسير: اعلم أن "الكتاب" لفظ عام، وقد ورد في القرآن بمعنى القرآن الكريم تارة، وبمعنى الكتاب المقدس تارة أخرى، وقد جاء هنا بمعنى القرآن الكريم؛ والمراد من هذه الآية: اذكُرْ إبراهيم في ضوء القرآن.. أي تحدث عنه كما وصفه القرآن الكريم، وليس كما ذكره الكتاب المقدس. ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لم يوصف في

الكتاب المقدس "صدّيقا"، وإنما اتُّهم فيه بالكذب، حيث قيل أنه سمى زوجته أختًا خوفًا من الملك. جاء في الكتاب المقدس بهذا الصدد:

"وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكَن بين قادَشَ وشُورَ، وتَغرَّبَ في جَرارَ. وقال إبراهيم عن سارةَ امرأته هي أختي. فأرسل أبيمالكُ ملكُ جرارَ وأخَذ سارةَ. فجاء الله إلى أبيمالكَ في حلم الليل وقال لـــه: ها أنت ميّتٌ من أجل المرأة التي أخذتَها، فإنها متزوجة ببعل. ولكن لم يكن أبيمالكُ قد اقترب إليها. فقال: يا سيّدُ أَأُمّةً بارّةً تقتُل؟ ألم يقُلْ هو لي: إنها أختي، وهي أيضًا نفسُها قالت هو أخي؟ بسلامة قلبي ونقاوة يديَّ فعلتُ هذا. فقال لـــه الله في الحلم: أنا أيضًا علمتُ أنك بسلامة قلبك فعلتَ هذا، وأنا أيضًا أمسكتُك عن أن تخطئ إليّ، لذلك لم أَدَعْك تمسّها. فالآن رُدَّ امرأةَ الرجل، فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا. وإن كنتَ لستَ تردّها فاعلم أنك موتًا تموت أنت وكلُّ من لك.

فبكَّر أبيمالكُ في الغد ودعا جميعَ عبيده، وتكلَّمَ بكل هذا الكلام في مسامعهم. فخاف الرجالُ جدًّا. ثم دعا أبيمالكُ إبراهيمَ وقال لـــه: ماذا فعلتَ بنا وبماذا أخطأتُ إليك حتى جلبتَ عليّ وعلى مملكتي خطيّةً عظيمةً؟ أعمالاً لا تُعمَل عملتَ بي. وقال أبيمالكُ لإبراهيم: ماذا رأيتَ حتى عملتَ هذا الشيءَ؟ فقال إبراهيم: إني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتَّةَ، فيقتلونني لأجل امرأتي. وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنةُ أبي، غير أنها ليست ابنةَ أمي، فصارت لي زوجةً. وحدَث لما أتاهَني الله من بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إلي: في كل مكان نأتي إليه قُولي عني هو أخي" (التكوين ٢٠: ١-١٣).

لقد اتضح من هذه الفقرة أن الكتاب المقدس يصم إبراهيم بالكذب، ولا يسمِّيه صدّيقًا، حيث خاف الملكَ وقال لزوجته أن تقول لـــلملك إنه أخي، ومن أجل ذلك يأمر الله تعالى هنا نبيَّه ﷺ أن يتحدث عن إبراهيم على ضوء ما ورد في القرآن الكريم، وليس كما ورد في الكتاب المقدس، لأن ما جاء فيه عن إبراهيم عليه السلام كذب وافتراء، إذ كان صدّيقًا نبيًّا.

ولفظ الصدّيق لـــه مدلولات عديدة. وأولها: "مَن كثُر منه الصدقُ" (المفردات). أي أنه يسعى دائمًا أن يقول الحق والصدق إلا ما شذ وندر.

المفهوم الثاني هو "مَن لا يكذِب قطُّ" (المرجع السابق).. أي أنه يتوخى الحيطة القصوى في الكلام حتى أنه لا يكذب ولو خطأ.

والمعنى الثالث هو "مَن لا يتأتّى منه الكذبُ لتعوُّده الصدقَ" (المرجع السابق).. أي أنه معتاد على الصدق بحيث لا يمكن أن يتفوه بكلمة كاذبة. وكأن الفرق بين المفهوم الثاني والثالث هو أن الثاني لا يكذب، أما الثالث فلا يمكنه أن يكذب، إذ صار الصدق فطرته الثانية.

والمفهوم الرابع هو "مَن صدَق بقولِه واعتقاده، وحقَّق صدقَه بفعله" (المرجع السابق).. أي من كان قوله صدقًا واعتقاده أيضًا حقًّا. فمثلاً هناك مسيحي يرى أن ابنه يقتُل شخصًا، فتُرفع القضية في المحكمة، ويدعى المسيحي ليدلي بشهادته، فيصدق القول غير مكترث لابنه ويشهد أن ابنه هو القاتل. ومثل هذا الإنسان يمكن أن يسمى صادقًا، ولكنه لا يمكن أن يسمى صدّيقًا، لأن الصدّيق إنما هو "مَن صدَق بقولِه واعتقادِه".. أي أنه يكون صادقًا في قوله واعتقاده أيضًا. لا شك أن هذا المسيحي كان صادقًا في شهادته، ولكنه ليس متمسكًا بالصدق في اعتقاده. فهو صادق ولكنه ليس بصدّيق.

ثم ورد في المفهوم الرابع "وحقّق صدقَه بفعله" أي أن عمله أيضًا يؤيد صدقه في قوله واعتقادِه. وكأن هذه الدرجة هي كمال الصدّيقية.

ثم ورد: "الصدّيقون هم قوم دُوَينَ الأنبياءِ في الفضيلة" (المرجع السابق). ولكن بما أن هذه الكلمة قد وردت عن إبراهيم عليه السلام فلا مناص لنا من أن نأخذ من معانيها ما يتفق ومكانته عليه السلام؛ وهو المعنى الثالث والرابع.. أي أن إبراهيم عليه السلام كان معتادًا على الصدق بحيث إن صدور الكذب عنه كان أمرًا مستحيلاً لأن الصدق قد صار فطرته الثانية. أو أنه عليه السلام كان صادقًا لدرجة أنه كان صادق القولِ والاعتقادِ والعملِ أيضًا.

وثمة إشكال آخر يتطلب توضيحًا، وهو أنه يتضح من القرآن الكريم أن الصدّيق أدنى درجة من النبي، فإذا قيل عن شخص إنه نبي فيُفهَم تلقائيًّا أنه متصف بصفة الصدّيقية أيضًا؛ إذًا فلم قال الله تعالى عن إبراهيم ﴿إنه كان صدّيقًا نبيًّا﴾؟ فهل يعني هذا أنه صار أوّلاً صدّيقًا ثم نبيًّا، أم أنه كان صدّيقا ونبيًّا في وقت واحد؟

فليكن معلومًا أن كل الصفات الحسنة، وليست الصدّيقية وحدها، تتضمن مفهومين، أو تُستعمل بطريقين؛ فهي تُستعمل كصفة، وكدرجة أيضًا. فمثلا عندما نقول عن شخص إنه كاذب فالمعنى أن فيه صفة الكذب، ولكن هذا الاستعمال قد يعني أيضًا أنه معتاد على الكذب والافتراء حتى نال درجة الكاذب. فكما قلت إن الكلمات الصفاتية تُستعمل بطريقين: فحينًا تدل على صدور الفعل ولو مرة واحدة، وحينًا آخر تدل على تبوُّئه درجةً عالية في ذلك المجال، أو أنه قد اعتاد على ذلك الفعل بحيث أصبح صفة ذاتية فيه. فالكلمات مثل الصالح والصدّيق والشهيد حين ترِد صفةً تدل على أن الموصوف بها أعلى درجة من ذلك في الحقيقة. فمثلا كل نبي يكون مؤمنًا أيضًا – فقد ورد عن النبي ﷺ نفسه في القرآن الكريم ﴿وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين﴾(يونس:١٠٥)، ولكن هذا لا يعني أن الدرجة الحقيقية له ﷺ هي درجة المؤمن فحسب – كما أن كل شهيد يكون صالحًا أيضًا، وكل صدّيق يكون شهيدًا وصالحًا أيضًا، وكل نبي يكون صدّيقا وشهيدًا وصالحًا أيضًا. ولكن إذا أُريد بيان الدرجة فلا تُستعمل هذه الكلمات إلا لصاحب تلك الدرجة فقط، لا لغيره، لأن بيان درجة أحد يعني أن هذه خصوصيته المسلَّم بها. فمثلا إذا كان أحد متبوِّئًا درجةَ الصدّيق فهذا يعني أن أكبر إنجاز حققه هذا الشخص في حياته هو أنه قد نال مقام الصدِّيقية؛ وإذا أردنا بيان مكانته الحقيقية فلن نستعمل له كلمة الشهيد مثلاً. وبالمثل إن النبوة هي المقام الحقيقي لكل نبي، فلو أردنا الدلالة على مقامه الحقيقي استعملنا له كلمة النبي فقط، ولن نستعمل له عندئذ كلمة الصدّيق، لأن الصدِّيقية مشمولة في النبوة.

فثبت من ذلك أنه إذا وردت في وصف شخص كلمة أدنى مع كلمة أعلى فلا يراد بذلك بيان درجته، وإنما يراد به الإشارة إلى صفة مميزة فيه. وقد وردت هنا

كلمة ﴿صِدِّيقًا﴾ للإشارة إلى صفة مميزة لإبراهيم عليه السلام، وليس للدلالة على مكانته الحقيقية. بل المراد أنه كان نبيًّا من لدنا، وكانت صفته البارزة أنه كان منقطع النظير في مجال الصدق في عصره. فالصدّيق هنا لا يدل على مقام إبراهيم، وإنما على كونه مثلاً أعلى في مجال الصدق.

مَن هو إبراهيم، ولماذا ذُكر هنا؟ هذا سؤال طبيعي ينشأ هنا. والغريب أن هذه السورة قد تحدثتْ عن يحيى أولاً ثم عن المسيح، وقد أخذت الآن في ذكر إبراهيم. ثم تذكر إسحاق ويعقوب وموسى، ثم إسماعيل عليهم السلام أجمعين. يقول المسيحيون بهذا الصدد أن محمدًا (ﷺ) قد ذكر هؤلاء الأنبياء بهذا الترتيب لأنه كان يجهل زمن بعثتهم. فذكر إبراهيم بعد المسيح مع أن إبراهيم قد خلا قبله بزمن طويل. ثم ذكر إسماعيل بعد موسى، في حين أن إسماعيل كان قبله (تفسير القرآن لـ "ويري" مجلد ٢).

والحق أن القرآن قد ذكر الأنبياء حسب تسلسل عصورهم أيضًا، وهذا يعني بجلاء أنه كان على علم بتاريخ الأنبياء. بل لقد فنّد بعض الكتّاب الأوروبيين أنفسهم الزعم أن محمدًا (ﷺ) كان يجهل زمن بعثة الأنبياء؛ وقالوا إن القرآن نفسه كلما ذكرهم من حيث التاريخ ذكرهم وفق عصور بعثتهم؛ فإذا ذكرهم في موضع بخلاف ذلك فلا بد أن يكون لذلك حكمة. إذًا فمن المسيحيين أنفسهم من دحضوا الاعتراض الذي قد أثاره بعض منهم. فباطل زعمهم أن محمدًا رسول الله ﷺ كان جاهلاً بتاريخ الأنبياء عليهم السلام.

وأرى أن الحكمة في ذكر القرآن إبراهيمَ بعد ذكر المسيح عليهما السلام هي أن المسيحية تعدّ نفسها فرعًا للأمة الموسوية، بينما تعتبر الأمةُ الموسوية نفسها حلقة من السلسلة الإبراهيمية؛ وهذا يعني أن المسيح يتصل بإبراهيم في نهاية المطاف. وهذا ما يخبرنا الإنجيل أيضًا، إذ يصف المسيحَ أنه وارث عرش إبراهيم تارة، وأنه وراث عرش داود تارة أخرى (متى ١: ١، لوقا ١: ٣٢). إذًا فكلما يتطرق الحديث إلى صدق المسيح فلا بد من ذكر إبراهيم أيضًا، ذلك لأن المسيحية إذا كانت فرعًا أصلُه الأمةُ الإبراهيمية، وما دام الأصل يؤكد أن الله واحد، بينما يعلن الفرع أن الله اثنان أو

ثلاثة، فلا بد من اعتبار الفرع على الخطأ والباطل. إذا كان مؤسس السلسلة الموسوية أو مؤسس بني إسرائيل عدوًّا للشرك فكيف يمكن أن يكون فرد من هذه السلسلة داعيًا إلى الشرك. ومن أجل ذلك بدأ الله تعالى الحديث في هذه السورة بذكر زكريا الذي كان والد يحيى. ثم تحدث عن يحيى الذي كان بدوره إرهاصًا للمسيح. ثم ذكر المسيح وقدّم البراهين على أنه كان عبدًا موحِّدًا لله تعالى؛ وأنه لم يعلّم الشرك والوثنية قط، بل دعا إلى عبادة الإله الواحد دائمًا. أما الآن فيقول الله تعالى إننا نقدّم أمامكم برهانًا آخر على ما قلنا. إنكم تزعمون أن المسيح كان متصفًا بالألوهية، وأنه جاء كآخر مخلِّص للدنيا، وأنه لا نبي بعده. ونحن نعود بكم إلى إبراهيم، لنذكّركم أنه كان يؤمن بإله واحد، وكان عدوًّا شديدًا للشرك والوثنية. ويمكنكم أن تدركوا أن الأصل ما دام لا يقبل شيئًا فكيف يمكن أن يدّعي الفرع بوجود ذلك الشيء فيه.

إذًا فهذا الترتيب الطبيعيّ الذي بسببه ذكر الله إبراهيمَ بعد المسيح – عليهما السلام – حيث دعا الأمةَ المسيحية إلى التفكير في ما كان إبراهيم يدعو إليه. فأمرهم أن يقرءوا ما ورد في التوراة من تعليم إبراهيم بتأنٍّ وتدبُّر؛ ثم يقارنوه مع ما يعزونه إلى المسيح من تعليم. فإذا كان تعليمه خلاف تعليم المسيح المزعوم لثبت أن ما قال الله في القرآن الكريم عن المسيح هو الصدق والحق. فثبت من ذلك أن لا مبرر للاعتراض على القرآن إذا ذكر إبراهيمَ بعد ذكر المسيح، بل هذا هو الترتيب الطبيعي في هذا السياق.

وكان وراء اختيار هذا الترتيب سببان: الأول هو الإعلان أن مؤسس السلسلة الموسوية أو مؤسس بني إسرائيل كان عدوًّا للشرك، فكيف يمكن أن يدعو فرد من نسله إلى الوثنية والشرك.

والسبب الثاني هو التذكير بأن إبراهيم قد أنبأ بنـــزول البركات على اثنين من أبنائه، أحدهما هو إسحاق الذي كان مؤسس السلسلة الموسوية، والثاني هو إسماعيل. وكان لزامًا أن تنتهي السلسلة الموسوية حتى يبدأ تحقُّق الوعود الإبراهيمية في حق السلسلة الإسماعيلية. فانتهت السلسلة الموسوية بمجيء المسيح الذي كان من

غير أب لتبدأ السلسلة الإسماعيلية. ومن أجل ذلك استهل الله تعالى هذه السورة بالحديث عن زكريا الذي كان والدًا لمن جاء إرهاصًا للمسيح. ثم ذكر يحيى إرهاصَ المسيح. ثم تحدث عن المسيح، وقدّم البراهين على كونه موحدًا. ثم ذكر إبراهيم منبهًا أن المسيحية إذا كانت فرعًا للأمة الإبراهيمية فليفكر المسيحيون ويروا هل يوجد الشرك في الأصل الذي هم فرع منه. فما دام إبراهيم، الذي هو الأصل الذي هم فرع منه، موحدًا فكيف صار أحد من نسله داعيًا إلى الشرك والوثنية؟

ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك في هذه السورة إسحاق ويعقوب وموسى مبينًا أن الوعود التي قُطعت لإسحاق قد تمّتْ وأُنجزتْ، وأن عهد بني إسحاق قد انتهى. فليتذكروا الآن أن الله تعالى قد وعد إبراهيم بالبركة في إسماعيل أيضًا، وتحقيقًا لذلك الوعد في حق بني إسماعيل قد جاء محمد رسول الله ﷺ. فلم تعترضون عليه ﷺ؟

ولولا هذا المعنى لصار هذا الترتيب بلا جدوى ولا مغزى، إذ لم يأت إبراهيم بعد المسيح، ولا موسى بعد إسماعيل. فالانتقال من ذكر المسيح إلى ذكر إبراهيم فموسى فإسماعيل – عليهم السلام أجمعين – يدل بكل جلاء أن الموضوع المذكور هنا هو نفس ما ذكرته آنفًا. وإن هذا العلم عن ترتيب ذكر الأنبياء لهو مما خصني الله به أنا وحدي، إذ لم يرد هذا المعنى في أي من التفاسير التي تمت خلال ثلاثة عشر قرنًا الماضية، ولم يخبر أحد من المفسرين عن السر الكامن وراء هذا الترتيب الغريب. وإنما كشف الله تعالى هذا المعنى عليّ أنا وحدي فضلا منه ورحمة، مما انكشفتْ به حكمة هذا الترتيب وأهميتها تمامًا.

لقد ذكر الكتاب المقدس إبراهيم باسم أبرام حيث جاء فيه: "ولما كان أبرامُ ابنَ تسعٍ وتسعين سنةً ظهَر الرب لأبرام وقال لـــه: أنا الله القديرُ. سِرْ أمامي وكُنْ كاملاً، فأَجعَلَ عهدي بيني وبينك، وأكثّرك كثيرًا جدًّا. فسقَط أبرام على وجهه، وتكلّمَ الله معه قائلاً: أما أنا فهوذا عهدي معك، وتكون أبًا لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمُك بعدُ أبرامَ، بل يكون اسمُك إبراهيم، لأني أجعلك أبًا لجمهور من الأمم." (التكوين ١٧: ١-٥)

وورد في الموسوعة التوراتية أن لفظ "إبراهام" لا معنى لـــه، وإنما هو لقب صاغوه إشارةً إلى اسمه الأصلي الكبير. (مجلد ١: Abraham)

ولكن هذا غلط. الواقع أن بين العربية والعبرية تشابهًا كبيرًا. والفرق الوحيد أن العبرية ظلت متروكة لا يتكلم بها أحد لمئات السنين، فصارت دقائقها نسيًا منسيًّا. أما العربية فلم يزل لها رواج على الدوام، ولذا يدرك الناس دقائقها. ولو أن الناس لم ينسوا العبرية لعلموا أنها مشتقة من العربية، وبتعبير آخر، أن العبرية لهجة مشوهة من العربية. خذوا مثلاً المقولة الشهيرة للمسيح: "إيلي إيلي لَما شبَقْتَني" (متى ٢٧: ٤٦)، فما أشبَهَها بالعربية. فكلمة "إيلي إيلي" إنما هي في الأصل "إلهي إلهي"، حيث يعني "إيل" في العربية الإله، فنطقوه بالعبرية "أيل". وأما "لَما" فهي "لِمَ"، وأما "شبَقتني" فهي "سبَقتَني". إن هذا التشابه الكبير بين اللغتين يحتّم علينا أن نبحث فيما إذا كان لفظ "أبرام" في العربية على مفهوم خاص أم لا؟ وبالفعل يكشف لنا البحث أن لفظ "إبرام" يعني في العربية إحكام الأمر وإتقانه، فيقال "أبرَمَ الكلامَ" أي أحكمَه، "وأبرمَ عليه في الجدال" أي ألحّ قاصدًا إفحامَه (الأقرب). فـــ "أبرام" هو مَن يحسن الكلام ويتقن الجدال بحيث يبين للخصم موقفه فيُبكّته.

علمًا أن الأسماء التي يختارها الله تعالى لأنبيائه تومئ في الحقيقة إلى الإنجازات التي سيقومون بها في حياتهم. ويحدث أحيانًا أن من يسمي النبي باسم لا يكون من المؤمنين مثل نبينا محمد رسول الله ﷺ، حيث لم يسمه الله تعالى بهذا الاسم، وإنما سماه به جدّه، فاستحسنتْ أُمُّه هذا الاسم أيضًا، بيد أن الله تعالى هو الذي تصرف في قلوبهما وجعلهما يسميانه بنفس الاسم الذي كان موجودًا في النبوءات. وهذا هو حال أسماء الأنبياء الآخرين أيضًا. خذوا مثلا اسم إسحاق الذي هو في الواقع من الضحك، فكان فيه إشارة إلى كون هذا المولود ضحوكًا بشوشًا. فقد ورد في التوراة أن إبراهيم لما بُشّر بولادة إسحاق "فضحِكتْ سارة في باطنها قائلة: أَبَعْدَ فنائي يكون لي تنعُّمٌ وسيّدي قد شاخَ" (التكوين ١٨: ١٢). فإن هذه الواقعة تؤكد أن اسم إسحاق وثيق الصلة بالضحك، ولكن لما كان كتَبةَ الكتاب المقدس

يجهلون هذه اللغة فكتبوا إضحاق عوضًا عن "إضحاك"، فعرّبه العرب وكتبوا إسحاق.

كما أن اسم "إسماعيل" مشتق من "سمع"، ومفهومه أن الله تعالى سيستجيب دعاءه. وهذا ما حصل بالفعل حيث ركَل إسماعيلُ الوليدُ الأرضَ خلال بكائه واضطرابه، فانفجرت عين الماء.

فكانت هذه الأسماء مشابهة، في الظاهر، بأسماء الناس الآخرين، ولكنها قد أُطلقت عليهم بوحي أو تصرف من الله تعالى لتحقيق غاية معينة. لا شك أن نبينا محمدًا ﷺ لم يسمّه أبواه بناء على وحي الله تعالى، غير أن الله تعالى هو الذي تصرف فيهما وجعلهما يطلقان عليه هذا الاسم الذي ورد في النبوءات السابقة. وبالمثل كان أبو إبراهيم أو عمه مشركًا، ولكن الله تعالى تصرف فيه وجعله يسميه بالاسم الذي كان يمثّل نبأً عن المنجزات التي كانت ستتم على يده عليه السلام. كان مولد إبراهيم عليه السلام العراق الذي هو جزء من الجزيرة العربية، والذي لغة أهلها العربية – أما العبرية فهي شكل مشوه مشتق من العربية – فجعل الله تعالى أباه يطلق عليه اسم أبرام الذي كان ينطوي على نبوءة بأن الله تعالى يزوده بالقدرة الفائقة على المناظرة والنقاش، فيقدّم البراهين على صدق موقفه حتى يُفحِم الخصمَ ويبكّته. وهذه هي الصفة البارزة التي نراها في إبراهيم على ضوء ما ذكره القرآن الكريم عنه من أحداث ووقائع. فمثلاً يذكر القرآن أن إبراهيم عليه السلام خاض ذات مرة النقاش مع الملِك، واستدل على صحة موقفه بطلوع الشمس وغروبها ﴿فَبُهِتَ الذي كفَرَ﴾(البقرة: ٢٥٩).. أي أن الملك الكافر لم يقدر على دحض البراهين التي قدّمها إبراهيم عليه السلام. كما أنه عليه السلام أثبت التوحيد بالأدلة المستقاة من نظام الشمس والقمر والنجوم، فسُقط في أيدي المشركين، وشرعوا يكسرون أصنامهم. فثبت أن إبراهيم عليه السلام قد ساق لهم الأدلة الدامغة التي أفحمهم بها، فأدركوا أن هذا قد قضى على ديانتهم.

وتؤكد روايات اليهود أيضًا أن إبراهيم عليه السلام كان منذ صغره قوي الحجة في الجدال. حيث ورد فيها أن أباه أمره ذات مرة بالجلوس في دكانه ليبيع الأصنام لمن

يأتي لشرائها. فجاءه شيخ عجوز وأبدى رغبته في شراء صنم. فقال لـــه إبراهيم: أي صنم؟ فأشار العجوز إلى صنم. فحمل الصنم ووضعه أمامه وقال له: كم عمرك أيها الشيخ؟ قال: سبعون سنة. قال: إن هذا الصنم قد نُحت أمس، وأما أنت فقد بلغت سبعين سنة. ألا تستحي مع هذا السن الكبير من أن تسجد لمن عمره يوم واحد. فتأثر العجوز من قوله وذهب لسبيله دون أن يشتري الصنم. فلما بلغ ذلك إخوةَ إبراهيم عليه السلام شكوه إلى أبيهم وقالوا إنه ينفّر الزبائن من شراء الأصنام. فسأله أبوه عن الأمر، فقال: نعم هذا صحيح، ولكن هل يليق بذلك الشيخ العجوز أن يخرّ أمام صنم قد نُحت بالأمس؟ (الموسوعة اليهودية مجلد ١ : Abram)

فثبت بذلك أن تقديم البراهين الدامغة أثناء النقاش دعمًا للحق وإفحامًا للخصم كان هو الصفة المميزة في حياة إبراهيم عليه السلام. وهذا ما تؤكده لكم دراسة القرآن الكريم، وهذا ما ينص عليه الكتاب المقدس أيضًا.

إذًا، لم يكن إبراهيم اسمًا بلا معنى، بل كان ينطوي على نبوءة أنه سيتقن النقاش، ويقدم للخصم البراهين الساطعة الكاشفة للحقيقة، كما حصل مع ذلك الشيخ العجوز حيث لم يقدر على الصمود أمام حجة إبراهيم، بل أدرك أن ركوعه أمام الصنم لا يصح أبدًا، فلاذ بالفرار تاركًا الصنم وراءه.

وظني أن لفظ أبرام في اللغة العبرية أيضًا كان يؤدي المعنى نفسه، وأن الله تعالى قد جعل أهل إبراهيم يسمونه بهذا الاسم لينبئ أنه سيكون مناظرًا رائعًا. ولكن بسبب جهل الناس بالعبرية انخدع علماء بني إسرائيل فظنوا أن هذا اللفظ لا معنى لـــه، مع أن الكتاب المقدس نفسه قد بيّن السبب وراء تحوُّل أبرام إلى أبراهام، حيث قيل: "تكون أبًا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمُك بعدُ أبرامَ، بل يكون اسمُك إبراهيم". ومن قواعد اللغة العبرية زيادة الهاء للجمع. وكأن المعنى أن إبراهيم لن يظل فردًا واحدًا، بل يصبح أمة. وهذا ما قاله القرآن الكريم أيضًا في قوله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أُمّةً﴾(النحل: ١٢١). وبتعبير آخر صار إبراهيم من "أبرام" إلى "أبراهام".

وهذا يعني أن الكتاب المقدس أيضًا يذكر نفس ما أعلنه القرآن. ولكن هؤلاء الجاهلين، الذين قد اندثرت لغتهم، يزعمون أن أبرام سُمي أبراهام لمجرد السجع والقافية. مع أنه لفظ ذو معنى، ويدل على حقيقة عظيمة. أما قولهم أنه اسم قد أُطلق على إبراهيم من قبل مشرك، فلا قيمة لمثل هذا القول. ذلك لأن نبينا محمدًا رسول الله ﷺ أيضًا لم يسمِّه الله تعالى بنفسه، وإنما تصرف ﷻ في الذين سمّوه. وليس بوسع أحد، وإن لم يؤمن بالدين الحق، أن ينكر أن الله تعالى هو المتصرف في كل شيء. فما دام الشجر تحت تصرف الله ﷻ، وما دامت نوى المانجو – مثلا – في تصرفه، وإذا كانت نبات الخيار في تصرفه ﷻ، فكيف يمكن أن لا يكون أبو إبراهيم تحت تصرف الله تعالى؟ وكيف لا يمكنه ﷻ أن يجعل أبا إبراهيم يطلق عليه اسمًا يتضمن الدلالة على ما سيقوم به هذا الطفل من أعمال ومنجزات؟

وقد تحول "أبرام" إلى "أبراهام" لأن من قواعد العبرية، كما قلتُ، أنهم يزيدون الهاء للدلالة على الجمع. ويمكن أن ندرك من ذلك أن حرف الهاء أيضًا ينطوي على دلالة مشابهة. وبالفعل نرى أنه في العربية يُستخدم ضمير "هُم" للجمع. فالظن أن لفظ "أبرام" مهمل لا معنى لـــه، وأن "أبرام" جُعل "أبراهام" من أجل الوزن والسجع فقط، إنما منشؤه الجهل بحقائق اللغة.

يتضح من الكتاب المقدس أن إبراهيم عليه السلام كان من سكان "أُور" بالعراق. كان قومه يعبدون النجوم. وكان اسم أبيه تارَح. بينما سمى القرآن أباه "آزَر" وذلك في سورة الأنعام (الآية: ٧٥). ولا غرابة في ذلك، إذ لو جاز لهم أن يحوّلوا أبراهام إلى إبراهيم، وعيسى إلى يسوع، وحنوك إلى إدريس ويوحنا إلى يحيى، فلا اعتراض على أن يعرّبوا تارح إلى آزر. إذ يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه يستعمل فقط الأسماء التي يسهل نطقها على العرب، أو أنه يصوغ أسماء جديدة بترجمة الأسماء الأصلية مثل إدريس الذي يرادف حنوك معنى. فمن الممكن أن يكون القرآن الكريم قد حوّل تارح إلى آزر عند التعريب، إذ تتحول التاء إلى الزاء، وتأتي الألف في الصدارة بحسب قواعد القلب، وأما الحاء فيؤدي معنى التكريم. فيبدو أن نطق

"تارح" كان صعبًا على العرب، فحوّلوا تارح إلى آزر، فكانوا ينطقونه في البداية زارَ، ثم آزرَ. أو قد يكون هذا اسمًا لبعض أقارب إبراهيم عليه السلام الآخرين.

على كل حال، إن القرآن قد استخدم الاسم المعرب، ولا مجال للاعتراض على تحوُّل تارح إلى آزر.

وقد يكون ثمة اشتراك معنوي بين تارح وآزر. ولكن لا علم لنا بمعنى لفظ "تارح"، فلا يمكننا أن نقول شيئًا على وجه اليقين. ولكن من الممكن أن يكشف لنا البحث والتحقيق وجود اشتراك معنوي بين الكلمتين. ومهما يكن فإن آزر اسم معرب.

وورد عن إبراهيم عليه السلام أنه هاجر من وطنه إلى مصر إثر خلافه مع أبيه. ثم هاجر من مصر إلى كَنعان (الموسوعة اليهودية مجلد ١: Abram).

كان حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام يرى ويجزم أن آزر لم يكن أبًا لإبراهيم عليه السلام، بل هو عمٌّ له، وكان أبوه قد توفي. وتوضح بعض الروايات اليهودية أيضًا أن إبراهيم كان يتيمًا. وكان حضرة الخليفة الأول رضي الله عنه يقول إن الأب يعني العم أيضًا بحسب القرآن الكريم، حيث ورد فيه أن يعقوب عليه السلام قال لأبنائه ﴿ما تعبدون من بعدي قالوا نعبُد إلهَك وإلهَ آبائك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهًا واحدًا﴾(البقرة: ١٣٤). فهنا قد سمى هؤلاء إسماعيل أبًا لهم، مع أنه كان عمًّا لهم في الواقع. فثبت أن الأب قد يعني العم في العربية.

هذا صحيح، وهذا ممكن، ومع ذلك هناك سؤال يفرض نفسه: هل كان آزر عمًّا لإبراهيم بالفعل؟ كان السبب الأساسي لرأي الخليفة الأول رضي الله عنه هذا هو قوله: كيف يمكن أن يكون مثل هذا المشرك الكبير أبًا لإبراهيم عليه السلام؟ ولكنها في الواقع مسألة ذوقية، وليست بدليل، فيرى البعض في ذلك حرجًا، بينما لا حرج في ذلك عند البعض. فعلينا أن نبني رأينا على التاريخ الذي يبدو منه أن آزر كان أبًا لإبراهيم عليه السلام.

أما فيما يتعلق بالاختلاف الموجود بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم حول اسم هذا الشخص فكما بيّنتُ من قبل إن القرآن يذكر الأسماء في شكل معرب، أو

يصوغ اسمًا عربيًّا بترجمة الاسم الأجنبي، فهذا الاختلاف ليس دليلاً على أن بيان القرآن غلط، حتى نضطر لإثبات أن الاسمين لشخصين.

كان إبراهيم أبًا للعالم الروحاني، وكانت عملية إصلاح العالم في المستقبل منوطة بذريته، سواء أكانوا ذريته من الناحية المادية أو الروحانية. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ووهَبْنا لـــه إسحاقَ ويعقوبَ وجعَلْنا في ذرّيّته النبوّةَ والكتابَ﴾ (العنكبوت: ٢٨). وكأنه تعالى وعد هنا إبراهيم عليه السلام أن الأنبياء سيُبعثون في المستقبل من نسله هو.

وفي الكتاب المقدس أيضًا وعد من الله تعالى لذرية إسحاق بأنهم سيزدهرون وأن جميع أمم الأرض سيتبركون منهم (التكوين ٢٢: ١٥-١٨).

بالمثل قد ورد في الكتاب المقدس وعد الله لذرية إسماعيل بالبركة حيث قال: "وابن الجارية أيضًا سأجعله أُمّة لأنه مِن نسلك" (التكوين ٢١: ١٣).

كما ورد أيضًا: "ونادى ملاكُ الله هاجَرَ من السماء وقال لها: ما لكِ يا هاجرُ؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قُومي واحمِلي الغلام، وشُدِّي يدَكِ به، لأني سأجعله أُمّة عظيمة" (التكوين ٢١: ١٧، ١٨).

وهذا يوضح أن الوعد لم يكن يخص بابن واحد لإبراهيم، بل بالاثنين كليهما.

كما ورد في الكتاب المقدس أيضًا: "فقال الله: بل سارةُ امرأتُك تلد لك ابنًا وتدعو اسمَه إسحاق. وأُقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعتُ لك فيه. ها أنا أباركه، وأُثْمِره وأكثِّره كثيرًا جدًّا، اثني عشر رئيسًا يلد، وأجعله أُمّةً كبيرة. ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارةُ في هذا الوقت في السنة الآتية. فلما فرغ من الكلام معه صعِد الله عن إبراهيم." (التكوين ١٧: ١٩-٢٢)

وهذا يوضح أن الله تعالى كان قد وعد إبراهيمَ بالبركة في إسماعيل وإسحاق كليهما، ولكنه تعالى أخبر أيضًا أن هذا العهد سيتحقق أولاً عن طريق إسحاق ثم عن طريق إسماعيل عليهما السلام.

ويؤكد الكتاب المقدس في موضع آخر أيضًا أن هذا العهد كان في حق الابنين كليهما حيث جاء: "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًّا، لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرضَ غربتك كلَّ أرضِ كَنعان مُلكًا أبديًّا، وأكون إلـــهَهم." (التكوين ١٧: ٧-٨)

وهذا يبين أن هذا العهد الإلهي لم يكن خاصًّا ببني إسحاق، بل كان يخص بكل نسل إبراهيم وبكل أجيالهم. غير أن الله تعالى قد أوضح أنه سيحقق وعده هذا في حق بني إسحاق أولاً، ثم في حق بني إسماعيل. إذًا فكان لزامًا أن تنتهي السلسلة الموسوية في يوم من الأيام حتى يتحقق ما وعد الله به في حق بني إسماعيل أيضًا.

هذا، وقد وعد الله تعالى في الفقرة الأخيرة أنه سيعطي إبراهيمَ ونسلَه من بعده مُلك كنعان. ولو أن أرض كنعان لم تقع في قبضة المسلمين قط لقال المسيحيون أن بني إسحاق قد أُعطوا ملك كنعان بينما ظل المسلمون محرومين منه. فأعطى الله المسلمين أرض كنعان أيضًا. بل الواقع أن فترة حكم اليهود على أرض كنعان أقل من فترة حكم المسلمين عليها. لقد فتح المسلمون "القدس" في العام السادس عشر الهجري، فظلت تحت حكمهم حتى عام ١٣٦٧ الهجري (١٩٤٧ الميلادي) حين احتلها اليهود ثانية، بالإضافة إلى فترة ٥٢ سنة ظلت القدس خلالها في قبضة المسيحيين خلال الحروب الصليبية. ولو طرحنا ١٠٨ عامًا هذه لصارت فترة حكم المسلمين على القدس ١٢٥٩ عامًا. والفترة الزمنية بين موسى والمسيح أيضًا ١٣٠٠ عام، ولكن اليهود ظلوا محرومين من أرض كنعان ٢٠٠ عام بل أكثر من ذلك أيضًا. ففي عام ٧٣٣ قبل الميلاد استولى الآشوريون على فلسطين، وأخضعوا اليهود تحت حكمهم، فكانوا يؤدون لهم الجزية. ثم في عام ٦٠٨ قبل الميلاد هزم الملكُ المصري "نيكو" الآشوريين، فصار اليهود تحت حكم المصريين بدل الآشوريين. ثم في عام ٥٨٧ قبل الميلاد هجم الملك البابلي نبوخذنصر على أورشليم، وقام بنفي اليهود من أرضهم. وإن فترة الحكّام الأجانب هذه وحدها تصبح ١٤٦ سنة. أضِفْ إلى ذلك حوالي ٧٠ سنة التي قضاها اليهود في الجلاء، والتي بعد انقضائها سمح لهم ملك ميديا وفارس بالعودة إلى أورشليم ثانية. وهذا

يعني أن اليهود حكموا القدس لمدة ١٠٨٤ سنة، أما المسلمون فحكموها ١٢٥٩ **عامًا.** (انظر فتوح البلدان للبلاذري: أمر فلسطين ص ١٤٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير مجلد ٢ ذكرُ فتح بيت المقدس ص ٤٩٩، وأخبار الأيام الثاني ٣٥: ٢٠-٢١، وأخبار الملوك الثاني ٢٥: ٨- ١١، وقاموس الكتاب (أردو) ص ٥٧-٥٨، و History of Egypt p. ٦١-٦٩)

إذًا فهذه الجزئية من النبوءة أيضًا كانت إيذانًا بأن فترة تحقق العهد الإبراهيمي في حق بني إسحاق كانت قد اكتملت وانتهت، لتُعطَى أرض كنعان الآن لأتباع الدين الحق بدلاً من بني إسحاق. وبالفعل ظلت كنعان في العصر الإبراهيمي الأول في قبضة اليهود منذ موسى حتى المسيح أقلَّ مما ظلت تحت حكم المسلمين خلال العصر الإبراهيمي الثاني. وعندما ترجع كنعان إلى المسلمين ثانية فلن تخرج من أيديهم أبدًا إن شاء الله تعالى.

وقصارى القول إن المسيح عليه السلام كان آخر حلقة من سلسلة الوعود الإبراهيمية، وأن إبراهيم عليه السلام كان موحِّدًا، ومن أجل ذلك قد تطرق الحديث هنا في هذه السورة بعد ذكر المسيح إلى إبراهيم الذي كان المورث الأعلى. ذلك لينبّه الله تعالى إلى أنه كان من المقدر أن ينبع من هذا المنبع نهران، وقد انتهى أحد النهرين عند المسيح، وكان لزامًا أن ينبع منه بعد ذلك النهرُ الثاني ليكمل جريانه. فعاد القرآن بالحديث ثانية إلى إبراهيم وذكر إسحاق ويعقوب وموسى للإشارة إلى النهر الأول نهر بني إسرائيل.

لقد سبق أن بيّنتُ أن إبراهيم عليه السلام كان، بحسب الكتاب المقدس، من سكان "أُور" إحدى مدن كلديا (Chaldea) أي كان مولده العراق؛ وكان قومه يعبدون النجوم. وكان أبوه مشركًا بحسب القرآن الكريم. لقد انكشفت على إبراهيم شناعة الشرك وأبوه حي، فكان يعظه ألا يشرك بالله تعالى. فغضب عليه أبوه ذات مرة، فهدده، وأمره أن يهجره ويغيب عن أنظاره لبعض الوقت حتى لا يصيبه بضرر. فلما رأى إبراهيم شدة غضب أبيه هاجر من وطنه. ويتضح من القرآن الكريم أن زوجته سارة ولوطًا كانا من المهاجرين معه. وقد وعد إبراهيم أباه لدى الهجرة أنه سيدعو الله لمغفرته (الصافات: ١٠٠، العنكبوت: ٢٧، الممتحنة: ٥). وفي هذا

دليل على جواز الدعاء للمشرك في حياته، بل يجوز الدعاء للمشرك الميّت الذي لم تتم الحجة عليه، حيث عدّ النبي ﷺ أُمَّه السيدة آمنة من المشركين، ومع ذلك دعا لـــها *(مسند أحمد مجلد ٥ ص ٣٥٥).

وبعد الهجرة رُزق إبراهيم عليه السلام الأولاد حيث لم يكن لـــه أي أولاد من قبل.

ويقول الكتاب المقدس إن أبا إبراهيم قد أخذ معه إبراهيم ولوطًا وهاجَرَ من "أُور" الكلدانيين إلى مكان اسمه "حاران". وهذا يعني أن القرآن الكريم يذكر أن إبراهيم قد هاجر من المكان الذي كان فيه أبوه، بينما يخبر الكتاب المقدس أن أباه ترك وطنه قاصدًا كنعان، ولكنه أقام في "حاران" ومات هناك (التكوين ١١: ٣١-٣٢).

ثم يقول الكتاب المقدس في التكوين ١٢ إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يجتاز حاران تاركًا أباه وأقاربه هناك، ليُريه الله الأرضَ التي سيستوطن بها. فخرج إبراهيم برفقة لوط وزوجته سارة والخدم، وأتى أرض كنعان. ثم وقعت مجاعة شديدة في البلاد، فذهب إبراهيم إلى مصر. فوقعت هناك أحداث تمخضت عن حصول إبراهيم على هاجر التي صارت زوجته الثانية، ثم عاد إبراهيم إلى كنعان ثانية.

وإن الكتاب المقدس لا يذكر السبب الذي جعل أبا إبراهيم يخرج معه من "أُور" الكلدانيين. بينما يتضح من القرآن الكريم أن إبراهيم هو وحده الذي غادر وطنه، وكان سبب هجرته اختلافه مع دين أبيه وقومه. وكان هذا سببًا طبيعيًّا معقولاً. إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الذي جعل أبا إبراهيم يغادر وطنه؟ يجب أن يكون وراء ذلك سبب، ولكن الكتاب المقدس لا يذكر أي سبب لذلك.

ثم إن الكتاب المقدس صامت عن سبب ذهاب أبي إبراهيم إلى كنعان؟ لقد هاجر إبراهيم إلى كنعان لأنها الأرض الموعودة لـــه وذريته، ولكن لماذا فكر أبوه في الهجرة إلى ذلك البلد؟

---

* ورد في المرجع المشار إليه أن النبي ﷺ قال لأصحابه: "استأذنتُ ربي في أن أستغفر لها فلم يُؤذَنْ لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِن لي." *(المترجم)*

ثم إن الكتاب المقدس صامت أيضًا عن سبب إقامة أبي إبراهيم في حاران في حين أنه خرج قاصدًا أرض كنعان.

ثم يقول الكتاب المقدس أن الله تعالى أمر إبراهيم بالرحيل من حاران تاركًا وراءه أباه وقبيلته. والسؤال نفسه يثار هنا: لم أمره الله بذلك؟ إن الكتاب المقدس يأمر بالإحسان إلى الوالدين (الأمثال ٢٣: ٢٢-٢٥)، كما ينص عليه القرآن الكريم أيضًا (البقرة: ٨٤). لا شك أن القرآن الكريم قد ذكر أن أبا إبراهيم عليه السلام كان مشركًا، فانفصل عنه بسبب شركه (مريم: ٤٣-٤٩)، ولكن الكتاب المقدس، من جهة، لا يعتبر أباه مشركًا، ومن جهة أخرى، يخبر أن الله تعالى أمره أن يذهب إلى كنعان تاركًا وراءه أباه وقبيلته!

ثم إن الكتاب المقدس لم يوضح ما هي قبيلة إبراهيم التي أُمر بالرحيل تاركًا إياها وراءه؟ يتضح من سفر التكوين في الكتاب المقدس أن تارح خرج من أُور الكلدانيين آخذًا معه إبراهيم وزوجته ولوطًا فقط (التكوين ١١: ٣١)، بينما يخبر القرآن الكريم أن أباه لم يكن في رفقته في هذه الهجرة، وإنما رافقه في هجرته زوجتُه ولوط فقط. فما هي تلك القبيلة التي أُمر إبراهيم بالرحيل تاركًا إياها وراءه؟ لم تكن هذه القبيلة إلا إبراهيم ولوط وسارة، وكانا معه في هجرته إلى كنعان أيضًا. فمن هؤلاء الذين تركهم وراءه يا ترى؟

فالكتاب المقدس لا يخبرنا أولاً لماذا أمَر الله تعالى إبراهيم بترك أبيه وراءه، مع أن الشرع ينص على البر بالوالدين. ثم لا يخبرنا الكتاب المقدس ما هي تلك القبيلة التي تركها إبراهيم وراءه. فإن الذين خرجوا من "أُور" كانوا أربعة فقط، وأن الأب كان قد مات في حران. فمَن هم أولئك الذين قد تركهم إبراهيم في حران لدى ذهابه إلى كنعان؟ إذًا فبيان الكتاب المقدس مبهم جدًّا، ويتضمن أمورًا كثيرة تخالف العقل.

كانت مدينة حران تقع ما بين منطقة الكلدانيين والشام على الطريق المؤدي إلى فلسطين. وكانت مدينة كبيرة حيث كانت مقرًّا للقوافل التجارية، وكانت تسمى

باب التجارة. كما كانت مركزًا دينيًا حيث كان بها معبد كبير لإله القمر، يحجّ إليه عَبَدةُ القمر لتقديم القرابين والنذور.

وإن روايات التلمود – والتلمود عبارة عن أحاديث اليهود – أيضًا تصدّق بيان القرآن الكريم، حيث تنصّ على أن أبا إبراهيم كان مشركًا، بل مشركًا كبيرًا حيث كان يتولى كهانة معابد المشركين. وأنه كان يبيع الأصنام (The Talmud p.٣٥). كما توضح الروايات التلمودية أيضًا أن ملِك تلك البلاد كان يعبد الأصنام، وأنه أراد أن يحرق إبراهيم في النار، كما ورد في القرآن.

وباختصار يوجد عن إبراهيم روايات من أنواع ثلاثة: أولها قرآنية، وثانيها كتابيّة، وثالثها تلمودية. أما الروايات الكتابية فهي مشوهة وغير معقولة جدًّا حتى يتعذر تصديق شيء منها بيقين. فإن الكتاب المقدس يقول، كما ذكرت من قبل، أن أبا إبراهيم أيضًا قد غادر وطنه، ولكن لا يذكر سببًا لتركه الوطن. أما القرآن الكريم فيخبرنا أن إبراهيم هاجر من وطنه، لأن أباه كان مشركًا، وكان قومه يعبدون النجوم، واحتدّ الخلاف بينه وبينهم حتى اضطر للهجرة من الوطن.

ثم يذكر الكتاب المقدس أن أباه "تارح" أيضًا كان ينوي الذهاب إلى كنعان، ولكنه لم يذكر السبب وراء ذهابه إلى هناك؛ كما لم يخبرنا أنه إذا كان قد خرج ليذهب إلى كنعان فلماذا أقام في الطريق بحران. ثم إنه يقول أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يرتحل من حران تاركًا وراءه أباه وقبيلته، ولكنه لا يبين ما هي تلك القبيلة التي تركها وراءه؟ إذ لم يخرج مع إبراهيم إلى كنعان إلا لوط وسارة، ولم يكن أي من أقاربه في هذه القافلة، فما هي إذًا تلك القبيلة التي أمره الله بتركها وراءه؟ كما أنه لا يوضح لنا لماذا أمره الله تعالى بترك أبيه وراءه ما دام هو لم يكن مشركًا بحسب الكتاب المقدس.

فثبت أن بيان القرآن الكريم أقرب إلى الصواب، رغم كونه مخالفًا لما ورد في روايات الكتاب المقدس.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾

التفسير: اعلم أن ﴿يا أَبَتِ﴾ هو في الأصل "يا أبي"، فأُبدلتِ ياءُ المتكلمِ تاءً، حيث تقول العرب: يا أبي، ويا أَبَتِ.

أما قوله تعالى ﴿ما لا يسمَع ولا يُبصِر﴾ فيبيّن أن السمع والبصر من أهم صفات الله تعالى، أما الصفات الأخرى فهي تابعة لهما. فلولا أن الله تعالى سميع وبصير لما بقي على وجوده برهان يمكن مشاهدته. فإن أكبر دليل على وجود البارئ تعالى إنما هو استجابته أدعيتَنا، حيث ندعو الله تعالى يا ربِّ حقِّقْ لنا أُمنيّتنا كذا، فيتحقق ما نريد، فنعرف بذلك أن الله تعالى موجود. أما إذا لم يثبت أن الله تعالى يسمع ويرى فلا يمكن للبشر الاتصال به ﷻ؛ إذ لا يمكن الاتصال بالغير إلا بطريقين اثنين: إما الأذن أو بالعين؛ فالإنسان يدرك بسماع صوت أحد أنه في حاجة إليه، فيأتيه لمساعدته، أو أنه يرى أحدًا فيدرك أنه في مصيبة، فيسرع إلى نجدته. فلا يمكننا تقديم البرهان على وجود إله هو على صلة مع البشر إلا إذا كان ﷻ موصوفًا بصفة السمع والبصر. وهذا هو البرهان الذي يذكره إبراهيم عليه السلام هنا على بطلان عبادة الأصنام، فيقول ﴿يا أبتِ لم تعبُد ما لا يسمَع ولا يبصِر﴾؟ أي ما الجدوى من عبادة الأصنام العارية من هاتين الصفتين؟

ثم يقول ﴿ولا يُغني عنك شيئًا﴾. يقال "ما أغنى فلان شيئًا: لم ينفع في مُهِمٍّ ولم يَكْفِ مَؤُونةً" (الأقرب). فمثلاً لو كان على المرء دَينٌ، فدفع غيره دينه نيابة عنه، أو لو كان هناك مريض فسعى أحد لعلاجه، فإنه قد أغنى عنه، وكفاه في حمل هذا الثقل. فيقول إبراهيم لأبيه إن هذه الأصنام لا تغني عنك شيئًا، ولا يمكن أن تحمل عنك أي حمل ولا ثقل، فما الفائدة من عبادتها؟

والحق أن قوله ﴿ولا يغني عنك شيئًا﴾ تتمة للدليل الذي ذُكر في قوله تعالى ﴿ما لا يسمع ولا يُبصر﴾. ذلك أن المرء لو كان لديه أُذن، ولو سمع صوت شخص يستنجد به من مكان بعيد، ولكنه لا يقدر على نجدته لكونه أعرج لا يقدر على

المشي، فما الفائدة من سمعه؟ أو لو رأى شخصًا يوشك على الغرق، ولكنه لا يملك من الهمة ما يدفعه إلى إنقاذه فما الجدوى من بصره؟ إن السمع والبصر إنما ينفعان ما دام صاحبها قادرًا على النصرة والنجدة. فثبت أن الدليل المذكور في قوله ﴿لا يغني عنك شيئًا﴾ إنما هو يكتمل بالجملة السابقة ﴿ما لا يسمع ولا يبصر﴾. ذلك أن المرء يطلع على مصيبة غيره بطريقين اثنين: إما بالسمع أو بالبصر. ولكن مجرد السمع والبصر لا يكفيان إذا لم يكن صاحبهما قادرًا على تحقيق نيّته في نصرة غيره، أما إذا قدر على ذلك صارت صداقته ذات جدوى فعلاً. فلذلك يقول إبراهيم إن هذه الأصنام لا تسمع نداءك، ولا تبصر بليّتك، ولا تقدر على أن تكفيك في رد بلاء؛ أفليست عبادتها إذًا حماقة ما بعدها حماقة؟

قد يقول هنا قائل: من ذا الذي يزعم أن الأصنام لا تسمع أو لا تبصر؟ كلا، بل إنها تسمع وتبصر بحسب اعتقادنا. وإذا كانت أصنامنا لا تسمع ولا تبصر بحسب رأيكم، فما هو دليلكم أنتم على أن ربكم يسمع ويرى؟

والجواب أن الدليل على أن ربنا ﷻ سميع هو أنه يجيب دعاءنا وابتهالنا. وأما الدليل على كونه بصيرًا فهو أنه عندما يرانا في مصيبة يأتي لنجدتنا. فعون الله لنا وتلبيته لحاجاتنا لبرهان أكيد على أنه يسمع ويرى. ولكن الأصنام لا تلبي لأحد حاجة، ولا تساعده في مصيبة، فثبت أنها لا تسمع ولا تبصر، إذ كيف يمكن أن تسمع هي صوت مستنجد أو ترى أحدًا في بلية ومع ذلك لا تأتي لنجدته؟

ورد في الحديث أن أحد الصحابة قال إن ما هداني إلى الإسلام هو أننا في الجاهلية كنا نحبّ الأصنام جدًّا، حتى إذا خرجنا في سفر أخذنا معنا صنمًا لكي نكون ببركته في مأمن من البلايا والمصائب. وذات مرة خرجتُ في سفر وأخذت معي صنمًا، وفي الطريق تذكرت حاجة، وأردت الذهاب إلى مكان لسدّها، وكان معي متاع كثير لم أقدر على حمله معي. فتركت أمتعتي في العراء، ووضعت الصنم عندها وقلت: سيدي، أرجوك حراسة متاعي حتى أعود من حاجتي. فرجعتُ فرِحًا مطمئنًا بأني قد وضعتُ متاعي تحت رعاية ربي. ولما رجعتُ وجدت ثعلبًا قد رفع رجله يبول على الصنم. فغضبت غضبًا شديدًا ورميت الصنم بعيدًا، وقلت: لم

تقدر يا لعينُ على حماية نفسك من الثعلب الضعيف، فأنَّى لك أن تحرس متاعي؟ فقلت في نفسي إن ما يقوله المسلمون حق، فلما رجعتُ أسلمتُ.

ويقول صحابي آخر: أردت أن أخرج في سفر، وكان عندي متاع كثير، ففكرت أن حمل صنمٍ حَجَرِي في السفر مع المتاع الكثير صعب. فصنعت صنمًا من دقيق وأخذته معي في السفر. فنفد الطعام في الطريق، ولم يبق معنا شيئًا لنأكل، ولما جهد بنا الجوع كسَرتُ الصنم وعجنت العجين وصنعت منه الخبز وأكلته. وقلت في نفسي ما هذا الإله الذي قد أكلتُه، ولم يضرني شيئًا؟ فأسلمتُ.*

هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿ولا يغني عنك شيئًا﴾.

قد يقول قائل هنا: إن ما يتمنى الناس يتحقق لهم على طريق الصدفة أيضًا، فكيف يُعتبر تحقُّق أمانيهم دليلاً على وجود الله تعالى؟ فمثلاً يُرزق البعض ابنًا فيقول إن هذا ببركة سجودي لقبر فلان من أولياء الله تعالى، أو إذا حالفه النجاح في أمر قال إن هذا ببركة الطعام الذي وزعته على ضريح فلانٍ من الأولياء.

فليكن معلومًا بهذا الشأن أن الله تعالى قد ذكر في قوله ﴿ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا﴾ ثلاثة أمور كل واحد منها وثيق الصلة بالآخر، وكلها مجتمعةً تشكّل الدليل.. أي أن هذا الدليل القرآني يكتمل باجتماع السمع والبصر والإغناء كلها، بمعنى أنه إذا اكتملت هذه السلسلة المتكونة من هذه الحلقات الثلاث فلا يمكن أن يُعَدّ الأمر صدفةً، ولا يمكن أن يعزى إلى صنم من الأصنام. فمثلاً إذا دعا

---

* ورد في كتب الحديث: "في رواية مسلم: وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم ﷺ. ومن جملة ما يتحدثون به أنه قال واحد: ما نفع أحداً صنمُه مثل ما نفَعني. قالوا كيف هذا؟ قال: صنعتُه من الحيس، فجاء القحط، فكنتُ آكله يوماً فيوماً. وقال آخر: رأيت ثعلبين جاءا وصعدا فوق رأس صنم لي وبالا عليه، فقلت: أَرَبٌّ يبول الثعلبانُ برأسه؟ فجئتُك يا رسول الله وأسلمتُ، كذا في المرقاة.

(تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إنشادِ الشِّعر) *(المترجم)*

المرء لأمر، ثم تحقق مطلبه، نستنتج من ذلك أن تحققه نتيجة لاستجابة الله لدعائه. ولكن إذا لم يكن هناك أي دعاء، كما لم يكن النجاح غير عادي، فلا يمكن أن يُعتبر ذلك نتيجة الدعاء، إذ تقع في الدنيا بعض الأمور عن طريق الصدفة أيضًا.

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

سَوِيًّا: السويّ: هو المستوي؛ وأيضًا الاستواءُ والإنصاف (المنجد).

التفسير: قوله ﴿أَهْدِكَ صراطًا سويًّا﴾ يعني أُرشِدُك إلى صراط خال من العوج، لا إفراط فيه ولا تفريط.

إنني أرى أن أكبر اختبار واجه إبراهيمَ عليه السلام في حياته إنما هو أنه كان عليه أن يذهب إلى أبيه، أو لعمه عند البعض، ويقول له: ﴿يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتبعْني أهدِك صراطًا سويًّا﴾. ذلك لأنه من الصعب جدًّا أن يقول المرء للكبار مثل هذا الكلام. كان أكبر ابتلاء مر به إبراهيم في حياته هو أن الله تعالى بعثه في زمن كان أبوه الذي أنجبه، أو عمه الذي رباه، موجودًا فيه، فاضطر لأن يقول له إنك يا أبي على الخطأ ﴿فاتَّبِعْني أهدِك صراطًا سويًّا﴾.. وكأنه قال لـــه: يا أبت، اليوم أنا أبوك وأنت ابني من حيث الروحانية. لا شك أن الأولاد يتكلمون بمثل هذا الكلام بسبب سذاجتهم أحيانًا، فمثلاً يأتيني أحفادي الصغار في بعض الأحيان وعندما أُمسك بيد أُمّ بعضهم حبًّا وحنانًا وأقول أمامه: هذه بنتي، فيقول هذا الصغير أيضًا: هذه بنتي. هذا صحيح بالنسبة للأطفال الصغار، ولكن من الصعوبة بمكان أن يذهب الفتى إلى أبيه ويقول لـــه يا أبي، لم تَعُد منذ اليوم أبًا لي، بل صرتُ أنا أبًا لك. ولستَ أهلاً لتربيتي، لذا فمن الآن فصاعدًا لن تنبهني على أخطائي، بل أنا سأنبهك على أخطائك. إن التفوه بهذا الكلام صعب جدًّا جدًّا.

يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

لا تعبُدْ: عبَد اللهَ: طاع لـــه وخضَع وذلَّ؛ وخدَم (الأقرب). فالمراد من ﴿لا تعبُد الشيطانَ﴾ أي لا تُطعْه ولا تخضَعْ لـــه.

التفسير: قال الله تعالى هنا ﴿لا تعبُد الشيطانَ﴾، مع أنه لا أحد في الدنيا يعبد الشيطان. فثبت أن العبادة لا تعني السجود فحسب، بل من معانيها أيضًا أن يطيع الإنسان غيره طاعة كاملة دونما فحص وبرهان. فإذا كان المرء يطيع زملاء السوء دون أن يفحص الأمر بعقله فهو الآخر مشرك. وإذا كان يطيع هوى النفس ولا يراجع عقله فهو أيضًا مشرك. ذلك لأن أبا إبراهيم عليه السلام ما كان يعبد الشيطان بل الأصنامَ، ولكنه يخبره إنما تعبد الشيطان، وهذا يعني أن اتباع أمر بدون التعقل هو بمنـــزلة العبادة للشيطان، سواء أكان هذا الشيطان نفس المرء أو زملاء السوء أو الأرواح الشريرة*، لأن الشيطان يكون من نفس المرء، ومن زملاء السوء، ومن الأرواح الشريرة أيضًا التي تتغلب على المرء عندما يصبح مغرمًا بالإثم، فتحثّه على المزيد من السوء والمعصية. عندما لا ينتقد المرء ما توسوس له نفسه من الشر والسوء، وحينما لا يفحص المرء ما يأمره به زملاؤه حتى يعرف الرديء من الجيد، وعندما يقع في الأرجاس جراء سوء أعماله بحيث يتم له الاتصال بالأرواح الشريرة الشيطانية، فإنه في كل هذه الأحوال إنما يعبد الشيطان في مصطلح القرآن الكريم. والواقع أنّ تركَ المرء نقد الأمور بلا سبب ورضاه بالمنكرات بدون أي اعتراض لهو نوع من العبادة للشيطان.

فالله تعالى قد نبه بقوله ﴿لا تعبد الشيطانَ﴾ إلى أن المرء إذا رأى منكرًا في أحد فلم ينتقده، ورضِي بما يأمره غيره من دون أن يتدبره ويفحصه فقد اعتبره إلهًا، لأن الله تعالى هو وحده الذي لا يُسأل عما يأمر به، فإذا أيقن المرء بأن الله تعالى

* يجب ألا يُفهم من هنا أن المفسر ﷺ يعتقد بوجود الكائنات الوهمية التي يظن العامة أنها تتلبس الناس أو تعمل للبعض. راجع الجزء الرابع من هذا التفسير ص ٩٤ سورة الحجر قوله تعالى "والجان خلقناه من قبل من نار السموم". *(المترجم)*

موجود فلا بد لـــه من طاعة أوامره بدون سؤال وتردد، ولكن إذا لم تكن الأوامر من الله تعالى أو ممن ينوب عنه، فلا بد من فحص كل أمر ونقده قبل الطاعة.

وإن قوله تعالى ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا﴾ أيضًا يؤكد أن المراد من عبادة الشيطان إنما هو الطاعة بدون فحص وتدبر، ولا يعني عبادة الأصنام المادية، إذ متى رأى الناس الأحجارَ تنكر رحمانية الله تعالى؟ وكيف يمكنها ذلك وهي جماد لا حراك بها، في حين أن الله تعالى يعلن هنا ﴿إن الشيطان كان للرحمن عَصيًّا﴾، والعصيّ هو العاصي أي الخارج عن الطاعة والآثم (الأقرب). أما الأصنام فأنَّى لها أن تعصي الله تعالى؟ فإنها لو أُلقيت في الكنيف لم تدر أنها ملقاة في النجاسة أم أنها أمام شخص قد خر أمامها ساجدًا. إذًا فلفظ ﴿عصيًّا﴾ قد زاد الأمر جلاء حيث بيّن أن قوله تعالى ﴿لا تعبُدِ الشيطانَ﴾ ليس المقصود به النهيَ عن عبادة الأصنام المادية، بل يعني النهي عن اتباع أمر ما بدون تحرٍّ وفحص.

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

التفسير: لقد استخدم الله هنا لفظ الرحمن في سياق العذاب حيث جاء ﴿إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن﴾، مع أن العذاب لا ينـــزل وفق صفة الله "الرحمن"، وإنما بحسب صفاته الأخرى الدالة على عقابه الذي يستوجبه العصاة كصفة الجبار والقهار وذي الانتقام! فما الحكمة في ذلك؟

فاعلم أن كل صفة من صفات الله المتعلقة بالعذاب إنما تتجلى بسبب من الأسباب. فتارة ينكر المرء صفة الربوبية فتتجلى صفة العذاب، وأخرى يتصرف بما يتنافى مع صفة الرحيمية فتتجلى صفة العذاب، وحينًا ينكر صفة المالكية فتظهر صفة العذاب، ومرة ينكر صفة الإحياء فتتجلى صفة العذاب، وفي بعض الأحيان ينكر صفة الإغناء فتتجلى صفة العذاب.

فالصفات الإلهية المتعلقة بالعذاب ليست بصفات مستقلة في الله تعالى، أي لا تتجلى صفة العذاب من تلقائها دونما سبب، وإنما تتجلى نتيجة رفض الإنسان

لبعض صفات الله الحسنى. ولو ظننا أن صفة العذاب في الله صفة مستقلة لكان معنى ذلك أن ربنا – حاشا لله – ظالم حيث يريد بطبيعته أن يسحق العباد بالعذاب ويدمرهم تدميرًا. مع أن هذا من سيرة الجبابرة الظالمين، ويتنافى تمامًا مع ذات البارئ ﷻ الذي هو في الواقع جِدُّ رحيم كريم. فبما أن صفاته المتعلقة بالعذاب غير مستقلّة، ولا تظهر إلا بسبب صفة إلهية أخرى، فلا بد لنا من التسليم أن صفة العذاب إنما تتجلى بسبب مخالفة الناس لصفة الله الرحمن تارة، والرحيمِ تارة أخرى، والغفّارِ حينًا، والستّارِ حينًا آخر. فمثلا يستر الله على ذنوب شخص مرة بعد أخرى لكونه تعالى ستّارًا، ومع ذلك لا يتورع هذا من غشيان المعاصي، فيحل به العذاب من عند الله تعالى. فلا شك أن العذاب قد نـــزل عليه، ولكنه نـــزل بسبب صفة الله "الستار". أو أن الله تعالى يرزق أحد عباده رغدًا، ولكنه يزداد عصيانًا لـــه ﷻ، وعندما يرى الله تعالى معاصيه المتكررة ينـــزل عليه العذاب. فلا جرم أنه قد نال العذاب، ولكنه كان نتيجة لصفة الله "الرزاق"؛ حيث تلقى العذاب حين أساء إلى هذه الصفة الإلهية.

فقول إبراهيم لأبيه ﴿إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن﴾ يعني أني أخاف أن يصيبك من الله العذابُ الذي يحل نتيجة الإساءة إلى صفة الرحمانية. لقد منحك الله الأحجار والنار والماء، وقد أنعم عليك بهذه النعم كلها نتيجة رحمانيته ﷻ، ولكنك جعلتها شريكًا مع الله تعالى.

اعلَمْ أن كل ما يوجد في الدنيا من أصنام وشرك إنما هي ذات صلة بصفة الله الرحمن. فمثلا إن الله تعالى بعث المسيح عليه السلام إلى الدنيا، وكان الهدف من بعثته أن يخدم عباده ﷻ، ولكنهم قد اتخذوا المسيح نفسه إلهًا. فثبت أن الشرك والوثنية إنما يتولد نتيجة إنكار صفة الله الرحمن. ومن أجل ذلك تجد المسيحيين والهندوس ينكرون صفة الله الرحمن. إن الهندوس لما تدبروا في تعليمهم اضطروا للقول أن الله ليس خالقًا للمادة والأرواح، إذ لو آمنوا بأن الله خالق لهما لآمنوا أيضًا برحمانية الله تعالى، والإيمان بالرحمن يعني القضاء على الديانة الهندوسية. وبالمثل لو أن المسيحيين آمنوا برحمانية الله تعالى لزم عليهم الاعتراف بأن الشرع ليس لعنة، بل إن رحمانية

الله تقتضي نـــزول الهداية من عنده تعالى؛ وإذا لم يكن الشرع لعنة، بل يؤدي العمل به إلى النجاة، لوجب إنكار الكفارة والفداء؛ وإنكار الكفارة ينفي بنوّة المسيح لله تعالى، وبطلان بنوة المسيح لله تعالى يرادف هلاك المسيحية.

فثبت بذلك أن أكبر ما يكفر به المشرك هو صفة الله الرحمن، فكأن هذه الصفة الإلهية تعلن للأمم الوثنية أن إساءتكم بحقي قد بلغت منتهاها، فلا بد أن يحل بكم العذاب. فقوله ﴿إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن﴾ لا يعني أن صفة الرحمانية تُنـــزل العذاب، بل المراد أنما ينـــزل عليهم العذاب لانتهاكهم حرمةَ هذه الصفة.

أما قول إبراهيم عليه السلام ﴿فتكون للشيطان وليًّا﴾ فهو الآخر يؤكد أن عبادة الشيطان لا تعني هنا عبادة الأصنام، إذ كان أبو إبراهيم وليًّا للشيطان من قبل.

لقد بيّنتُ من قبل أن الإنسان ينشئ صلته بالشيطان بطرق ثلاث: أُولاها نفسُه، إذ تأمره بالسوء وتغويه، فيكون على صلة مع الشيطان، والثانية الصحبة الشريرة، والثالث: اتصاله المباشر بالشيطان، فتؤثر فيه الأرواح الشريرة الشيطانية وتزيده ضلالاً على ضلال.

لقد قال إبراهيم لأبيه أوّلاً ﴿لا تعبُد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا﴾، ثم قال لـــه إنك إن لم ترتدع عن عبادته فأخاف أن تسبب صفة الله الرحمن في جلب العذاب عليك، فتكون للشيطان وليًّا. وهذا يعني أن ولاية الشيطان أخطر من عبادته. ذلك لأن الإنسان يطيع الشيطان في أول الأمر نتيجة ما توسوس بـــه نفسه من أفكار فاسدة، أو جراء الصحبة الشريرة، ولكنه عندما يزداد سوءًا يكون لـــه اتصال مباشر بالشيطان، شأن المؤمنين الذين إذا ازدادوا خيرًا وصلاحًا كان لهم اتصال مباشر بالملائكة.